شفيق غربال

بحث فى منهجه وأحكامه التاريخية

للأستاذ أحمد خاكى

مقدمة:

لست أريد أن يكون البحث في المنهج التاريخى عند شفيق غربال ، بحثاً شاملا فياضاً ، ولكنى أطمع فى أن ألم إلمامة بوجهين من وجوه التأليف التاريخى عند أستاذنا رحمه الله ، أما الألمامةالأولى فهى التأريخ : أى كتابة التاريخ نفسه ، وأما الإلمامة الأخرى فهى الثقافة التاريخية التى تنتهى إليها قراءة التاريخ والأحكام التاريخية التى ينتهى إليها المنهج .

الإلمامة الأولى عندنا تقناول مؤلفات شفيق غربال وخاصة فى كتابه الأول الذى ألفه بالإنجليزية« بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » . وفي كتابه الثانى عن « محمد على الكبير » . وفى كتابه الثالث عن « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية حتى سنة ١٩٣٦ » ، والإلمامة الثانية تتمثل في محاضراته وأحاديثه ومقالاته وتعليقاته ، وهى التى انتهت بمقال له عن « الآراء والحركات فى تاريخ الإسلام » ، وبمحاضراته العشر التى جمعت فى كتاب « تكوين مصر » وأصلها باللغة الإنجليزية .

نقول إن هاتين النظرتين من منهج التأريخ ومن الثقافة التاريخية، قد صحبت كل منهما الأخرى في حياة شفيق غربال قرابة أربعين عاما ، بدأت منذ دراسته فى إنجلترا التى انتهى منها فى سنة ١٩٢٥ ، ولبثتا حتى وفاته إلى رحمة الله فى الثامن

عشر من أكتوبر سنة ١٩٦١ ، بل لا تزل النظرتان ماثلتين فى الكتب التى ألفها ، وفى المقالات التى دبجها ، وفى المقدمات والتعليقات التى أقر بها الرسائل العلمية التى أشرف على تحريرها ، بل إن النظرتين تتمثلان أيضاً ، وبنوع خاص ، فى فئات التلاميذ الذين كان لهم الحظ أن يستمعوا إليه وأن يتابعوا تقاليده ، وأن يفيدوا من ثقافته الفائضة .

(١) بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على(*)

لشفيق غربال إذن نظرتان كمؤرخ : النظرة الأولى واتته وهو يكتب التاريخ ونطلق عليها لفظ « التأريخ » ، كما قدمنا، وتشمل هذه النظرة قراءة النصوص ، واستقراء الوثائق وفحصها، والقياس على الوقائع الثابتة ،واعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى تتحكم فى الوقائع السياسية ، ثم النزعات الفردية والنزوات الشخصية التى كانت السبب المباشر فى تصرفات الرجال . . كل هذه هى المواطن والمظان التى ينبغى أن يلم بها المؤرخ ويأتى فيها بالقول الفصل . وقد كان شفيق غربال من أكبر الذين اتخذوا هذا المنهج التاريخى ،ويبدو ذلك فى كتابه الأول «بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » وقد كانت بعض فصوله رسالة تقدم بها لنيل أجازة البكالوريس من جامعة ليفربول ،ثم أتمها ونال بها درجة الماجستير من جامعة لندن ، والكتاب طبع ونشر سنة ١٩٢٨ .

ويجمل بنا أن نذكر أنها كانت رسالة جامعية ، وأنه كان فى كتابتها متوقد الذهن موفور الانتباه ، وأنه كان مطالبا — كأى طالب جامعى — بألا يكتب فقرة واحدة ولا يبدى رأيا واحدا إلا مؤيدا بمصادره وأسانيده . فإلى جانب أن ذلك كان تدريبا حقيقيا على كتابة التاريخ ، إلا أن الرسالة جاءت مثلا من

[*] «The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali» by Shafik Chorbal .

أمثلة التاريخ بمعناه الفنى ، فما انساق وراء الآراء الشائعة ، ولا الخزعبلات التى ورثها العامة ، وكاد يصدقها الخاصة . وكانت أبواب التاريخ جميعاً مفتحة أمامه ، فنظر من خلالها وتدبر ، واستطاع بالمقارنة والموازنة ، أن يخلص بهذه الرسالة التى كانت باكورة أعماله ، وكانت فى نفس الوقت مثلا من أمثلة التأريخ الفنى .

والفكر الإنسانى فى أحسن مناهجه ، ينتقل من التحليل إلى التركيب ، ثم من التركيب إلى التحليل ، وهكذا دواليك ، ويظل عاملا فى هاتين الناحيتين حتى ينتهى من الموازنة والمقارنة إلى نوع من أنواع المصالحة هى التى يطمئن إليها فيرسلها أحكاما

وليس غريبا أن يبدأ مؤرخ مثل شفيق غربال بالناحية التحليلية ، وليس غريبا أن تؤدى به هذه الناحية إلى مراق أخرى من التركيب الذهنى . وقد وضح ذلك كل التوضيح فى أخريات أيامه ،واعترف بحاجته إلى التنظيم الذهنى والتركيب الفكرى فى بعض أحاديثه الأخيرة ، ولكن قوته التحليلية تبدو فيما نحن بصدده من تعقيب على رسالته الأولى عن « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » .

كتب جزءا من الرسالة — هو الجزء الثانى — تحت إشراف الأستاذ « أرنولد توينبى » وهو من نعلم مكانته فى عالم تاريخ الحضارات ، وجاء فى المقدمة التى كتبها توينبى لهذا الكتاب ، ، ثناء صادق على المنهج الذى اتخذه شفيق غربال فى تأليف كتابه.

على أن شفيق غربال لم يقتصر على الوثائق التى لم تنشر ، بل لقد رجع الى أكثر من مائتين وخمسين من مختلف المصادر قسمها الى ثمان فئات ،ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من الهوامش التى ترجع الدارس الى هذه المؤلفات ، بل لم يكد يبدى رأيا أو ينقض رأيا الا أثبت المصدر الذى استند اليه . وهكذا استطاع شفيق غربال وبعض أترابه أن يقيموا مدرسة الفحص التاريخى فى مصر ، فهو ينخل

الآراء جميعا ويضاهى كلا منها بما يوائمه أو يعارضه ، واستقامت له فى آخر الأمر تلك الدراسة التاريخية العميقة التى ضمنها كتابه عن « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » .

بل ولا يقتصر الأمر على استقراء الحوادث ولا القياس عليها ولا تقويمها ، بل كان شفيق غربال يقوم دائما بتصوير الشخصيات التى كان فى صدد الحديث عنها أنه يصف هذه الشخصيات بحيث تستطيع أنت أن تراها وأن تفسر السلوك الذى تسلكه فى الحوادث التى شغلتها . والى جانب نابليون وكليبر ، ومينو ، وغير هؤلاء من قادة الحملة الفرنسية ، نعرض عليك صوراً لأولئك الذين كانوا يعملون فى الحقل الدبلوماسى ، من أتراك ، وفرنسيين ، وانجليز ، وروس ، ونمساويين ، من أمثال الريس أفندى ، وسدنى سميث ، ولورد الجين ، وكاتنج . هذا الى جانب تصويره للشخصيات التى قامت فى مصر والتى قام بينها النزاع على السلطة : مثل محمد على نفسه ، وعمر مكرم ، وعلماء الأزهر ، والألفى .

لنذكر أن العنوان الثانوى لهذا الكتاب ، هو « دراسة فى دبلوماسية عصر نابليون على أساس بحوث فى الوثائق البريطانية والفرنسية » (١) ، وأن الموضوع بوجه عام، كما قال « أرنولد توينبى » يستحق أن يدرس من الوجهة التاريخية الفنية ، وأن شفيق غربال كان مؤهلا لأن يقوم بمثل هذه المهمة ، لأنه كان يجمع فى فى عطفيه اثنتين : كان يتمتع بالملكة التاريخية الخالصة ، كما كان مثقفا بثقافة بلاده — ولكنه كان يتفحص هذه الوثائق والمصادر — كما قال عنه « أرنولد توينبى »

(1) A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era Based on Researches in the British and French Archives".

أيضا — بالنزاهة المطلقة التى يجب أن يتحلى بها مؤرخ الحوادث ، وبلغ من ذلك — فى رأى توينبى — أنه إذا قرأ قارىء هـذا الكتاب من غير أن يعلم من مؤلفه ، لما استطاع أن يدرك أنه مصرى فقد توخى فى دراسة الوثائق والمصادر ، ما يتوخاه دائما المؤرخون الفنيون من حيث الحياد فى تقويم الأشخاص والحوادث — من غير أن يطوح بهم الهوى أو التحامل أو العاطفة أو الموجدة .

ثم هل كان هـذا الكتاب فتحا جديداً فى تاريخ هـذه العلاقات الدبلوماسية التى تصدى للبحث منها ؟ . ان فضل هـذا الكتاب فى نظرنا — الى جانب هذه القيمة التاريخية — هو أنه أثبت أن المسألة المصرية ، كانت شعبة مهمة من المسألة الشرقية وأننا لانستطيع أن نفسر حملة بونابرت على مصر نفسها ، ولا جلاء هذه الحملة ، ولا الإتفاقات التى تلتها ، ولا قيام محمد على ، ولا حملة « فريزر » على مصر ، ولا غير ذلك من الأحداث ، إلا إذا ربطنا بين كل ذلك وبين المؤثرات والدسائس ، والمفاوضات التى كانت تجرى بين دول أوربا وأهمها : بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والنمسا ، وتركيا .

وفضـل آخر لهـذا الكتاب ، هو أنه فتح آفاقا جديدة فى تاريخ الشعب المصرى الذى كان يعيش الأيام السوداء تحت حكم المماليك ، والذى عانى أشـد ما يعانيه بلد أو مجموعة من البلاد فى السنوات الخمس التى تلت حملة نابليون بونابرت وسبقت قيام محمد على والسنوات الخمس الأخرى التى تلت قيام محمد على . لقد درس شفيق غربال « الجبرتى » دراسة فاحصة ، ونقل عن ترجمتـه الفرنسية أجزاء عديدة حتى يبين موقف أهـل مصر من كل ذلك . وعلى الرغم من أن الكتاب تاريخ دبلوماسى ، إلا أن شفيق غربال صور لنـا صـورة بائسة للشعب المصرى ، وفى نفس الوقت ينقـل إلينـا فى كتابه أجزاء من تقـارير كتبها الرحالة

الإنجليز ، والفرنسيون ، وقناصل الدول ، أيام الحملة الفرنسية وبعدها .

فضل هذا الكتاب الأكبر إذن ، هو أنه ملأ فراغا كان قد أهمله المؤرخون الغربيون ، حين عرضوا التاريخ الدبلوماسي بين الشرق والغرب ، فقد سلك المسألة المصرية في عداد المسائل المتشابكة التي كانت تتكون منها « المسألة الشرقية » في أسرارها ، واستطاع دارسو التاريخ المصري — بعد ذلك — أن يدركوا الأطماع السياسية التي كانت تلعب وراء مظاهر السياسة والحرية ، وهو إلى جانب ذلك قد فتح فتحا جديدا في تاريخ مصر ، إذ أن تلامذة شفيق غربال تعلموا على يديه هذه البراعة في كتابة التاريخ : في استقراء النصوص ، وفحص الأضابير ، ثم عرض كل ذلك في أسلوب سهل أخاذ . ولا شك أن المدرسة التاريخية الحديثة مدينة لشفيق غربال بهذا الاتجاه الفني الذي تحدثت عنه ، فقد قام كتاب ومؤرخون أفاضل يرجعون إلى الوثائق التاريخية ، وإلى الكتب القديمة والجديدة ، وإلى الرسائل والتقارير ، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بكتابة بحوث عن مصر في كل عصر من عصورها ، وانتهج تلامذته منهجه حتى في دراسة العصور القديمة والوسطى ، ثم في دراسة الأحداث السياسية الدولية التي حاقت بمصر في أخريات عصر « محمد على » ، ثم في سنة ١٨٨٠ ، وفي سنة ١٩٠٤ ، وفي سنة ١٩١٤ ، وفي سنة ١٩١٩ ، وفي سنة ١٩٣٦ ، ثم في سنة ١٩٥٢ — وعلى هذه المدارس أن تبصرنا بهذه الدبلوماسية التي حامت حولنا في سنة ١٩٥٦ ، وسنة ١٩٦٧ ، ثم هي لا تزال تحوم من حولنا في هذه السنة التي نعيش فيها ، فكل هذه سنوات تدل على ما وراءها من دسائس ومؤامرات وخدع ونزعات واتجاهات .

* * *

تلك إذن هى النظرة الأولى التى زعمنا فى صدر هذا الحديث ، أنها تمثل اتجاه المؤرخ الفنى فى شخص شفيق غربال، ولكن هل كان شفيق غربال حقا مؤرخا محايدا لا يهتز للنصوص إلا بمقدار ما يحكم عقله فى مبناها ومعناها ؟ ، هل نفهم من « أرنولد توينبى » أنه كان كاتبا لا لون له ولا اتجاه ولا فلسفة ينم عنها حديثه أو كلامه أو كتابته ؟ . إن مؤرخا مثل « جيبون » لم يكن يستطيع أن ينكر آراءه ، ولا عقائده ، ولا اتجاهاته فى كتابه الضخم عن إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، وكذلك نلمح حتى فى هذا المؤلف الموضوعى شخصية شفيق غربال المؤرخ المصرى ، ولا نقصد فى ذلك فقط روح الفكاهة المصرية التى تبدو فى وصف سلوك رجل مثل الألفى ، ولكننا نقصد أن تعقيباته على الحوادث بعد أن يؤلف بينها عن مقدار الأسى الذى كان يعانيه — وينقلب هذا الأسى إلى سخط فى أحيان ، وينقلب إلى أمل فى المستقبل القريب أو البعيد فى أحيان أخرى ، فهو يقتبس من الجبرتى قوله فى أحد المواقف : «إن العاقل من لايصلح الخراب» ، ويمكنك أن تقدر ما يحز مثل هذا الكلام فى نفس المؤرخ الذى يحاول أن يتصور الخمس السنوات التى سبقت قيام محمد على وتثبيته على ولاية مصر فى سنة ١٨٠٥ ، ويمكنك أن تقدر مشاعره عندما يصور الجشع والنقمة والضراوة التى استخدمها محمد على فى حكمه حتى يؤسس حكومة مركزية تسيطر على مصر وتتسع ، فيظل سلطانه بقية البلاد حواليه . ويبسط شفيق غربال جهود محمد على فى إنشاء هذه الحكومة المركزية فى كتاب « محمد على الكبير » .

(٢) محمد على الكبير

خرج « كتاب محمد على الكبير » فى سلسلة أعلام الإسلام فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ولا يقع إلا فى ١٦٤ صفحة من الحجم المتوسط ، كما وقعت أجزاء

أخرى من هـذه السلسلة ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية قائمة لم تضع كل أوزارها ، وكان الورق غير موفور ، ولذلك فقد أتى الكتاب محدود الحجم ، ولكنه كان يحتوى أحكاما قيمة على « تصرفات » محمد على ، وتطلبت هـذه الأحكام إيراد الأسس والوقائع التى بنيت عليها الأسس والوقائع فى حبكة مختصرة تقتضى القارئ أن يلم بها وبأكثر منها قبل أن يقتنع بهذه الأحكام .

هنا يختلف شفيق غربال عن نفسه أولا ، ثم يختلف عن غيره ثانيا ، ومنهج البحث فى هذا الكتاب يقوم على فحص الوثائق والمؤلفات والمراجع ، لكن المؤلف فيه لم يعن بأن يورد مثل الهوامش الكثيفة التى وردت فى كتابه الأول ، فالناحية التركيبية فى هذا الكتاب أظهر من الناحية التحليلية ، وهو يختلف أيضا عن مؤلف مثل عبد الرحمن الرافعى ، فإن عبد الرحمن الرافعى كتب « عصر محمد على » فى ٦٥٠ صفحة من الحجم الكبير ، وكلف نفسه أن يسرد التاريخ ويورد التفاصيل ، ويحقق الأرقام والأمكنة ، وكل ذلك لم يكن مما عنى به شفيق غربال فى هذا الكتاب ، ويتفق الإثنان — بعد ذلك — فى أنهما يكادان يرجعان نفس المؤلفات والكتب ونفس النصوص والوثائق ، لكنهما يختلفان فى تفسير النصوص والوثائق .

ثم هناك اختلاف آخر بين المؤرخين : فعبد الرحمن الرافعى يرى أن قيام محمد على وعصره ، ما هو إلا جزء من الحركة القومية التى انتهت بظهور مصطفى كامل ، ثم مضت إلى اليوم الذى كان يكتب فيه ، ولذلك فقد تراوحت أحكامه على محمد على بحسب الحوادث القومية التى آلى على نفسه أن يسردها على طريقة الراوية الصحافى ، أما شفيق غربال فإنه يباديك بالصورة العامة من ناحية السياسة العالمية ، وموقف تركيا بين دول أوربا ، وموقفها من حيث أنها حارسة لما سمى « دار الاسلام »

وهو يرسم لك خلفية لصورة مصر فى سكونها واستسلامها للخراب ، وفى العبودية التى كانت تئن تحت نيرها — وبعد كل هذه الصور ، يخرج إلى المسرح « محمد على الكبير » لندرك تاريخ مصر وموقفها أمام هذه الخلفية المرسومة ، وندرك موقف محمد على من كل ذلك إذا كان قد أحسن إليها أو أساء .

هل كان كتابه عن محمد على مثلا من أمثلة عبادة الأبطال التى اشتهر بها مؤرخون مثل « كارليل » ؟ . لقد ذهب البعض إلى الأخذ بهذا الرأى ، وتقتضى الكتابة عن البطل فى رأى هؤلاء ، أن يكبر المؤلف من حسناته ويمجدها ، وأن يغضى عن سيئاته ويبررها ، وظاهر فى كتاب « محمد على الكبير » أن شفيق غربال لم تفته فرصة إلا وسوغ مسلك محمد على ، فالكتاب إذن من هذا الصنف الذى كتبه « كارليل » عن أبطاله وألفه « ماكولى » عن بناة إمبراطوريته ، وفى نفس الوقت الذى انتهى فيه شفيق غربال فى كتابه الأول بوصف الجشع الذى أبداه محمد على فى تأييد سلطانه ، فإنه يلتمس العذر كل العذر فى كتابه الثانى ، لكل تصرف من تصرفات محمد على حتى إذا كانت نابية عن العدل متجافية وحقوق المصريين أفراداً وجماعات .

وحينما يحلل مؤرخو الأدب موقف « كارليل » من أبطاله ، يرجعون عبادته الأبطال إلى تأثره الشديد بفلسفة الفرد القوى التى كان يدعو لها « نيتشه » .

كان « كارليل » يرى أن التاريخ ليس إلا سلسلة طويلة لأفراد عظماء ظهروا على مر العصور : كل منهم ترك أثرا حميدا فى حياة الجماعة التى عاش فيها ، وأثرا خالدا فى حياة العالم بوجه عام . وليس محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا شكسبير ، ولا أى من أبطاله ، إلا المثل الأعلى للفرد الذى استطاع أن يطوع الدين أو الأدب أو التاريخ لتتوافق مع المثل الأعلى الذى عاش من أجله ، ويبدو

أن كاتب السيرة يبدؤها بأن يصور لنفسه النمط الكامل الذى يريد أن يكونه البطل الذى يكتب عنه : إنه يصوره فى صورة الكمال الذى يكاد يكون مطلقا ، ثم يحاول بعد ذلك أن يطبق الصورة المثالية التى ابتدعها فى عالم الخيال على البطل الذى يقدسه فى حياة الواقع . هذا هو الذى حدث عندما كتب « كاوليل » ما كتبه عن أبطاله العظماء ، وهذا فيما يبدو هو الذى حدث عندما كتب شفيق غربال عن محمد على .

* * *

كان مسرح الحوادث التى اشترك فيها وسيطر عليها محمد على — فيما بعد — مسرحاً من الخراب والدمار والبوار ، وكان يلعب على هذا المسرح فئات من الخلق كل فئة منها تسعى لذات نفسها لم تجمعها رحم ، ولا ربطت بينها أوشاج المحبة والقربى حاكم عثمانى مسلم لايتسلم عمله فى مصر حتى يرسل عليها زبانيته ليجمع لنفسه ولسطانه المال بأى طريق ، ومماليك مجلوبون من أقصى الأرض يقتتلون مع بعضهم البعض ويتفانون فى سبيل إدراك السلطة الغشوم ، وأقباط آلت إليهم شئون الحسبة ، يخضعون لكل من تهيأت لهم أسباب القوة ، ومشايخ يتحدث الكثير منهم بإسم الدين ، لكن كان منهم من يسايرون نوازع الجشع ويشتركون فى الالتزام وتضوى أجسامهم بأموال الأوقاف التى يلتهمونها حراماً ، ورؤساء من البدو كانوا دائماً خصوماً لكل من سكن الحضر ، وفى هذا المناخ الذى لايدانيه فى سوئه الا حالة الدول الرومانية فى القرنين الثانى والأول — قبل الميلاد — ظهر محمد على ليضم سلطة مركزية تجمع فى إطار واحد كل هذه القوى المتصارعة ، وتعمر هذا الخراب الذى عبر عنه الجبرتى بحق حين قال فى بعض هذه الإحن التى عصفت بقصر من قصور المماليك ، بعد أن كان قد أصلحه صاحبه وزينه وهكذا فإن العاقل من لا يصلح الخراب .

وهذه الكلمة من كلمات الجبرتى — كما أسلفنا — هى المفتاح الذى اتخذه شفيق غربال ليصف المناخ الذى ران على مصر فى السنوات الخمس التى سبقت قيام محمد على ، والذى أظل مصر فى السنوات التى تلت قيام محمد على ، وهذه الحالة نفسها هى التى حاول الفرنسيون أن يعالجوها فى الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر وهى التى حملت محمد على على القيام بخطة العمران أو العمارية كما كانوا يسمونها ، وأهم مايميز سلوكه فى ذلك ، هو أنه كان لا يستطيع أن يحتمل الخراب أو الصائر إلى الخراب فهو معمر تحرك أمام هذا التحدى الذى وجده فى أرض مصر حتى تصبح مصر — كما كانت دائماً — مهداً للحضارة .

وشفيق غربال ، وعبد الرحمن الرافعى ، يشتركان فى هذا التقدير ، فمثل هذا يذكره عبدالرحمن الرافعى فى صدر الفصل الثالث عشر من عصر محمد على (ص ٥٣٩) ، وعنوان الفصل لأعمال العمران .

اتجه محمد على — فى نظر شفيق غربال — اتجاهاً ديناميكياً نحو حالة السكون والجمود والركود والكسل التى رأى عليها مصر . والواقع أن أكبر ما يميز محمد على — عند شفيق غربال — هو أنه كان دائماً فى حركة وأنه لم يعرف السكون حينما كان ينبغى له أن يسكن . فهذه الحركية التى امتاز بها هى التى دعته لحركة التعمير ، وهى التى دعته لحروبه المختلفة ، وهى التى أملت عليه سياسته الخارجية — ولو أنه عرف السكون فى سياسته الخارجية — بعد سنة ١٨٤٠ — لا نقلب تاريخ مصر ، غير الذى كان . هنا إذن نرى محمد على وهو يريد التعمير لافى المنشآت المادية التى أشاد بها الرافعى فحسب ، بل فى العلم والفن والإدارة ، وغير ذلك مما يميز الحضارة الحديثة ، بل لقد كان متحركا معمراً ، لأنه وجد ضرورة ذلك فى بعض ما ورثته مصر من رسالة الإسلام ، ويقول شفيق غربال فى ذلك (ص ٧٣) قبل محمد على الأخذ بفكرة الحركة لا على أن رسالة الإسلام ، قد قضيت

بل تحقيقاً لقانون قديم من قوانين تطور الأمة الاسلامية ، وهو وجوب بعث حافز من دعوة أو عصبية يخرج الأمة من طور سكون إلى طور حركة ، وقد يكون مصدر الحافز داخلياً ، وقد يكون خارجياً ، ولكن أثره دائماً أشبه ما يكون بأثر الخميرة فى العجينة تكسبها سراً من أسرار الحركة .

* * *

ولنقف وقفة متدبرة عند هذه الكلمات ، لأنها على بساطة التشبيه فيها تحمل فى أطوائها مذهباً بأسره ، هو الذى يفلسف به شفيق غربال تصرفات محمد على فى خلق هذا العمران . ولقد كان محمد على يبعث هذه الأمة التى سكنت هذا الجزء من وادى النيل . كان يؤمن ببعث « عصبية » خاصة تحفز المجتمع إلى التقدم . ولكى يبلغ هذا الهدف السامى ، فقد اعتمد على ثلاث رددها شفيق غربال فى كتابه هى : الحديد والعلم والمال ، وتختلف هذه عن الإصلاحات التى بدأ بها معاصره السلطان محمود فى تركيا حين اعتمد على هذه القوة العسكرية فقط ، ولكن محمد على فى اعتماده على تلك الأسس الثلاثة ، حاول أن ينتخب صفوة من المعاونين يؤلف منهم تلك الفئة التى كانت تدب عبقريتها فى جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة فى العجينة . كانت هذه الصفوة هى الطبقة الفنية المثقفة التى وردت العلم فى أوربا لا لتتعلم فحسب ولكن لتعود إلى مصر كيما تطبق العلم على العمل ، وكيما ترقى الزراعة وتخلق الصناعة ، وتخدم الجيش وتبنى الأسطول .

ولأجل أن ندرك فلسفة الصفوة هذه ، ينبغى أن نبحث فى مواطن أخرى مما كتبه شفيق غربال ، فهذه الصفوة هى التى كونت الأرستقراطية العلمية التى آلت إليها فيما بعد القوة السياسية ، ولكنها بدأت فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ولم ينتصف القرن حتى كان منها زهاء ٣١٩ * مبعوثا الأغلبية الساحقة منهم

(*) تقدير عبد الرحمن الرافعى .

درست العلم التطبيقى والفن التطبيقى أو ما نسميه الآن التكنولوجيا (وعدد قليل من الأفراد بينهم درس الآداب أو القانون) . ولم يأت اتقانهم الفرنسية أو الإنجليزية ، إلا عن طريق هذا العلم التطبيقى . نقول إن شفيق غربال كان متأثراً بآراء بعض المؤرخين والمفكرين من الإنجليز أو الفرنسيين ، حين فلسف موقف محمد على فى خلق هذه الأرستقراطية ، والجهرة من هؤلاء على أنه لا يمكن النهوض بمجتمع إلا إذا وجدت فيه فئة قليلة من قادة الفكر هم الذين يرتادون الآفاق التى حجبها الجهل عن العامة . وحين يعالج « أولدس هكسلى » تطور الحضارة ، يذكر أنه ينبغى للتقدم أن تكون هناك تلك الفئة من قادة الفكر الذين يتمتعون بثلاث التفرغ أولا ، والأمن ثانياً ، والحرية ثالثاً ، بل إن شفيق غربال وقع تحت تأثير مباشر لأستاذه « أرنولد توينبى » حين ذهب إلى أن الحضارة المصرية القديمة نفسها قامت على كواهل (أقلية خلاقة) * من الفنيين والمفكرين الذين سيطروا على اقتصاديات البلاد وقابلوا التحديات التى واجهتهم بها الطبيعة . فلولا هؤلاء ما استطاعت مصر فى تاريخها الطويل ، أن تبنى حضارتها . ولولا أمثال هؤلاء — عند شفيق غربال — ما استطاعت معه أن تخرج إلى العصر الحديث ، وهى أمة تقوم أساساً على الحديد والعلم والمال » .

ثم هل كان محمد على يدرك ما هو بصدده من حيث خلق هذه الحضارة .. ؟ . لقد أكثر شفيق غربال من الاقتباس مما تحدث به محمد على إلى معاونيه ، وكانت كل أحاديث محمد على تنم على أنه مدرك لموقفه كل الإدراك . كان هو الذى يخطط ، وكان يستعين فى ذلك بعصبة من الفرنسيين . ويوازن شفيق غربال بين موقف محمد على ، وموقف الفرنسيين من قبله فى خطة الإصلاح ، فينتهى إلى أن محمد على قد نفذ أكثر ما كان الفرنسيون يستطيعون أن ينفذوه لو امتد حكمهم مصر

(*) Creative Minority

بضع سنين ، ولكن لم يتح للحملة الفرنسية أن تنفذ منهاجها الذى وضعه نابليون وأصحابه ، وأتيح لمحمد على أن يخرج هذا المنهاج إلى عالم الشهادة ، ولعله من العسير أن نجد « تخميناً » تاريخيا أدق من هذه الموازنة التى عقدها شفيق غربال ، فهى تصور حسب ما قال ، « مما كتبه بونابرت وغيره عن نواياهم ، ومما شرعوا فى تحقيقه فعلا ، وبما رأيناه فى طرق الحكم الفرنسى فى غير مصر من الأقطار الإسلامية» .

***

نفذ محمد على هذه الخطة باصطناع حكومة مركزية لم تكن برلمانية ولا ديمقراطية ، فما كان يستطيع أن يكون ديمقراطيا ، ويذكر شفيق غربال أن مثل أنظمة الحكومة الاقتصادية مما أعجب به اتباع « سان سيمون » الاشتراكى وأولهم الأب « أنفانتان » الذى زار مصر على رأس بعثة تنظر فى أمر وصل البحرين وحفر قناة السويس ، ولبث هو وأصحابه بضع سنين يعاونون الحاكم فى مشروعاته . كذلك يذكر شفيق غربال أن « جيريمى بنتام » كان من المعجبين بحكومة محمد على ، وهو صاحب مذهب المنفعة الذى يقضى بأن تعمل الحكومة على أن يصيب أكثر الخير أكثر الناس . وهنا لا يستطيع شفيق غربال أن يبرر أوتوقراطية محمد على إلا بأن يثبت أن دوافع محمد على كانت كلها أخلاقية . وبالغ مبالغة ظاهرة فى وصف سماحته وتعاطفه مع هذه الأرستقراطية العثمانية التى نماها ، بل بالغ مبالغة أخرى فى وصف عطفه على بعض صغار الناس ، ورأى أن السماحة كانت من شيمه وضرب مثلا أنه نقل إليه أن حفيده عباس باشا قتل فلاحا فأرسل إليه كتابا يؤنبه فيه ويحذره من عدم العودة إلى مثل هذا العمل .. !

إنها هى المحنة الفكرية التى يتعرض لها المؤرخون وبخاصة الذين يكرسون بعض جهدهم لكتابة سير الأبطال ، وقد تعرض لهذه المحنة شفيق غربال ، فلا

شك أن كان لمحمد على هدف واضح يعيه ويدركه ويعمل له وهو التعمير ، ولكن لا شك أيضاً أن فرض الضرائب والسخرة والاحتكار والعامل الشخصى في القضاء والإدارة ، وقصر المناصب العليا على الاستقراطية العثمانية . . لا شك أن كل ذلك يوضح الجانب السيء من عصر محمد على .

ولا شك أن الشيخ محمد عبده كان متأثراً بذلك حينما كتب مقاله عن محمد على — وقد بدأ شفيق غربال كتابه « محمد على الكبير » بالرد على الشيخ محمد عبده . ولكن لا شك أيضاً أن شفيق غربال كان يغتفر لمحمد على هذه السيئات ، لأنه كان يرى أنه لا بد من تضحية جيل أو جيلين فى سبيل الهدف الأسمى فى بناء حكومة معمرة في إقليم مصر ، بل كان يرى أن تشمل هذه الحكومة المعمرة « دار الإسلام » بأسرها . وشفيق غربال يبرر ذلك بالموازنة بين العامل المصرى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبين زميله العامل الإنجليزى والفرنسى في انجلترا وفرنسا ، ويكاد يثبت أن المصرى كان أحسن حالا فى هذا العصر ، وهو يبرر عدم ترقية المصريين إلى رتب أعلى فى الجيش ، لأن سراة المصريين لم يقبلوا على الدراسات العسكرية ولا التحقوا بمدارسها ، ولم يكن من سمات ذلك العصر ، أن يرقى إلى الرتب العسكرية العليا جنود من تحت السلاح ، فتلك إذن هى المحنة العقلية التى يتعرض لها شفيق غربال فى أحكامه على تصرفات محمد على ، وهى هى نفس المحنة التى تعرض لها المؤرخون في أحكامهم على ملوك عصر النهضة الذين مكنوا لأنفسهم حتى يصلحوا الممالك التى أمروا عليها ، ثم أتى بعد ذلك حين من الدهر استروحت الأمم فيه ريح الحرية والديمقراطية ، فتخلصت بعد جهاد عنيف من استبداد هؤلاء الملوك أو سلطان ذراريهم .

وبعد كل الذى قيل عن هذه المحنة ، نرى لزاماً علينا أن نرجع ألى ماذهب إليه « ارنولد توينبى » وفصله فى موسوعته عن سجل تاريخ الحضارة ، فقد تتبع

ماسماه «الأقليات الخلاقة» فوجد أنها تتحول دائماً إلى أوليجاركية مستبدة ، بل هو يقول إن هـذه الأقليات هى التى سلبت جهود العامة كما نسلب نحن الشهد الذى تصنعه النحل فى خلاياها ، وأن هذه الأقليات الأرستقراطية لم تتح لطبقة البروليتاريا أن تتطور إلا فى عسر — أليس هذا رداً على ما ذهب إليه توينبي نفسه من فضل الأقليات الخلاقة في بناء الحضارة ؟ ، ثم أليس هذا هو الذى حدث فى مصر من حيث خلق ارستقراطية غنية لم تعترف بحقوق العامة اعترافاً جدياً إلا فى منتصف القرن العشرين ، أى بعد وفاة محمد على بأكثر من قرن من الزمان .

* * *

واتجاه آخر فى حياة محمد على نظر إليه شفيق غربال نظرة أخرى : إن محمد على عنده قائد عثمانى مسلم ، وعلى الرغم من تسامحه الدينى ، فقد كان يؤمن بأن الامبراطورية العثمانية هى القوة الرادعة التى حفظت الإسلام بضعة قرون ، ونافحت عنه أمام غزوات الفرنجة . كان يرى أن هناك «دار الإسلام» ، وأن «دار الإسلام» هذه تتطلب الإصلاح العاجل الشامل ، وكان كقائد عثمانى يتجه اتجاهاً واضحاً ليعين الخليفة العثمانى على إصلاح «دار الإسلام» وعلى الاحتفاظ بها قوية سليمة مصونة ، وقد ظل على إيمانه هذا حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ ، وعند ذلك اتجه إلى الأنفصال عن الدولة العثمانية ، وأصبحت خطته أن يعنى بما كان يسمى « عربستان » أو مانسميه نحن « دار العروبة » .

إذن فهذا تفسير آخر لحركات محمد على أو لديناميكيته فى المجال الخارجى .لم تكن الحملة الوهابية التى اشترك فيها بنفسه ، إلا لبلوغ الهـدف الأسمى الذى وضعه نصب عينيه ، ولم تكن غـزواته فى سواحل البحر الأحمر ، والسودان ، إلا معونة للامبراطورية العثمانية التى كان يخشى عليها من التداعى ، ولم يكن موقفه فى نفارين سنة ١٨٢٧ وتضحيته بأسطوله ، إلاجزءا من هـذه الخطة ، حتى إذا أوجس أنه

رجالا من العثمانيين يريدون به الشر ، وأن السلطان نفسه يدبر له المهالك ، اجتاحت جيوشه فلسطين ، ولبنان ، وسوريا ، ووصل إلى « قونة » فى ديسمبر ١٨٣٣ . وهنا قامت فى نفسه الفكرة التى انطوت على تأسيس « عربستان » . إن الإمبراطورية العثمانية تتفت ، والدول الأوربية تقوم بحركة من التناهب فى سرها وعلنها ، وعندما اصطدم محمد على بهذه القوى الأوربية المتناهبة ، اطمأن إلى فكرة « عربستان » ، وأداه ذلك إلى محاولة الاحتفاظ بمصر وما حولها من بلاد العروبة . لكن الدول الأوربية تخلد إلى رأى فى تقسيم ما سمى بعد ذلك ببضع سنوات امبراطورية الرجل المريض ، وحينئذ يطوف بخلد محمد على شبح الزوال ، وفى كل تصرفاته — بعد سنة ١٨٣٣ — يريد أن يحتفظ بدار العروبة من ناحية ، ويدفع شبح الزوال من ناحية أخرى ، وهذا تفسير لسياسته وحروبه واتجاهاته فى السنوات الخمس عشرة التى عاشها بعد سنة ١٨٣٣ .

* * *

هل كانت أحكام شفيق غربال صائبة فيما أورده عن محمد على ؟ . لا شك أن « عبادة البطل » التى ذكرناها فى صدر هذا الحديث ، لم تزايل شفيق غربال فى كل ما احتواه كتاب « محمد على الكبير » ، ولا شك أن هذا الاتجاه المتفلسف مقنع إلى حد ما إذا نحن أخذنا بوجهة نظر محمد على نفسه . والذى يذكر له فى كل ذلك ، أنه كان رجلا ذا خلق وعر ، وأنه كان معمراً يعمل للعمران ، وأنه كان سياسياً يدافع عن ملك مصر بأحاديثه وأعماله ، وأنه كان محارباً ، فأنشأ الجيش والأسطول . وبقى بعد ذلك أنه وقف من مصر موقفاً حضارياً هو الذى يذكر له فتنطوى تحته كل هذه العناصر التى عددناها . إنه الموقف الحضارى الذى خرجت به مصر من عالم العصور الوسطى إلى عالم العصور الحديثة ، هو الذى خرجت به مصر

من عالم الغيبيات والخزعبلات ، إلى عالم العلم الصحيح ، هو الذى خرجت به مصر من عالم الفوضى ، إلى عالم القانون .

ولسنا نعلم إن كان قد خرج هو بمصر من العوالم الأولى إلى العوالم الأخرى ، أم مصر هى التى ألزمته ذلك ؟ . فمحمد على — كحاكم عثمانى — كان يرجو أن يبعث العصبية فى هذه الأقلية الخلاقة ، أو قل فى هذه الأرستقراطية العثمانية التى أعانته ، لكنه لم يجد بداً من أن يكون أداة من أدوات التطور الحضارى . فمصر هى التى حتمت عليه أن يؤوب إلى حضارة الإسلام فيبعثها ، أو إلى إنشاء دار العروبة حين أيس من دولة الخلافة ، ومصر هى التى أتاحت له إمكانيات الزراعة والصناعة والتجارة ، ومصر هى التى ألزمته أن يعنى باللغة العربية فتظل هى لغتها بعد أن بدأ بإدخال التركية ، وهذه الأرستقراطية العثمانية لم تلبث أن أصبحت مصرية ولم تلبث أن احتوتها أمة بأسرها ، ولم تلبث هذه الأمة أن تطورت ، كما تطورت سائر الأمم فطالبت بالحرية والعدالة والشورى والاشتراكية أخيراً .

* * *

(٣) « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية — الجزء الأول »

لندع سنة ١٩٤٤ حينما نشر كتاب « محمد على » فى سلسلة « أعلام الإسلام » ونتناول كتاباً آخر ألفه شفيق غربال وانتهى من كتابته فى مايو سنة ١٩٥٢ ، أى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ بشهرين اثنين . إسم الكتاب « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » ، وقد نشر الجزء الأول منه فى التاريخ سابق الذكر ولم ينشر بعد الجزء الثانى ، ولا نظن أنه تهيأ للطبع . والجزء الذى بين أيدينا فى العلاقات المصرية البريطانية من تاريخ الاحتلال إلى عقد

المعاهدة التي سميت « معاهدة التحالف » أى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٣٦ ، فهذا الكتاب صورة أخرى من فن التاريخ الذى حاولنا تفصيله فيما أسلفنا ، ونلمس فيه نفس السمات والملامح التي شهدناها قبل ذلك بأكثر من ربع قرن في كتابه الأول : « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » .

وفي مقدمة هذا الكتاب ، يذكر شفيق غربال فقرات نرى فيها دلالة على تحول ذي بال فى منهجه التاريخى ، فعلى الرغم من قلة عدد السنين التى مضت بين كتابه عن محمد على ، وبين هذا البحث، فإننا نستطيع أن نتأثر في مقدمته هذه العلاقة بين شخصية المؤرخ وبين الحوادث التى يؤرخ لها . يقول شفيق غربال في مقدمته :

« في هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع ، والسياسات والخطط ، والبواعث والأغراض ، والأماني والأحلام والشهوات التي توالت على مصر والتى يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وانجلترا إلى هذه الأيام ، وقد تتابعت هـــذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين ، منفصلة أو متصلة ، وحكمنا عليها بما شئنا ، أو أريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ووصلنا إلى مرحلة حاسمة فى المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم » ..

« وهذا التفكير المنظم لا بد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التى أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعوباته ... وله أيضاً متعته ، ولكنه جد لازم ، وهو واجب وطنى ينبغى على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقدر الذى يستطيع » .

ويمضى فى المقدمة ، ويكرر مرة أخرى اتجاهه فيقول :

« . . . . وأنبه القارىء من جديد إلى أنى كتبت هذه الفصول فى الأصل لنفسى ، وأنى كتبتها محاولة منى لتنظيم تفكيرى ، وبناء أحكامى على الفهم الصحيح ، ولم أكتبها للعمل السياسى بالمعنى الشائع فهذا ما لا أشارك فيه . فكتابتى كتابة مواطن مصرى ، يريد أن يكون مواطناً خيراً مما هو أقدر على الحكم والتمييز . وحيث أتيحت لى فرصة نشر هذه الفصول رحبت بذلك أملا منى فى أن يجد غيرى من المصريين ما وجدت من تنظيم المعلومات وتهذيب الفكر وجعل المتفرقات كلا متصل العناصر » .

فى هذه المقدمة — كما أسلفت — نستطيع أن نرى شخصية شفيق غربال المواطن والوطنى فى وقت معاً . هنا نستطيع أن نلمح فن التاريخ وهو يمضى قدماً فى بحث النصوص والتقارير والوثائق والكتب والمذكرات السياسية ، ومحاضر الجلسات ، والكتب البيضاء والخضراء ، ومناقشات المجالس النيابية ، ولكن هنا أيضاً نرى شخصية مفكرة متلهفة تريد أن تلم بتفاصيل شتى وأهواء شتى ونزوات شتى وأحلام شتى ، حتى تعرضها فى سلك منتظم وفى سجل متسق يوائم بعضه بعضاً . إنه وطنى يريد أهل بلده أن يدركوا الحقائق من العلاقات التى كانت بيننا وبين إنجلترا لمدة تنقص قليلا عن نصف قرن . إنه كلام يذكر الإنسان بكلام المصلحين الأول الذين قامت عليهم الثقافة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر : أنه فى أسلوبه وروحه يذكر القارىء بكلام لقاسم أمين .

والحق أنه لا بد للمؤرخ المتفنن أن تنشأ فيه شخصية عامة فى أخريات أيامه ، قد تبدو قليلا قليلا فى باكورة أعماله ، لكنه لا بد أن تنتهى

جه إلى أحكام عامة وإلى فلسفة أو نظام يجمع الأشتات التى تمرس بها أو التجارب التى عاناها . لقد أسلفنا فقلنا إنه كان دائماً يصور شخصياته التاريخية قبل أن يقحمها فى الحوادث التى كان يرويها أو يبحثها — وهذا هو الذى حدث بإشارات لماحة ، وتعقيبات نفاذة فى حكمه على المفاوضين والوزراء ورؤساء الوزارات والأحزاب من جانبي إنجلترا ومصر طوال السنوات الثلاثين التى عالج المفاوضات فيها ، ولنضرب لذلك مثلا تصويره للورد « كرومر » فهو يقول :

« وكرومر فى أيامه الأخيرة عنيف ومفصح . كان عنيفاً فى حادثة دنشواى ، ظهر فيها الاحتلال لكل مصرى على حقيقته الأصلية ، وآمن من لم يكن يصدق بكلام مصطفى كامل : ألا يضرنكم من المحتلين لين الملمس ، فقد تغلب عليهم طبيعة زبانية الجحيم . ثم أفصح — أى كرومر — عن اعتقاده فى أبدية الاحتلال ، أو على الأقل فى المركز الخاص لإنجلترا فى مصر ، وأفصح عن اعتقاده بقصور المصريين دهراً طويلا إن لم يكن أبدياً عن بلوغ مؤهلات الحكم النيابى ، وأفصح عن اعتقاده بأن دين المصريين — الإسلام — يحول دون المشاركة فى حياة الحضارة الإنسانية ، وأفصح حين عبر عن اعتقاده بأن القومية الوحيدة التى يجوز لمصر أن تنالها هى تلك القومية التى يشارك المصريين فيها جميع الطوائف التى تقطن وادى النيل » .

« ترى ما الذى انتهى به إلى كل هذا ؟ أهو ذلك المس الذى يصيب الرجل الذى يزهى بنفسه فتنقلب الأناة رعونة وطيشاً ثم يلقى جزاءه ؟ أهو ذلك الخبل الذى تصوره المأساة اليونانية يتردى فيه ابن الإنسان حينما يضع نفسه فى مقام الألهة؟، ومهما يكن فقد خفق قلب مصر — كما قال قاسم أمين — لدنشواى لأول مرة » (صفحتى ٣١ و ٣٢) .

* * *

هذه كلمات المؤرخ المتفنن حينما ينتهي به الأمر إلى فلسفة خاصة تنظم تفكيره بعد أن يكون قد اطلع على ما أطلع عليه شفيق غربال من كتب ومؤلفات وفلسفات أخرى للتاريخ ، إنها كلمات الرجل الإنسان فى المؤرخ قبل أن تكون كلمات الوطني المصرى . فهى نفثة تعبر عن الحكم السليم على انجليزي طوحت به مطامع بلاده فى مصر فحكمها أكثر من ربع قرن من غير أن ينبض قلبه نبضة واحدة بحب المصريين أو العطف عليهم . وهنا نأتى مرة ثانية إلى النظرة الأخرى فى التاريخ التى كان يمتاز بها شفيق غربال . هنا نجاوز هذا الذى حاولنا تفسيره من حيث النظرة المحايدة ، والنزاهة المطلقة فى الأحكام ، والترفع عن العاطفة أو الموجدة ، لا لأن شفيق غربال قد تردى فى كل هذه المسالك ، ولكن لأنه من مبدأ الأمر كان يحاول أن يجمع شتات أفكاره فيحيلها نظاما تاريخيا خاصا . وهذا ما أطلقنا عليه فى مستهل حديثنا الثقافة التاريخية العامة ، وهى فى نظرنا تكون الشطر الثانى من المنهج التاريخى . وقد كان صادقا فى التعبير عن هذه النظرة الأخرى التى قلنا أنها كانت تسرى فى تفكيره من أول الأمر والتى ظهرت واضحة عند نضج ملكته التاريخية فى أخريات أيامه .

* * *

هذا الكتاب الجليل الذى يعد نتيجة لدراسات وقراءات لاحد لها ، يعتبر فى نظرنا نموذجا آخر للتحقيق التاريخى والسياسى . فقد ظهر على مسرح الأحداث فى الثلاثين سنة التى مرت بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٣٩ فئة من السياسيين المصريين اختلفوا فيما بينهم ، وكانت بينهم إحن وحزازات — وهم أحياء ، لكنهم فى نظر المؤلف كانوا يتصفون إلى جانب أحقادهم بالجرأة والشجاعة وحرية الرأى . يقول

شفيق غربال فى مقدمة الكتاب (ص ٤) عن الخصومات التى كانت تتأجج فى قلوبهم عندما يفسر ما أثارته المفاوضات من خصومة » . . . إن نظرة المؤلف غير نظرة الرجل الذى يعيش فى غمرة الأحداث وفى حمى الكفاح ، وخصومنا الإنجليز اشتهروا بالخبث والدهاء ، فلابد من تحليل الألفاظ لفظا لفظا والحروف حرفا حرفا ، فقد يكون اللفظ دسيسة ، وقد يكون فى الحرف لغم . وهذا إلى اقتران أدوار المفاوضات بأزمات فى الحياة البرلمانية اختلفت فى أثنائها وجهات النظر ، وقد يكون لكل وجهة منها ما يبررها أو يفسرها ، ولكنها أدت جميعا إلى خلق جو سياسى مضطرب من آثاره المبالغة فى سوء الظن » .

وقد حاول شفيق غربال أن يجرى على هؤلاء الرجال الذين قاموا بالمفاوضات حكما يكاد يشبه الإعجاب والتقدير ، على الرغم من أنه فى صلب الكتاب يتردد فى أن يشير إلى النقائص الفتاكة التى كانت تشوب تصرفاتهم — إنه يذكر سعد زغلول ، وحسين رشدى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وأحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، وعبدالعزيز فهمى ، ومصطفى النحاس ، وعنده أن هؤلاء الرجال وغيرهم كانوا يؤلفون ظاهرة سياسية هى نفسها نتيجة لعصر المفاوضات . كانوا نتيجة للحياة المصرية التى زخرت بها مصر ، منذ نهضتها وكفاحها مع المستعمرين ، إنهم على حد قوله : « من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات ، فإن هذه الحقبة خلقت رجال السياسة ، وخلقت الأمة المشتغلة بالسياسة ، وقد عرفت مصر السياسة فى كل العصور، ولكنها عرفتها شعورا ولم تعرفها عملا . وربما كان ذلك الأثر أهم ما خلقته فيها حقبة المفاضات . فقد تجمع فى مصر من ذخيرة العمل السياسى ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله فى قرن أو قرون من الزمان . ويحمل التجمع الغزير فى الزمن القصير ما يحمل النبات

ينمو فى ظروف مصطنعة من العلامات والخصائص . ولم يكن لمصر حيلة فما حصل ، وها هى ذى قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة ، فعليها أن تكتسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

ويجد شفيق غربال عاملا واحدا ، هو الذى ألف بين أهداف هؤلاء على الرغم من تباين نزعاتهم وعنف اتهامهم بعضهم البعض : ذلك العامل هو عامل الثورة ضد المستعمرين . والثورة عنده لا تعتمد على سلب الأقوات ولا تعسف الانجليز ولا الترقى فى سلم الوظائف . كانت الثورة التى قامت فى سنة ١٩١٩ قائمة على «الكرامة» : « فإن الاحتلال البريطانى لم يبق كرامة لهذه الأمة ، ولم يعترف لها بشرف ، ولم يقم لها بإصلاح فى الزراعة ولا الصناعة ولا التعليم ، بل إنه دائما يحاول أن يتدخل سياسيا فينتفع من ضعف السلطنة العثمانية إن شاء ، وينتفع بحقوق هذه السلطنة إذا أراد ، ويستغل الامتيازات الأجنبية حين يرى ذلك من مصلحته ، ويناصر المجددين أو يخذلهم حسب مصالح الامبراطورية » . فالثورة عنده « انفجار غضب كرامة ، قصتها قصة البطولة التى لا تزن ولا تحسب ، وجمالها هو جمال التضحية الصافية النقية ، يقدم عليها غير هياب الصبي والصبية ، والرجل والمرأة ، نسوا جميعا كل فوارق الطائفية والطبقات الاجتماعية ، ولم يعرفوا إلا مصر ، ولم يهتموا إلا بحرية مصر واستقلال مصر» .

« والثورة لا تبتدئ بيوم معين من أيام الزمان ، ولا تنتهى بيوم معين من حساب السنين ، بل الأقرب للحق أن نقول إن مصر لا تزال فى عصر الثورة . فالثورة مطالبة بحياة الأمة الناهضة ، وإن تحقق شى من عناصر الحياة الطيبة تولدت عن ذلك التحقيق حاجات جديدة ، وهكذا » (ص ٤٩) .

فإذا نحن مضينا فى قراءة الكتاب ، استطعنا أن ندرك مقدار الجهد الذى قام به كل فرد من الجانب المصرى فى سبيل الدفاع عن قضية بلاده . فعبد الخالق ثروت ، مثلا ، فى نظر شفيق غربال من كبار السياسة الذين خلد اسمهم التاريخ ، فهو يقول عنه (١٧٢) فى مفاوضات سنة ١٩٢٨ : « إيمان ثروت إذن هو إيمان ذلك النفر القليل من الرجال الذين حذقوا فن الدبلوماسية ، واتخذوا منها إدارة لحل العقد وتسوية المشكلات . وإنا لنقرن اسمه بأساتذة هذا الفن : « تاليران » و « مترنخ » وغيرهما ، وهؤلاء — مع الأسف — بقايا القرن الثامن عشر ! وإذا نحن مضينا أيضا فى دراسة الكتاب ، رأينا المفاوض الانجليزى رجلا تخرج فى مدرسة الامبراطورية الهندية متشبعا بحق هذه الامبراطورية فى الوجود والتوسع والعدوان ، فلم يكن « كرومر » ولا « ملنر » ولا « كيرزون » ولا « أوستن تشمبرلين » ولا « جورج لويد » إلا بعض من خدموا فى الهند ، ولم يكن بينهم فارق كبير فيما أعطوا أو أخذوا فى المفاوضات التى توالت خلال الثلاثين سنة التى قامت بيننا وبينهم والتى انتهت فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ . وهو يصف كل واحد من هؤلاء المفاوضين الإنجليز بما يغنى عن دراسات بأكملها ، وادرس معنى هذا الوصف للورد « لويد » : « وقد كشف لويد عن سياسته كشفا تاما فى كتاب مفصل أطلق عليه اسم « مصر منذ أيام كرومر » ، والرجل من غلاة الاستعماريين ، وهو فوق ذلك طموح ، يعمل على أن يضعه التاريخ فى صف « بناة الإمبراطورية » الكبار من أمثال « كرومر » و « ملنر » ومن إليهما ، دون أن يكون له ما لهؤلاء من الشخصية والصفات العقلية ، فاعتمد — ليبلغ مبلغ المتصرف فى مصر — على الخيلاء وأبهة المظهر ، وصفاقة الوجه — كما اعتمد ليبلغ ذلك المبلغ على الانقسام بين الزعماء المصريين : ونقولها والألم يحز فى النفس » . (ص ١٦٦) .

ولسنا نرى نحن أبلغ من هذه الكلمات القليلة في وصف ذلك اللورد !

* * *

كتب هذا الكتاب — كما قدمنا — فى مايو سنة ١٩٥٢ ، وانتهى فى سرد وقائع المفاوضات حتى أغسطس ١٩٣٦ . وبقى بعد ذلك أن نهيب بتلاميذ شفيق غربال أن يكملوا القصة حتى نهاية مفاوضاتنا مع بريطانيا ، واستكمال استقلالنا بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . إن أمام الباحثين ميداناً واسعاً من البحث في هذا المجال، أمامنا ما كان لدى شفيق غربال من الكتب التى استند إليها ، ومن كتب أخرى ظهرت بعد وفاته،وأمامنا الوثائق البريطانية والمصرية، وأمامنا مذكرات المفاوضين من الجانبين . وليس من شك فى أنه سيقوم مؤرخ معاصر ليتم هذه القصة . فليته يتبع المنهج الذى اخطته لنفسه شفيق غربال حتى ينسق المعلومات ويظهر بواطن الأمور ويجرى أحكامه فى غير ميل ولا عوج ولا مبالغة .

إن الذى يميز شفيق غربال فى منهجه هذا وفي أحكامه ، أنها تستند جميعاً على المعيار الخلقى فى أسمى معانيه . قد يكون قد تريث قليلا فى إصدار بعض أحكامه على سعد زغلول فى بعض المواطن،وعلى محمد محمود ، وإسماعيل صدقى فى مواطن أخرى، لكن لمحاته الخلقية وإشاراته وعتبه تنم عن أصالة فى الرأى ، وعن أدب في حكاية التاريخ . التفسير الخلقى لموقف الرجال — إذن — هو ملاك الأحكام التى تسرى فى كتابه عن المفاوضات المصرية — وهذا التفسير الخلقى يرتفع في أحيان من مستوى الأفراد إلى مستوى الجماعة القوميـــة ، وهذا هو الذى سماه شفيق غربال فى أول الأمر « المواطنة » الصحيحة ، وقد كتب كتابه هــذا كمواطن ، إلى جانب كونه مؤرخاً .

* * *

(٤) «الآراء والحركات فى التاريخ الإسلامى»

Ideas & Movements in Islamic Hiotory

كان شفيق غربال يستقرىء الحضارات، كما كان يستقرىء النصوص والوثائق. والحضارة ذات خمس قواعد هى: الأدب، والقانون، والفن، والدين، والعلم. وقد كان يتوفر على دراسة كل هذه المجالات، فأخذ بقسط كبير منها جميعاً، وجمع بين كل هذه النواحى حتى يتمكن من كتابة التاريخ، وحتى يركب لنفسه أولا هذا النظام الفكرى الذى تحدث عنه، وحتى يستطيع أن ينقل هذه الفلسفة إلى تلاميذه أولا، ثم إلى المواطنين الذين أفادوا من علمه سواء فى مصر أو فى خارج مصر.

ويظهر هذا الاتجاه الفلسفى الجامع ظهوراً واضحاً فى معالجته تاريخ الحضارة الإسلامية. لقد حاضر عن هذه الحضارة — منذ تدريسه فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٥، وكتب كثيراً عن الإسلام والمسلمين، ولكن نكتفى فى هذا البحث بأن نرجع إلى مقال قيم اشترك به فى كتاب «الإسلام الصراط المستقيم» قام بالإشراف على تحريره، ونشره الأستاذ «كنيث مورجان» بجامعة هارفارد، وظهر باللغة الإنجليزية فى سنة ١٩٥٨، والمقال يؤلف الفصل الثانى بعنوان «الآراء والحركات فى التاريخ الإسلامى» واشترك فى تأليف الكتاب — غير الأستاذ شفيق غربال — عدد من أهل الفكر، من مصر، وإيران، وفلسطين، وتركيا، وباكستان، والصين، وأندونيسيا (*).

(*) تبين لنا أن كتاب «الإسلام الصراط المستقيم» قد ترجم إلى اللغة العربية: ترجمة «دقيقة» قيمة الأستاذ محمود عبد الله يعقوب، وراجع الترجمة الأستاذ نور الدين الواعظ وكلاهما من العراق. ولكنا فى بحثنا هذا نرجع إلى ترجمة قمنا بها لنفس المقال قبل أن يعده الأستاذ مورجان للنشر وقبل أن نطلع على ترجمته فى كتاب «الإسلام الصراط المستقيم» Islam The Straight Path.

كان لابد فى هذا المقال أن يبرز آرائه فى الأمور الحازبة ، والمشكلات العميقة التى ثارت فى تاريخ المسلمين ، وأن يربط هذه بالساعة التى كان يكتب فيها — كان لابد أن يتناول علاقة الحضارة الإسـلامية بغيرها من الحضارات التى ورثتها مثـل الحضارتين الفارسية واليونانية ، وتلك التى كانت السبب فى بعثها مثـل الحضارات السريانية والعبرية . وكان لابد له أن يتعرض للسلطة السياسية فى الإسلام ولأصول الحـكم ومبلغ ذلك من الشورى . وكان لابدأن يتناول الشريعة وأساسها ، وأبواب التفسير والتأويل ، والقياس ، والاستقراء ، والإجماع ، والاجتهاد التى نشأتها . كان لابد له أن يقوم الناحية العقليـة فى حياة المسلمين وما ورثوه فى ذلك عن فلاسفة اليونان ، وبخاصـة إفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، ثم كان لابد أن يثير بحوثاً بأكملها عن عنصر الإلهام والتصوف فى حياة المسلمين ، وأثر ذلك فى اتجاهات الفلسفة الأوربية ، فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر الميلاديين . ثم كان لابد أن يدلى برأيه فى أمر التربية عند المسلمين ، ويقوم المهام التى قامت بها مدرسة كالنظامية التى أقامها آل سلجوق ، ثم مبلغ ما كان لها من الأثر فى المسلمين حتى الوقت الذى كان يكتب فيه . كل ذلك كان لابد أن يتناوله كما تناول فئات أخرى من المشكلات ، فلم تـكن بحوثه فى الحضارة الإسلامية مجرد هيكل يلبسه ثوباً سياسياً ، ولـكنها كانت كلها نظريات فلسفية عميقة كان يبسط الـكلام فى كل منها ويربط ماضى المسلمين بحاضرهم .

كان شفيق غربال يتناول كل واحدة من هذه المشكلات بدقة المؤرخ الفنى الذى يستند على أصوله ومراجعه ووقائعه ، وكان يناقشها مع طلبته ، فلم يكن الأمر أمر محاضرة جافة يلقيها على طلبته — وقـد كنت منهم — بل كان يناقش المشكلة من جميع نواحيها فى لغة بسيطة سهلة منسقة . ونعود فنـكرر اتجاهه ، حيث كان يكتب كتابه عن المفاوضات إذ قال : «إنى أكتب ما أكتب محاولة منى لتنظيم تفـكيرى،

وبناء أحكامى على الفهم الصحيح » ، والفهم الصحيح لهذه المشكلات التى ذكرت عدد امنها ، كان يأتى من بعد المراجعة والحوار،ومن بعد تغليب الرأى الأصوب، والرجوع إلى كثير من المصادر عربية أو غير عربية . فهو كان موضوعيا فى تفكيره، ولكنة كان فى نفس الوقت يصدر عن فلسفة خاصة كونها لنفسه لتنظيم تفكيره كما قال.

وعند شفيق غربال أننا فى دراسة التاريخ الإسلامى ، ينبغى ألا ننساق وراء مصطلحات لم يعرفها المسلمون فى تطورهم ، فإنهم لم يعرفوا الكنيسة والدينوى والعلمانى والاكليركى ؛ ولا الدولة والسياسى والاجتماعى . وكل هذه ومئات غيرها من المصطلحات والتعبيرات : « إما أنها غير موجودة فى العالم الإسلامى ، أو أن مفاهيمها أصبحت تقريبية غير واضحة بالرغم من أن الناس يعلمون أصول هذه الكلمات ومنشأها ... ويكفى أن نقول هنا إن التعبيرين اللذين استعملهما البروفسور « ليبير » فى كتابه « حكومة الإمبراطورية العثمانيه تحت حكم سليمان المظيم » . . . وهما « الهيئة الحاكمة » و « الهيئة الدينية » يكفى أن نقول أن هذين التعبيرين يصفان الواقع ولا يحتاجان إلى أى تساؤل » .

وهنا مفتاح لتقدير السلطة التى تراوحت فى الدول الإسلامية والتى حاول كثير من المؤرخين الأجانب ، أن يلبسوها أثواباً غربية ، أو أن ينساق وراء نظرياتها كثير من المؤرخين المسلمين . وكان أساس بحث شفيق غوبال ، فى رعاية النبى والأمانة التى حملها الخلفاء الراشدون ، وقيام الخلافة ونشأة الدويلات الإسلامية — كان أساس بحثه فى كل ذلك ، أن هذه جميعاً نظم نشأت بحكم عناصر خاصة صادفت جزيرة العرب ، ولقيت ظروفاً عمرانية وحضارية شكلتها لتعمير الأرض وخير العباد. فلا حاجة بنا عنده أن نبحث فى نظريات حديثة ولا أن نلجأ إلى ما كتب عن

البرلمانية ولا الديمقراطية ، ولا العقد الاجتماعى لندرس موضع السلطة فى تاريخ المسلمين ، ثم لا حاجة بنا إلى أن نلتمس نظاماً برلمانياً فى دول الإسلام حتى نبرهن أن الإسلام دين ديمقراطى ، ويكفى أن نعلم أن الشورى أساس مهم من أسس الحكم . ثم لا حاجة بنا إلى أن نخوض مع الأستاذ على عبد الرازق فنتساءل إذا كان النبي قد تمتع بسلطة الحاكم الدنيوى بعد هجرته إلى المدينة ، وفى ضوء هذا الاتجاه الواقعى يقوم شفيق غربال الحكومات التى قامت فى دول الإسلام ، بل فى ضوء هذا الاتجاه نفسه يقوم ظروف الحكم فى البلاد الإسلامية فى الوقت الحاضر .

نقول إن هناك تطورات خاصة امتاز بها تاريخ الإسلام ، لازالت تؤثر فى حياة المسلمين حتى العصر الحاضر . فلا شك أنه كان فى البلاد العربية — إلى عهد قريب — فجوة بين الحكام وبين المحكومين . وقد قامت ثورة مصر فى يوليو سنة ١٩٥٢ مؤذنة بأن الحكام سيصبحون من المصريين أنفسهم ، وبأن الجيش والأمة كلاهما أصبح كلا واحدا ، وأن الحكام من الجيش ومن غير الجيش يعملون تحت راية واحدة . ولنستمع إلى شفيق غربال — حينما يفسر هذه الفرقة بين السلطة العسكريه الحاكمة والأمة المحكومة . فهو بعد أن يبسط الكلام فى القوة العسكرية التى كان يمثلها المماليك ، وبعد أن يشيد بفضل صلاح الدين ، يكتب ما يلى :

« وقد ساعدت الحروب الصليبية أيضا على تثبيت مبدأ الجهاد الدينى فجعلته مسوغا لوجود الدويلات والإمارات الحاكمة . فقد كان ظهور صلاح الدين ، وتحطيمه الدولة الفاطمية ، وإنشاؤه دولة وحدت بين مصر وسوريا : كل ذلك كان موجها لغرض واحد هو تحرير الإسلام ، ولم يكن يستطيع أي سلطان من

سلاطين المماليك أن يؤيد دعواه في الحكم بأي مسوغ آخر . وفي هذا نجد السبب الأساسي للسكان الذي شغلته الطبقة غير العسكرية في المجتمع الإسلامي . فإذا أضفنا إلى ذلك أن العسكرين كانوا يتجمعون من أجناس خاصة لم تكن بعض أحيان في أرض الإسلام ، وأن غير العسكريين كانوا يكونون الشعوب المسلمة الرئيسية ، وبخاصة في بلاد العرب ، استطعنا أن ندرك في يسر أن المجتمع الإسلامي قد وصل إلينا وهو مكون من أقلية من سادة الحرب وأغلبية من الرعايا الخاضعين» .

وإذا أنت حاولت أن تفسر ما عانته الأمم الإسلامية — ومنها مصر — من ظلم الولاة والحكام ، وإذا أردت أن تقدر تاريخ المماليك في القرون الحديثة ، بل إذا أردت أن تفسر جناية الاحتلال البريطاني على مصر ، لم تجد أبلغ من هذا التفسير — وهو أن السلطة العسكرية كانت في كل هذه العصور في أيدي فئة من العسكريين أقل ما يقال فيهم أنهم أجانب عن هذه البلاد ، وأن غيرهم من الشعوب كانوا يخضعون لهم خضوعاً يكاد يكون أعمى .

فإذا تعرض شفيق غربال للشريعة ومكانتها في تاريخ المسلمين ، رأى أن « الوازع الديني » هو الذي دفع بعضاً من علماء الحجاز والعراق والشام ومصر إلى رسم صورة مثلي لما يجب أن يكون عليه التشريع في المجتمع الإسلامي . أبرز هؤلاء أصحاب المذاهب الأربعة : أبو حنيفة في العراق (٦٩٩ — ٧٦٧م) ، ومالك في الحجاز (توفي ٨٢٠م) ، والشافعي في مصر (توفي ٨٢٠ م) ؛ ثم ابن حنبل في العراق (توفي ٨٥٠ م) . « والشريعة — كما وصفها مؤسسوها وأجيال الفقهاء من بعدهم — تشمل كل قواعد السلوك الإنساني

كما يمليها التشريع الآلهى ، وتحتوى كل ما يتعلق بحياة الأسرة وبأوجه النشاط السياسى والاجتماعى ، وبالواجبات الدينية وشعائر الدين .

على أن شفيق غربال يدعو إلى الاجتهاد ويذكر أهل العدل . ولعله قد أورد تواريخ وفاة الأئمة الأربعة ليذكر القارىء ، أن آخر الأئمة كان قد توفى منذ أحد عشر قرناً ، وأن الأمم الإسلامية كان يجب أن تتطور فى هذه القرون الطويلة حتى تدرك المثل الأعلى الذى كانت تصوره الشريعة . وهو يقول فى ذلك . « ومن العسير تحديد مكان الشريعة فى تاريخ المجتمع الإسلامى . وإذا أمعنا النظر فى الصور التى بلغت بها ، والطرق التى استخدمها المشرعون ، وفحوى هذه الشريعة ، والمجال الضيق الذى طبقت فيه كقانون عملى ، لوجدنا أن الدور الذى لعبته محدود جدا ، ولكن إذا ما نظرنا على أنها مثل أعلى للمسلمين كافة ، يجب أن تسعى المجتمعات الإسلامية المنتشرة فى كل مكان إلى تحقيقه ، أو إذا نظرنا اليها على اختبار أومقياس تقاس به سياسة الدولة وأعمالها ، وجدنا أن هذا الدور عظيم الشأن » .

ومضى شفيق غربال فى الدعوة إلى الاجتهاد ، فيعيذ الفقهاء أن يتخذوا الشريعة صنما يعبدونه من دون الله تعالى ، وهو يقول فى ذلك :

« ولكن لا يكفى أن نستخدم الشريعة — كما هو حادث فى هذه الأيام — كصيحة يتجمع الناس من حولها فى معارك لا تمت إلى الدين بصلة ، أو أن نضعها على قاعدة تمثال ليحملق فيها المعجبون ، أو نختار منها عفوا ما يروقنا ويعجبنا وندع غيره ، بل المطلوب هو الربط بين الشريعة وبين تيارات التشريع العالمى الذى يسود فى أيامنا هذه ، وفى الواقع أن هذا عمل شاق جدا .. » .

ويسرى فى كتابات شفيق غربال عن التاريخ الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، تقدير موضوعى سلم لنواحى العقل والإلهام فى الثقافة الإسلامية ، فهو يعتبر القرون

الأربعة من الثالث إلى الخامس الهجرى (٧٥٠ — ١٠٥٥ م) : يعتبر هذة القرون عصر نضج المجتمع الإسلامى ، ويعتبر أن العلم فى هذه القرون الطويلة بلغ أوجه ، وأن الحياة العقلية كانت قد سادت الأقطار التى كونت البلاد الاسلاميــــة .» ومن الضرورى أن نتذكر أولا » — كما يقول شفيق غربال —: « أن المجتمع الإسلامى قد جمع لأول مرة عالمين مختلفين : تراث البحر الأبيض المتوسط المتنوع الذى انحدر منذ مئات السنين إلى روما ، واليونان ، والعبرانيين ، والشرق الأدنى القديم ، ثم الحضارات الأصلية لبـــلاد فارس بنظامها المختلف فى الحياة والفـكر والمشاعر ، واتصالاتها المثمرة بالحضارات العظيمة فى الشرق الأقصى . ومن المفيد أن نعلم أيضا إن كان فى المجتمع الإسلامى كنائس وأديرة ، ومعابد لليهود ، ومعابد أخرى تخدم المسيحيين واليهود، وعباد النار وغيرهم، وقد أتيح لهؤلاء ، أن يعيشوا لا كأشباح أو طبقات مكبوتة ، بل كمجتمعات صغيرة من رجال ونساء ، اتبعوا مذاهبهم ومارسوا عقائدهم علانية ، وخاضوا معارك جدلية دفاعا عنها ، واستمروا جادين فى النهوض بتراثهم الدينى والفلسفى والعلمى . وكانوا على اتصال طيلة الوقت بجيرانهم المسلمين ، وأن من مظاهر هذه الصبغة الإسلامية — إذا صح هذا التعبير — استعمالهم اللغة العربية فى إنتاجهم المتصل بالدين والعبادة والتاريخ وغيره . »

هذه جميعا كلمات مجملة لـكنها تـــدل الباحث على مفتاح الحياة العقلية التى كانت تتحرك فى المجتمع الإسلامى فى الدور الأول من نضجه. ولـكن صاحب هذا النضج الفكرى — ثم طغى عليه — تطور روحانى آخر . وهنا يعرض شفيق غربال للحركات الصوفية التى ظهرت فى البلاد التى أظلها الإسلام . إنه يولى الحركات الصوفية أشد الاهتمام ، ويبدو أن أحداً لا يستطيع أن يفهم تاريخ المسلمين حــق الفهم ، إلا إذا تعمق فهم مذاهب المتصوفة فى مصر والعراق وفارس والهنـــد والشرق الأقصى والأندلس ، وإلا إذا تتبع أثر هؤلاء المتصوفة فى تاريخ أوروبا ، وبخاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين .

يقول شفيق غربال فى ذلك ، إن الصوفية لم تنل من الذكر ما يتكافأ وأثرها العظيم كمنهج من التفكير الخالص ، ولا كشعر ولا كعاطفة ، وإنما أتيح لها أسمى ماوصلت إليه من الأثر ، لأنها كانت اتجاها منظما موجها للحياة . كانت تظهر دائما حالات فردية من « التحول » أو « الاستقفار » ، أومن الاستجابة لنداء خفى ، ولكن فى العصر التاريخى من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر — أصبحت الصوفية نظاما اجتماعيا تاما ، وأوسعت المجال لأن يتمرس الناس بمواهبهم ، وأن يقوموا بضروب النشاط التى يختلفون إليها ، وحققت أمانى الأفراد من كل الطبقات ، فالتطور الصوفى عنده — كما كان عند كثير من مؤرخى الحضارة الإسلامية — كان محاولة لتنظيم الفرد والجماعة . ويكاد هذا يظهر لنا الناحية الدينية العميقة فى حياة شفيق غربال . ولعله أن كان يرى فى الصوفية تنظيما روحيا يشعر به فى أعماق نفسه ، كما كان يرى فى استقراء الوثائق والحوادث تنظيما فكريا فى حياته كوطنى ومواطن .

كان شفيق غربال معجبا بالمتصوف المصرى « الشعرانى » المتوفى سنة ١٥٦٥م ونقل عن د . ب . ماكدونالد وصفاله فى هذه الكلمات : « لقد ألف الشعرانى بين الخزعبلات وبين الإشفاق والحرص على قواعد الخلق السامى ، بين التواضع الاجتماعى فى أبعد حدوده ، والكبرياء والغرور الفكرى بصورة لانظير لها ، بين مقدرة أصيلة على فهم الفقه فى مذاهبه الاربعة، استسلامه الكامل فى تفكيره للنفحات الالهية التى كان يستروحها من خارج نفسه ، بين قوة على الصمت ابتغاء الحيطة إذا رأى منكرا يقلق راحته ، عنف فى الحديث الصريح إذا جبهته أشياء أخرى » .

أما عن التربية عند المسلمين ، فقد تناولها شفيق غربال تناولا يضفى الضوء على نظم التربية عندنا حتى فى هذه الساعة التى نكتب فيها ، فهو يشيد بالمدارس النظامية التى أنشأها السلاجقة تنفيذا للخطة الدينية والسياسية التى اختطها الوزير السلجوقى المشهور « نظام الملك » (١٠١٨ — ١٠٩٢ م) ، وقد حال « نظام الملك » فى

كتابة « سياسة نامة » أن يوصل نظريات خاصة بالنظام الديني الذى اتخذه السلاجقة أساسا لسياستهم ، ومنبعا لمثلهم العليـــا . . . ويقول شفيق غربال . « ولم يأل السلاجقة جهداً فى اختيار المتازين من رجال العلم ليدرسوا فى هذه الكليات . . . فكان الغزالى أحد أساتذتها » ، ولكنه يعود فينقد اتجاه هذه المدارس فيقول:

« إن التنظيم الرسمى للتعليم العالى كان ذا أثر عميق فى التربية الإسلامية، فعلى الرغم من أنه أدى إلى إعادة النظام فورا، إلا أنه خلف آثارا بعيدة فى التربية الإسلامية لازالت تعانى منهـا حتى يومنا هذا . فهذا التنظيم الرسمى هو الذي أدى إلى الاعتماد على الذاكرة ، وحفظ النصوص المقررة عن ظهر قلب ، وهو الذى حمل الأجيال المتعاقبة على أن تستذكر نفس النصوص جيلا بعد جيل، وبالاختصار هو الذى أدى إلى الحالة التى أجملها سير « هاملتون جيب » حين قال :

« لم تكن المعرفة جهدا للوصول إلى المجهول ، بل كانت عملية ميكانيكية لتحصيل ما هو معروف » .

* * *

(٥) « تكوين مصر » (*)

تلك إذن لمحات فى المشكلات الأساسية التى عالجها شفيق غربال فى معرض دراساته الإسلامية . أنت ترى أن منهجه فى كتابة هذا التاريخ ، يختلف اختلافا بينا عن المنهج الذى اختطه حين كان يكتب رسالته لنيل إجازته الدراسية، وأنت ترى هنا أن المؤرخ الفنى قد كون لنفسه فلسفة استقامت له حين عالج كل هذه المشكلات ، وهو فى كل ذلك لايزال حريصا على أن يكون موضوعيا ، ولا يبدى أحكامه إلا فى كثير من

(*) The Making of Egypt.

التحفظ ، ولا يكاد يستخدم كلمة « أنا » إلا بمقدار . ولكن حدث لحياة شفيق غربال الفكرية والروحية ، ما حدث لكبار المؤرخين . وأنت تدرس حياة مؤرخين مثل : « نرجو » و « جيبون » ، و ما كولى « فماذا ترى ؟ ترى أنهم قد كونوا لأنفسهم محيطا عقليا خاصا، فإذا كان الأمر يتعلق ببلادهم هم أنفسهم كونوا لأنفسهم — إلى جانب ذلك — أفقا روحانيا خاصا . ولأمر ما أحس شفيق غربال فى مايو سنة ١٩٥٢ ، أنه فى يوم من أيام هذا الشهر قد بلغنا نقطة تحول — فاصلة — فهل كان يحس فى خافية النفس إن نقطة التحول هذه كانت على أن تقع فى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، أى بعد مايو هذا بأقل من شهرين .

ومهما يكن من أمر ، فقد أقبلت الثورة فى هذا اليوم وفتحت آفاقاً بعيدة من الآمال — وألقى شفيق غربال عشرة أحاديث إذاعية فى «تكوين مصر»(١). ومن هذه الأحاديث العشرة — على صغر حجمها — تبدو الذروة من حياة شفيق غربال كمؤرخ . هنا ينطلق المؤرخ الفنى فيكتب آراءه صريحة فصيحة لا تفتقر إلى بيان . إنه لا يخفى كلمة « أنا » وراء اتجاهاته الموضوعية . هنا تظهر الفلسفة الأخيرة التى توجت جهوده ، وهنا يكتب ولا يكون بطله محمد على ، ولا نابليون ، ولا مصطفى كامل ، ولا سعد زغلول ، ولا عدلى يكن ، ولا أيا من هؤلاء : بل يكون بطله الأول والأخير هو « مصر » وهى الأحرف الثلاثة التى تبلجت له من وراء كل الدرسات التى عاناها .

إنها أحاديث عشرة تناولت فلسفة التاريخ المصرى فى أزهى عصورها ، وفى أحطها ، لكنها تتناول قبل كل شىء المجتمع الذى سكن وادى النيل . وهنا يرسم شفيق غربال خطته الأساسية فى هذه الأحاديث — الخطة الأساسية الأولى هى

---

(١) وقد ترجمت إلى العربية .

«أن مصر هبة المصريين» لا هبة النيل كما قال «هيرودوتس» أبو التاريخ. إن المصريين هم الذين فلحوا الأرض وسقوها وزرعـوها، واستثمروا ذخائرها، وجابوا شواطئها، وأقاموا العمران فى أرجائها، واتخذوا العمد والأبنية من صخورها. وعلى الرغم من كل ما اعتور حياتهم فى تاريخهم الطويل، فقد كان لهم الفضل كل الفضل فى المدنيات السامقة التى قامت على ضفتى النيل.

يقول شفيق غربال فى ذلك «أيا كان المصريون، وأيا كانت الطريقة التى تأثر بها النمط الجنسى بمن وفد إلى مصر، ومن جال منهم فى أرجائها فإننا نزعم أن مصر هبة المصريين. إننى أعلم — ومنذا الذى لا يعلم — أن النيل هو منبـع حياتنا، وأن مصر هى البـلد التى تقع على ضفتيه، وأن حـدودها لم تتحد بما امتدت إليه على الجانبين إلا بقدر ما تحـدده الآفاق التى وصل إليها ماء النيل، ولـكن — على الرغم من ذلك — فإن المصريين هم الذين صنعوا مصر. انظر إلى النيل كيف يقطع أربعة آلاف ميل من مناطق خط الاستواء إلى البحر المتوسط، فلن تجد إلا مصرا واحدة على طول مجراه. إن هبة النيل كأى هبة طبيعية لا تـكون إلا عمياء لا يقر لها قرار. فإذا تركت هذه الهبة وشأنها، فإنها قد تخرب أو قد تنشىء مستنقعات تتفشى منها الملاريا. إن عـوامل التخريب تقتضى وجود فئة من البشر حتى يحيلوا الخراب إلى نعمة: وقد كان البشر فى مصر — هم المصريون — وهم الذين فعلوا ذلك (ص ٥ من النص الانجليزى — طبعة دار مصر للطباعة).

وهو يستند فى ذلك على نظرية يذهب إليها أستاذه «أرنولد توينبي» ويفصلها بعض التفصيل فى موسوعته عن سجل تاريخ الحضـارات .. إنها هى نظرية «التحدى والاستجابة»، وقد فصلها «أرنولد توينبى» فى الفصـل السابع من الجزء الأول، ونرى هذا التفصيل مختصراً فى «مختصر دراسة التاريخ» الذى

ترجمة الأستاذ فؤاد شبل ، وراجعه شفيق غربال . (دراسة التاريخ ، الجزء الأول من ص ١٤٧ إلى ص ٢٣٢) .

إن تحديات البيئة هى التى تخلق الحوافز التى تنتج بدورها حضارة من الحضارات و « الحافز نحو الحضارة تزداد قوته فعلا ، كلما ازدادت البيئة صعوبة » . الحافز الأهم هو ذلك الذى ينتج فى البلاد الصعبة . وكانت البيئة الطبيعية فى مصر من أشق البيئات ، وتعرضت مصر فى دهر من الدهور إلى عصر طويل من الجفاف ، وهرب كثير من سكان مصر إما إلى الشمال ، وإما إلى الجنوب ، ولكن الذين بقوا فى مصر صمدوا لهذا التحدى ، واستطاعوا أن يقيموا المدنية السامقة التى قامت فى الصعيد والدلتا . ولا يقتصر الحافز على الاستجابة للظروف الصعبة فحسب ، بل هناك حوافز أخرى تتصل بالاستيطان فى أرض جديدة ، وحافز ناتج عن الضربات التى تحيق بالمجتمع أو الهزائم التى يلقاها فى ميدان القتال . ثم هناك حافز نسميه حافز « النقمة » وهو تعويض المجتمع عن نعمة سلبها : كل هذه الحوافز هى التى تدفع إلى الاستجابة لتحديات البيئة ، وهى هى التى قصد إليها شفيق غربال حين استند إليها في نظرته الشاملة إلى تاريخ الحضارة فى مصر .

والواقع أن مذهب « التحدى والاستجابة » هو خير ما يفسر تاريخ أية حضارة ، وهو ينطبق بنوع خاص على تاريخ الحضارة فى مصر ، بل هو ينطبق بنوع أخص على الظروف التى نعيش فيها فى بلدنا حتى هذه الساعة . وقد كان يؤمن شفيق غربال بذلك أشد الإيمان : وكان يؤمن كذلك أشد الإيمان بأن مصر هى القلب الصميم » الذى تجمعت حوله كل الأحداث ، وأن موجات الغزاة التى وفدت إليها فى طول تاريخها ، لم تفت فى هذا القلب الصميم . فلا الفرس ، ولا الإسكندر ، ولا الرومان ، ولا البطالمة ، ولا العرب ، ولا الترك ،

ولا الفرنسيون ، ولا الأنجليز ، ولا برابرة العصر الحاضر ، أثروا فى شخصية مصر التى صمدت لهؤلاء جميعا .

إن هذه الأحاديث العشرة التى تحدث بها شفيق غربال ، واجتمعت فى هذا الـكتيب الدقيق الفنى ، لجديرة بالتوســع فى الدراسة . إنه هنا ينم عن عقيدته العليا فى كتابة التاريخ ، وفى وصل التاريخ بالحياة الحاضرة . لقد بدأ كتابة الأول طالبا للعلم ، ولـكنه انتهى فى هــذه السلسلة الـكريمة إلى أن كل مواطنا وفيلسوفا ومتصوفا ، يؤمن بمصر إيمانه بالله تعالى .

رحم الله أستاذى شفيق غربال .

(أحمد خاكى)

(سليم حسن) كمنقب وعالم اثار

للأستاذ الدكتور محمد جمال مختار

وكيل وزارة الثقافة لشئون الآثار

الحديث عن « سليم حسن » إنما يتناول صورة مشرفة لمصرى استطاع أن يقتحم ميدان الكشف والتنقيب عن الآثار القديمة — الذى كان وقفا على الأجانب من قبل — بشجاعة وجرأة نادرتين ، والذى أثبت أن المصريين لا يقلون عن غيرهم من الأثريين إذا ما أتيحت لهم الفرص ويسرت لهم الامكانيات ، والذى كان لاكتشافاته دوى هائل فى كافة الأوساط العلمية العالمية ورنة فرح وسرور فى سائر أرجاء البلاد العربية . بل الواقع أن سيرة « سليم حسن » هى قصة خلق الوجود المصرى فى مجال الآثار المصرية ، وهى قصة كفاح وجهاد متواصلين فى ميدان شاق وصعب وعسير ، وفى وقت كان يحكم البلاد فيه مستعمرون متمالون وملوك طغاة .

ولقد كان ذلك اللون من الكفاح طابع جيل «سليم حسن » ، نراه — وإن اختلفت الوسائل والأساليب — فى كافة الميادين : فى ميدان الاقتصاد ممثلا فى « طلعت حرب » ، وفى ميدان الآثار ممثلا فى « سليم حسن » ، كما يمكننا تتبعه فى كافة الميادين الأخرى ، وتلمس دوافعه فى ذلك الانطلاق المصرى الذى تمخض عن ثورة ١٩١٩ .

* * *

ولكن لا بد لنفهم سيرة « سليم حسن » أن نتحدث قليلا عن قصة علم الآثار

المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى أيام « سليم حسن » فى أوائل القرن العشرين . فلقد انزوت الآثار المصرية فى زوايا الإهمال والنسيان وتعرض جانب كبير منها للتدمير والضياع حتى أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء فى البحث عن تلك الآثار نتيجة لظهور كتاب « وصف مصر » لعلماء حملة « نابليون » ، والعثور على حجر رشيد ونجاح « شمبليون » فى الكشف عن أصول الكتابة المصرية . فمنذ ذلك الوقت أخذت الجامعات والمؤسسات العلمية فى الاهتمام بالآثار المصرية . وبدأت مرحلة الكشف عن الآثار وصيانتها ودراستها وظهر علم جديد هو علم الآثار المصرية « إيجبتيولوجى » وبرز عدد كبير من العلماء الأجانب بذلوا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين جهودا جبارة فى التنقيب المنظم عن الآثار وفى تسجيل وقراءة ما عليها من نصوص ثم دراسة وبحث ما كشفوه وسجلوه وترجموه .

وكان من بين علماء الجيل الأول العالم الألمانى « هنرى بروكش » (باشا) — الذى أنشأ سنة ١٨٦٩ أول مدرسة للدراسات الأثرية بالقاهرة ، كان من بين طلبتها الأثرى الكبير المرحوم « أحمد كمال » (باشا) وهو أول مؤرخ عربى منذ الفتح الإسلامى لمصر ، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين ، والرائد المصرى للدراسات القديمة فى مصر . ولقد بذل « أحمد كمال » جهداً كبيراً فى ميدان الحفائر والمتاحف وكافة المجالات العلمية بجانب جهوده العلمية المتمثلة فى قرابة خمسة عشر مؤلفا علميا وما يقرب من ستين مقالا أثريا . ولكن كان « لأحمد كمال » يد أخرى بيضاء فى ميدان الآثار تتمثل فى جهوده فى نشر الثقافة الأثرية ومحاولة خلق جيل جديد ناشىء من الأثريين المصريين يعملون فى حقل الآثار الذى كان قاصرا فى ذلك الوقت على الأجانب .

ولقد كانت مهمته شاقة صعبة ، إذ كان الوعى الأثرى بين المصريين شبه

معدوم ، وكانت العناية بالآثار ودراستها أمورا غير مألوفة . ومع ذلك فقد جاهد طويلا لدى ناظر المعارف « أحمد حشمت (باشا) لإنشاء غرفة لدراسة الآثار المصرية » بمدرسة المعلمين الخديوية ، وكلل الله سعيه بالنجاح حين سمحت نظارة المعارف سنة ١٩١٠ بإنشاء قسم مسائى يلحق به الراغبون فى هذه الدراسة بتلك المدرسة وكان من خريجى ذلك القسم المرحوم « سليم حسن » .

وما دمت قد أشرت إلى « أحمد باشا كمال » (١٨٤٩ — ١٩٢٣) إمام الرعيل الأول من بين الأثريين المصريين ، فلا بد لى من الإشارة إلى زميل له فى مدرسة اللغات القديمة والآثار (مدرسة بروكش) هو المرحوم « أحمد نجيب » (١٨٤٧ — ١٩١٠) الذى عمل مفتشا للآثار وقام بالكثير من الحفائر والتنقيبات كما كان له نشاط محمود فى عالم التأليف ، وكذا المرحوم « محمد شعبان » (١٧٦٦ — ١٩٣٠) الذى عمل أمينا مساعدا بالمتحف المصرى وقام بعدد من الحفائر ونشر المقالات فى مجلة « حوليات مصلحة الآثار » .

* * *

ثم يأتى الجيل الثانى من الأثريين المصريين وعلى رأسه المرحوم «سليم حسن» الذى مرت عشر سنوات على وفاته ، والذى ترك أثرا لا ينكر فى نهضه الدراسات المصرية القديمة ، والذى كرس حياته للآثار المصرية وخلف وراءه ذخيرة علمية ثمينة من بحوث ودراسات ، ظل عاكفا عليها حفيا بها ، حتى صعدت روحه إلى بارئها .

إن معرفة ما قام به أمثال هؤلاء الرجال واطلاع الجيل الحاضر على سيرة حياتهم وما صادفوه من عقبات لواجب مقدس ، يمليه علينا صوت الحق والعدل ، ويحتمه الوفاء والعرفان بالجميل .

ولد « سليم حسن » بقرية ميت ناجى ، مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية فى ١٥ أبريل سنه ١٨٨٦ . وقد توفى والده وهو صغير ، فرعته والدته التى كان لها أثر كبير فى حياته ، ظل يذكره ويفتخر به طوال حياته . وفى أحد أحاديثه الصحفية ، قبل وفاته بسنتين تحدث عن والدته قائلا « لقد كانت والدتى ورائى دائما ، ولولاها ما استطعت أن أكمل تعليمى ، كانت تحثنى وتدفعنى وتضىء لى الطريق وتذكرنى بأن الإنسان يعيش مرة واحده فيجب أن تعيش كرجل ، ومن هنا بدأت حياتى ، ولهذا السبب مضيت فى طريقى الواضح ، فقد عشت كما ينبغى أن يعيش الرجل وكما نصحتنى والدتى رحمها الله ، ولأذكر أنى نكصت يوما عن الحق كما أراه ، لا كما يراه لى بعض الناس ، ولا أذكر أنى تراجعت عن أمر عسير فى حياتى الباكرة ، ولا فما بعد الصبا والشباب إلى أيام الكهولة التى أحياها الآن » .

وبعد أن أتم « سليم حسن » دراسته الابتدائية والثانوية التحق بمدرسة المعلمين الخديوية وانضم إلى الفرقة التى سعى « أحمد باشا كمال » لدى ناظر المعارف أحمد حشمت باشا لإنشائها لدراسة علم الآثار ، واختير لها بعض الطلبة الممتازين فى علم التاريخ . وقد بذل « أحمد كمال » جهداً كبيراً فى التدريس بتلك المدرسة وفى مصاحبة طلبتها لزيارة المناطق الأثرية وكان من بين هؤلاء الطلبة المرحوم « أحمد عبد الوهاب » (باشا) وزير المالية الأسبق ، والمرحوم « أحمد البدرى » ناظر إحدى المدارس الثانوية سابقا ، والمرحوم « محمد فهيم » (بك) وكيل وزارة الشئون الاجتماعية سابقا ، والمرحوم «رياض جندى ملطى » مدير أحدى كبريات المدارس الحرة ، « ومحمد حمزة » كبير أمناء المتحف المصرى (سابقا) « ورمسيس شافعى » مندوب الجامعة العربية بباريس .

ولما أكملت تلك الفرقة دراستها سنه ١٩١٢ حاول « أحمد كمال » أن يلحق

بعض أفرادها بالمتحف المصرى ، ولكنه لم يوفق فى هذا السبيل . وهنا يجب أن نذكر أن ذلك لم يثنه عن عزمه لإنشاء فرقة أخرى للدراسة كان من بين طلبتها المرحوم الأستاذ « شفيق غربال » و « ومحمد رفعت » وزير المعارف الأسبق .

وقد اشتغل خريجوا الفرقة الأولى بالتدريس « فعمل « سليم حسن » مدرسا للتاريخ واللغة الإنجليزية بالمدرسة الناصرية بالقاهرة ، ثم نقل إلى مدرسة طنطا الثانوية ومنها إلى أسيوط الثانوية والخديوية بالقاهرة . وكان « سليم حسن » كتله من نشاط خلال تلك الفترة ، فألف الكثير من كتب التاريخ العام المدرسية نذكر منها « تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر » بالاشتراك مع عمر السكندرى ، « تاريخ أوروبا الحديثة وحضاراتها » (جزءان) بالاشتراك مع « عمر السكندرى » ، « صفوة تاريخ مصر والدول العربية » (جزءان) بالاشتراك مع « عمر السكندرى » و « الشيخ أحمد السكندرى » ، وكذلك عرب كتاب « تاريخ دولة المماليك فى مصر » بالاشتراك مع « محمود عابدين » ، و « صفحة من تاريخ محمد على » بالاشتراك مع « طه السباعى » .

ورغم تكسبه الكثير من المال من التأليف والترجمة ومن التدريس الخصوصى فإن « سليم حسن » ظل متطلعا ساعيا ملحا للعمل فى مجال الآثار ، ويذكرنى فى هذا المجال أنه انتهز فرصة وجود ابن وزير الأشغال — الذى كانت تتبعه مصلحة الآثار وقتذاك — بين تلاميذه بمدرسة الناصرية فطلب مقابلة الوزير نفسه ولما تحقق له ذلك ناشده أن ينقله إلى مصلحة الآثار فى أى وظيفة حتى ولو كانت كتابية ، ولكن وزير الأشغال لم يتمكن من ذلك إذ كان العمل بالآثار وقتذاك وقفا على الأجانب فقط . كذلك قام هو وزميله « محمود حمزة » بتقديم بعض الدراسات الأثرية إلى « ماسبيرو » مدير مصلحة الآثار وقتذاك فى محاولة لإقناعه بصواب تعيينهما بمصلحة الآثار ولكن أثر ذلك لم يتعد شكر « ماسبيرو » لهما وتمنياته لهما بالتوفيق .

ثم جاءت الفرصة المناسبة سنة ١٩٢١ حين أصبح الوزراء المصريون أوسع سلطة وأقوى نفوذا أثر ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد انتهز وزير الأشغال «شفيق باشا» فرصة تعيين فرنسيين أمينين بالمتحف المصرى ليشترط تعيين مصريين أمينين مساعدين لهما، فلم يتقدم وقتذاك سوى « سليم حسن » « ومحمود حمزة » إذ كان زملاؤهم الآخرون قد يئسوا وانصرفوا تماما عن العمل فى الحقل الأثرى .

ولكن « سليم حسن » وزميله أبعدا تماما عن أى عمل جدى فى المتحف المصرى وكانا كالمنبوذين لا يقبل عليهما أحد ولا يمدهما أحد بأية معلومات فيما عدا العالم الروسى « جولينشيف » الذى شجعهما على مواصلة الدراسة ، وقد عبر « سليم حسن » عن ذلك بأنهما بعد تعيينهما بالمتحف المصرى حنطا به .

ومن الأمثلة على سياسة الأبعاد هذه ، أنه حينما أعلن فى أوائل سنة ١٩٢٢ عن اكتشاف مقبرة « توت عنخ آمون » ذهب « سليم حسن » إلى الأقصر لمشاهدة تلك المقبرة ، ولكن المفتش العام لآثار الوجه القبلى كان انجليزيا وقتذاك منعه من الدخول إلى المقبرة ، وحدثت مشادة كبيرة بينهما ، انتهت بتدخل « هوارد كارتر » مكتشفها وسماحه له بمشاهدة المقبرة ، وقد كتب بعد ذلك مقالين بجريدة الأهرام عن ذلك الاكتشاف فى حين كتب المفتش العام تقريرا ضده بعث به إلى المدير الفرنسى لمصلحة الآثار — ومما زاد فى حنق المشرفين على الآثار وقتذاك على « سليم حسن » أنه ذهب سنة ١٩٢٢ على نفقته الخاصة برفقة « أحمد كمال » إلى فرنسا لحضور الاحتفال بمرور مائة عام على فك « شمبليون » لرموز اللغة الهيروغليفية وتمكن من زيارة عدة متاحف أوربية ، وبعد عودته كتب عدة مقالات فى جريدة الأهرم تحت عنوان « الآثار المصرية فى التاحف الأوربية » كشف فيها عن أسرار سرقة الآثار المصرية ودور الأثريين الأجانب فى ذلك .

ولكن الأمر لم يدم طويلا بعد ذلك ، إذ أتاحت الضجة التى أثارها الكشف

عن قبر « توت عنخ آمون ١٩٢٢ وكذا الاحتفالات بمرور مائة سنة على فك رموز اللغة الهيروغليفية — إرسال بعض المصريين لدارسة علم الآثار المصرية فى الخارج فأرسل « محمود حمزة » إلى لفربول وباريس ، أما « سليم حسن » فقد الحق بالمعهد الكاثوليكى بباريس وبجامعة باريس وحصل على دبلوم فى اللغات الشرقية وآخر فى تاريخ الديانات وثالث فى اللغات القديمة .

ولعله من قبيل المصادفة أن يتوافق مرور عشر سنوات على وفاة « سليم حسن» مع نفس المناسبات التاريخية التى سبق ذكرها . فنحن نحتفل الآن بمرور مائة وخمسين سنة على حل شمبليون لرموز اللغة الهيروغليفية ونحتفل أيضاً بمرور خمسين عاما على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بإقامة معرض لآثاره بلندن .

* * *

وقد عاد « سليم حسن » إلى مصر سنة ١٩٢٧ وليمين مرة أخرى بالمتحف المصرى وليتجمد نشاطه مرة أخرى إذ أفهم منسذ أول يوم مكانه هو المكتبة وأن عمله الأساسى هو ترجمة دليل المتحف . ولكن كلية الآداب بالجامعة المصرية استدعته سنة ١٩٢٨ ليدرس علم الآثار بها مالبث أن عين فى وظيفة أستاذ مساعد لعلم الآثار بكلية الآداب مع منحه لقب أمين شرف بالمتحف المصرى — وقد رقى بعد ذلك إلى درجة الأستاذ مع توليه الاشراف على حفائر الجامعة بمنطقة أهرامات الجيزة .

ولم تكن أعباء التدريس ومها الحفر والتنقيب لتحول دون مواصلته للدراسة العلمية فوضع بحثا قيما نال عليه درجة الدكتوراه من جامعة فيينا سنة ١٩٣٥ . وقد أنعم عليه برتبة الباكوية فى يناير سنة ١٩٣٦ كما عين وكيلا لمصلحة الآثار المصرية وكان أول مصرى يتولى مثل هذا المنصب القيادى بمصلحة الآثار .

ثم مالبث أن تكالبت ضده القوى الرجعية والاستعمارية ونجحت فى إجباره على ترك العمل بمصلحة الآثار سنة ١٩٤٠ وعكف منذ ذلك الوقت على التأليف والإنتاج العلمى وبقى بعيداً عن العمل الأثرى الحكومى فيما عدا انتدابه للتدريس فى قسم الآثار فى كلية الآداب بجامعة عين شمس (ابراهيم باشا) التى أنشئت سنة ١٩٥١ ، ثم رئاسته للبعثة الأثرية التى زارت منطقة النوبة سنه ١٩٥٥ لكتابة تقرير عن وسائل إنقاذ معابد المنطقة وآثارها قبل أن تغمرها مياه السد العالى الذى تقرر إنشائه فى ذلك الوقت ، ثم رئاسته لحفائر مصلحة الآثار فى النوبة سنة ١٩٥٨ وأخيراً إشرافه على عملية جرد المتحف المصرى سنة ١٩٥٩ .

وفى ٢٩ سيتمبر سنة ١٩٦١ انتقل « سليم حسن » إلى جوار ربه وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، شاعرا بمرارة نغصت عليه شيخوخته لما لاقاه فى حياته من عقوق واضطهاد . ولعنا نرى ذلك بوضوح فى مقدمة الجزء الأول من موسوعته « مصر القديمة » حين يقول « إلى الذين أرادوا الإساءة إلى فأحسنوا وباعدوا بينى وبين الوظيفة ، فقربوا بينى وبين الإنتاج وخدمة العلم والوطن » كذلك تراها فى مقدمة كتابه عن الأدب المصرى القديم حين يقدمه قائلا « إلى من أتاحوا لى فرصة تأليف هذا الكتاب عن غير قصد منهم ولارغبة » .

* * *

والآن بعد أن ألممنا إلماماً عاما بتاريخ « حياة سليم حسن » لنتحدث الآن عن أياديه البيضاء فى ميدان الآثار ، ويمكن تقسيم هذا المجال الواسع إلى ثلاث نواح رئيسية .

والناحية الأولى هى جهوده العلمية وماتركه لنا من كتب ودراسات وأبحاث . ولعل أضخم مؤلفاته العربية هو كتاب موسوعة « مصر القديمة » الذى أخرجه فى

ستة عشر جزءا وأكثر من ١٠٫٠٠٠ صفحة . وكان قد بدأ فى نشر الجزء الأول سنة ١٩٤٠ وانتهى من الجزء السادس عشر سنة ١٩٦٠ متناولا تاريخ مصر وحضارتها من عصر ماقبل التاريخ حتى أواخر العصر البطلمى. وكان رحمه الله قد شرع فى كتابة الجزء السابع عشر عن « كليوباترا » وعصرها حين وافته المنية .

ومن مؤلفاته العربية « الأدب المصرى القديم » الذى نشره سنة ١٩٤٥ فى جزئين ، تناول فيهما كافة نواحى الأدب فى قرابة خمسمائة صفحة ، كما شرع فى تأليف كتاب عن النيل ، ولكن الموت لم يمهله لإتمامه .

كذلك كتب فصلا عن العادات المصرية القديمة السائدة إلى الآن فى مصر الحديثة فى مجلة المجمع العلمى سنة ١٩٤٤ ، وفصلا كبيرا عن الحياة الدينية وأثرها على المجتمع فى المجلد الأول من تاريخ الحضارة المصرية « العصر الفرعونى » الذى أخرجته وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٢ :

أما فى ميدان الترجمة فقد ترجم كتاب « ديانة قدماء المصريين » للعالم الألمانى « شتيندورف » سنة ١٩٢٣ ، وكتاب « فجر الضمير » للمؤرخ الأمريكى « جيمس هنرى بريستد » سنة ١٩٥٦ . وعلى كل حال فإن مؤلفات « سليم حسن » باللغة العربية تتعبر بذخيرة كبيرة ومكتبية قائمة بذاتها لدراسة الحضارة والتاريخ الفرعونى ، وخاصة موسوعة « مصر القديمة » التى تغنى القارئ عن مئات المراجع والأصول الأجنبية . أذكر ذلك رغم عدم اقتناعى أحيانا ببعض الآراء التى جاءت فى تلك الموسوعة ، ومنها على سبيل المثال ماجاء فى الجزء الخامس عن « أخناتون » حيث ذكر عنه فى صفحة ٢٥٨ « وأما شذوذه العقلى فلمخالفته لأهل عصره فى

عدم تشيعه لأهل طيبة ومقتة الشديد للاله آمرن . وأما شذوذه الخلق فهذا موضع الغرابة ، وقد يصل فيه إلى مرتبة يتنزه عنها الحيوان الأعجم ، وإذا صح ماقيل فإننا لفى شك مريب فى تلك العلاقة بينه وبين أخيه « سمنخكا رع » إذ كان حبه له وتعلقه به خارجا عن نطاق العقل المألوف . وأن انحطاطه الخلق ليتجلى كذلك فى زواجه من ابنته الثالثة التى أضحت زوجة « لتوت عنخ آمون » ، كما نلمس خشونته فى تحوله عن حبه لزوجته الجميلة « نفرتيتى » وسوء معاملته لها على حسب ماتوحى به الآثار المكتشفة » .

والواقع أن المرحوم « سليم حسن » كان قاسيا على « أخناتون » شديد التنديد به ، ونحن إذا حللنا ماجاء عنه فإننا نجد أن « أخانتون » ليس بالفرعون — الوحيد الذى تزوج من ابنته إذا صحت تلك الواقعة فلقد حكى عن « أمنحتب الثالث » والد أخناتون مثل ذلك وكذا عن خليفته السعيد « رمسيس الثانى » . كذلك ليس « أخناتون » بأول أو آخر رجل يجافى زوجته أو يخاصمها أو يتهم بسوء معاملته لها . أما عن علاقته « بسمنخ كارع » فليس هناك أى دليل جدى على ذلك الاتهام ، الذى أوحى به بعض المؤرخين الأجانب ، الذى ربما ورثوا عن « هيرودوت » عادة تشويه جمال الماضى ، وتدنيس التاريخ المصرى القديم ، وتقديمه إلى القراء مليئا بألوان الانحلال الخلق والفسق والفجور .

أما مؤلفاته الإفرنجية فقد أغنتنا عن الحديث عنها السيدة الدكتورة ضياء أبو غازى » الأمينة الأولى بالمتحف المصرى ، والوحيدة التى تصدت بكلمة عرفان بالجميل « لسليم حسن » فنشرت مقالا من أربعة وعشرين صفحة تناولت فيها جهوده فى ميدن الآثار ، نشرته فى حوليات مصلحة الآثار سنة ١٩٦٤ . ويبلغ مؤلفاته حسب قائمتها ثلاثة وثلاثين مؤلفاً ، مابين كتب علميه

ككتابه عن « الأناشيد الدينية للدولة الوسطى » وكذا كتابه عن قصيدة « بنتاؤر » والتقرير الرسمى لمعركة قادش أيام رمسيس الثانى ثم كتابه عن « أبو الهول » الذى يعد من أهم الكتب التى ألفها .

كذلك ضمت القائمة مقالاته العلمية فى حوليات مصلحة الآثار والمجلات الأثرية الأجنبية وتقارير حفائره فى الجيزة وصقارة والنوبة ، وهى مؤلفات ضخمة يضم كل منها بضع مئات من الصفحات وعدد كبير من الصور واللوحات والرسوم والتخطيطات وقد بلغ عددها خمسة عشر مجلدا . ولدى مصلحة الآثار مؤلف ضخم له عن بعض أعماله الأثرية فى صقارة ، راجع أصوله قبل وفاته ولكن الأجل وافاه قبل أن يتمم هذه المراجعة تماماً .

* * *

هذا مجمل لما ألفه ونشره سليم حسن وموجز لما قام به فى ميادين الكتابة والبحث والتأليف . ولكن نشاط سليم حسن قد شمل كافة نواحى علم الآثار وخاصة ما قام به من جهود عملية فى الحفائر والتنقيبات ، وقد أعفتنا الدكتورة «ضياء أبو غازى» أيضاً من سرد تفاصيل ذلك النشاط إذ قد قامت بنشر قائمة ما تضم اكتشافاته وحفائره فى حوليات المصلحة سنة ١٩٦٤ والتى استمرت عشر سنوات من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٩ . وذكرت نبذاً عن ١٧١ من المصاطب والمقابر الهامة التى اكتشفها .

وكانت حفائره فى منطقة أهرامات الجيزة من أهم ما قام به من حفائر إذ كشفت عن عدد كبير من مقابر الدولة القديمة وخاصة فى منطقة أبى الهول الذى كشف

عن أسراره وما يحيط به من غموض وإبهام . كذلك امتد نشاط سليم حسن في سنة ١٩٣٦ إلى منطقة صقارة وفى سنة ١٩٥٨ إلى منطقة النوبة فى بلانة وقسطل .

وتعد مقبرة « رع ور » التى كشفها جنوب منطقة أبى الهول من أكبر المقابر التى ترجع إلى أيام الدولة القديمة ، وتكاد تضارع مقابر الملوك من حيث ضخامتها وكثرة التماثيل التى وجدت بها والتى لا تقل عن ١٢٠ تمثال . وقد حمل « رع ور » أكثر من ثلاثين لقباً كما تدل القصة التى كتبها على جدران ذلك القبر على عظم نفوذه وكبر مقامه لدى الملك « نفر اير كارع » أحد ملوك الأسرة الخامسة ، وهى تقص علينا كيف أن عصا الفرعون قد مست « رع ور » عن طريق الخطأ فاستاء فرعون واعتذر له وأعلن للملأ أن « رع ور » هو أحب الناس إلى قلبه وآثرهم عنده .

كذلك كشف « سليم حسن » عن مقبرة الملكة « خنتكاوس » آخر ملوك الأسرة الخامسة وحلقة الوصل بين تلك الأسرة والأسرة السادسة . وقد صممت هذه المقبرة على هيئة تابوت ضخم أقيم فوق صخرة كبيرة . وقد أطلق « سليم حسن » عليها إسم الهرم الرابع وهى تسمية كانت موضع جدال كبير . وقد كشف « سليم حسن » عن مدينة صغيرة لكهنة تلك المقبرة لا تزال منازلها المبنية من اللبن حافظة لشكلها حتى اليوم .

كذلك يعد اكتشافه اللوحة التذكارية التى أقامها الملك أمنحتب الثانى من ملوك الأسرة الثامنة عشر بجوار أبى الهول من أهم الاكتشافات الأثرية فى تلك الفترة من تاريخ البلاد . وقد أقام « أمنحتب الثانى » هذه اللوحة تذكاراً لزيارته لأبى

المول وبنى معبداً صغيراً بجوارها كشف « سليم حسن » عن بقاياه كذلك. تسكشف تلك اللوحة عن صفحة هامة من تاريخ ذلك الفرعون تتناول تنشئته على يدو الده تنشئة رياضية عسكرية كما تقص علينا مدى تفوقه فى التجديف والرماية والعدو والفروسية وغير ذلك من أساليب الرياضة .

وهنا يجب الإشارة إلى أن نشاط « سليم حسن » العلمى لم يقتصر على التأليف الحفائر فحسب ، فقد كان له أثر كبير فى تقدم الدراسات المصرية القديمة فى مصر بوجه عام كما كافح كثيراً من أجل فرض الشخصية المصرية فى مجال الآثار ، وتتلمذ على يديه عدد كبير من الجيلين الثالث والرابع من الأثريين المصريين سواء فى الجامعة أو فى ميادين التنقيب .

* * *

ويمكن إجمال شخصية سليم حسن فى أوصاف قصيرة محدودة ، واضحة أتم الوضوح : فلقد كان مثلا للريفى الصميم ، الذى تنبع مشاعره وإحساساته من صميم الريف ، والذى يعتز أشد الاعتزاز بهذه الصفة .

كذلك اتصف سليم حسن بالثبات على الرأى والتصميم عليه والدفاع عنه مهما كانت النتائج ودون اكتراث بالعواقب ، وكان عنيداً فى ذلك ، متمادياً إلى أقصى الحدود حتى ولو أدى ذلك إلى المشاغبة والنضال .

وكان بجانب ذلك شديد الوطنية ، يقف بالمرصاد لكل عبث بالتراث المصرى ويكافح بإصرار فى سبيل تثبيت الشخصية المصرية فى مجال الآثار .

وقد أدت هذه الطباع والصفات إلى محاربة الأثريين الأجانب وأصحاب

السطوة فى مصلحة الآثار له ، وإلى بطش « الملك فاروق به وإبعاده له عن مجال الآثار ، وإلى تلفيق الأذناب والحاشية التهم له وحياكة الدسائس ضـده .

وكانت من أهم صفاته بجانب ذلك قدرته الفائقة على العمل وإقباله المنقطع النظير على البحث والدراسة وإخلاصه الفريد فى تأدية واجبه فى صبر وتفان وجلد لا حد لهم .

لقد صوره أعداؤه كرجل طموح متغطرس متشاكس ، ولكن الواقع أن « سليم حسن » كان صاحب شخصية قوية لها طابعها الخاص المميز ، وصاحب إرادة جبارة لا تتغير ولا تتبدل باختلاف الظروف والأحوال . وكان يجمع إلى جانب الشخصية القوية والإرادة الجبارة البساطة المتناهية ، وجلد فائق الحد ، وعزة نفس كبيرة ، ووطنية متفانية ، وحب دافق لتاريخ مصر القديم وآثارها الخالدة .

هذه هى سيرة « سليم حسن » الذي ارتقى سلم المجد على درجات العلم والكفاح والذي أوقف حياته على خدمة الآثار ، وظل رغم شيخوخته وحتى أيامه الأخيرة مثابراً على الكتابة والبحث والتأليف ، والذى أدرك أن طبيعة عمل الأثريين المصريين ليس مجرد التحفظ على بقية من آثار صمدت على مر القرون والدهور أو مجرد تفاخر على بقية العالم بما كانت عليه البلاد حين كانت مركز إشعاع على بقية البلدان ، وإنما هو عمل ودراسة وبحث وكفاح ينعكس على الشعب فى شكل ثقافة وعزة تدفعه إ الأمام .

ومع ذلك فحين توفى سليم حسن لم تنعه مجلة مصلحة الآثار بكلمة واحدة رغم

ما جرت عليه من عادة نعى كل عالم أجنبي فى صفحات طوال ، ولم يفكر أحد فى تخليد اسمه فى أى شكل من الأشكال .

لقد أصبح سليم حسن الآن فى ذمة التاريخ ، بعد أن عاش عمره كله يبحث فى أمجد صفحات تاريخنا الخالد ومجدنا التليد .

د . محمد جمال الدين مختار
وكيل وزارة الثقافة لشئون الآثار

جاستون ڤيت

وأعماله العلميـــة

بقلم

الدكتور أحمـــد دراج

عاش فيت فى مصر ثمانية وعشرين عاماً ، قضى منها ثلاث سنوات ، من ١٩٠٩ حتى ١٩١١، باحثاً بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، وكان ذلك عقب تخرجه من مدرسة اللغات الشرقية بباريس . ثم عاد ليعيش فى مصر مدة ربع قرن من الزمان تبدأ من سنة ١٩٢٦ عندما عين مديراً لدار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامى) ، وتنتهى بانتهاء مدة خدمته بالحكومه المصرية فى سنة ١٩٥١ .

وطوال حياته العلمية الطويلة التى تمتد من سنة ١٩٠٩ حتى وفاته فى ٢٠ أبريل ١٩٧١ كان تاريخ مصر وحضارة مصر من الفتح العربى حتى العصر الحديث هو المحور الرئيسى لدراساته وأبحاثه ، وذلك دون أن يبتعد عن الميدان العام لتخصصه، وهو التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بصفة عامة .

وقد بلغت هذه الدراسات والأبحاث من التنوع والكثرة العددية ما يفوق تصور الباحثين . فقد ترك عشرات من الكتب التى تغطى معظم مجالات الدراسات التاريخية والحضارية . ومن هذه المجالات : التأليف ، ونشر النصوص العربية القديمة ، والترجمة إلى اللغة الفرنسية للمصادر التاريخية والجغرافية العربية ولروائع الأدب المصرى الحديث ، ونشر النقوش العربية ، وأخيراً الفنون الإسلامية والحضارة الإسلامية . كما كتب أكثر من ثلثمائة مقال تتناول مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية فى تاريخ مصر خاصة ، وفى التاريخ الإسلامى عامه .

وتتسم جميع هذه الدراسات بالجدة والأصالة ، وعمق البحث وغزارة المادة. فلقد كان — رحمه الله — لا يشغله شىء فى حياته عن التفرغ للبحث العلمي ، وليس

أدل على ذلك أن الفترة التي عمل فيهامديراً لدار الآثار العربية إمتلأت بدراسة الكثير من الكنوز الفنية التي تحتويها الدار في كافة مجالات الفنون الإسلامية. وقد ساعده على ذلك إعداده العلمي الخاص، وملكاته الفكرية، وجلده على العمل، وحبه لمصر خاصة وللتاريخ الإسلامي عامة، ومكتبته الخاصة التي تعدت الخمسة عشر ألف مجلد، وموجز للقول، فهو عالم من طراز العلماء الموسوعيين، من أمثال السيوطي وغيره ممن حفل بهم تاريخ مصر الإسلامي.

لقد خدم فيت تاريخ مصر خاصة، والتاريخ الإسلامي عامة في أمانة الرجل العالم والمؤرخ الصادق، وهي أهم الخصائص التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ ليقدر لأعماله الخلود.

ولهذا فإنه من حق فيت على مصر، وعلى زملائه وأصدقائه من المصريين الذين عملوا معه أو إرتبطوا به برابطة الصداقة، بل ومن حقه على تلامذته من المصريين وعلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي أسهم في نشاطها العلمي، أن تتذكر معاً سيرته العطرة، وحياته العلمية الحافلة.

ولكي يتيسر لنا إلقاء الضوء على أعماله العلمية، يجدر بنا أن نستعرض الجانب العلمي من تاريخ حياته الطويلة التي إمتدت أربعة وثمانين عاماً. وإلى حضراتكم هذا العرض الموجز.

— ولد فيت سنه ١٨٨٧ وتوفي في ٢٠ أبريل سنه ١٩٧١.

— حصل على دبلوم مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩٠٩.

— عضو بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة من سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩١١.

— محاضر في اللغة العربية واللغة التركية بكلية الآداب — جامعة ليون من سنة ١٩١١ حتى سنة ١٩٣١.

— عضو مراسل بالمجمع الفرنسي سنة ١٩٢٤

— مدير دار الاثار العربية بالقاهرة (متحف الفن الإسلامي) من سنة ١٩٢٦ حتى سنة ١٩٥١

— عضو المجمع العلمي المصري من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٥١.

— أستاذ جغرافية وتاريخ الشرق الأدنى بمدرسة اللغات الشرقية بباريس من سنة ١٩٣١ حتى سنة ١٩٥١.

— أستاذ تاريخ الفنون الإسلامية بمدرسة اللوفر من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٣٨ .
— نائب رئيس المجمع العلمى المصرى سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ .
— الأمين العام للمجمع العلمى المصرى من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٥١ .
— عضو المجمع العلمى المصرى من سنه ١٩٥١ حتى سنة ١٩٧١ .
— أستاذ اللغة العربيـة والأدب العربى بكوليج دى فرانس مـن ١٩٥١ حتى سنة ١٩٥٧ .
— عضو المجمع الفرنسى من سنة ١٩٥٧ حتى سنة ١٩٧١ .

ومن هذا العرض يتضح لنا تـكوينه العلمى الذى يتمثل أولا فى دراسته للغات الشرقية الثلاث ، العربية والفارسية والتركية ، ووصوله على المدى الطويل من حياته فى معرفته بهذه اللغات إلى درجة متميزة ينفرد بها بين المستشـرقين المعـاصرين . وهذه القدرة فى إجادة اللغات الشرقية ، ولاسيما اللغة العربية ، هى التى مكنته من أن يطرق جوانب عديدة فى الدراسات الإسلامية كالأدب العربى والتاريخ والجغرافيا، والفنون والحضارة ، وهى التى جعلته يتصدى لترجمة النصوص العربية القديمة لـكبار المؤرخين والجغرافيين العرب ، ولترجمة روائع الأدب المصرى الحديث بأقلام كبار الـكتاب مثل طه حسين ، وتوفيق الحـكيم ، ومحمود تيمور .

كما أن عمله الطويل فى دار الآثار العربية قد زاد من خبرته بالفنون الإسلامية فى كافة مجالاتها .

هذا فضلا عن أن إقامته الطويلة فى مصر جعلته يتخطى حدود الدراسة النظرية لتاريخ مصر وشعب مصر والتى تمتلىء بها صفحات الـكتب، وأن يتفهم عن قرب ، روح الشعب المصرى وجوانب الأصالة والإبداع التى تجلت على يديه عبر عصـور التاريخ — وعلى وجه التخصيص — فى العصر الإسلامى . وبهذه النظرة الصادقة إستطاع أن يتفهم أيضاً التاريخ السياسى والحضارى للعالم الإسلامى. ولهذا تميزت دراساته بمعالجة جوانب عديدة من حضارة مصر الإسلامية خاصة، والعالم الإسلامى عامة . وهذا يتمثل فى العدد الوفير من المقالات التى تعالج الجـوانب الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية والشعبية وغيرها .

وإلى هذه الجوانب المتعددة فى تكوينه العلمى أضيف جانبا آخر أكتسبه بالتلمذة على يد أستاذه العالم السويسرى ماكس ثان برشم صاحب الفضل فى إرساء علم دراسة النقوش العربية . ثم ما لبث قيت أن أصبح علماً من أعلام هذه الدراسة. وكان ڤيت من أقرب تلامذة ماكس ڤان برشم وأوثقهم صلة به فى حياته ، وأشدهم إخلاصاً له ولأعماله العلمية بعد وفاته .

فهو الذى قام بعد وفاته بنشر أبحاثه عن النقوش العربية الخاصة بالقدس ، والتى لم يكن قد توفر العالم الراحل على إعدادها للنشر . وقد إستغرق هذا العمل منه جهداً كبيراً ووقتاً طويلا ، تمثل أخيراً فى نشر هذه المجموعة القيمة عن القدس فى خمسة أجزاء صدرت فى القاهرة فى مجموعة MIFAO وتحمل الأرقام والسنوات الآتية :

— رقم ٤٣ ، الفصلة الأولى (سنة ١٩٢٢) ، الفصلة الثانية (سنة ١٩٢٣) .

— رقم ٤٤ ، الفصلة الأولى (سنة ١٩٢٥) ، الفصلة الثانية (سنة ١٩٢٧) .

— رقم ٤٥ ، فهرس عام للمجموعة كلها سنة ١٩٤٩ .

كما قام فى سنة ١٩٣٣ بنشر الفصلة الثانية من الجزء الأول من كتاب « جامع النقوش العربية » الخاص بمصر ، والتى لم يكن قد تمكن ڤان برشم أيضاً من نشرها . وقد نشرت فى نفس المجموعة ، مجلد رقم ٤٣ .

وبالإضافة إلى كل هذه الخبرات فقد كان العالم الراحل يجيد اللغتين الانجليزية والألمانية، الأمر الذى مكنه من الاطلاع على القدر الأكبر من كتب زملائه المستشرقين الذين يتناولون بالبحث الدراسات الإسلامية بهاتين اللغتين ، وهذا يتجلى فيما قام به من تقديم ونقد للعديد من الكتب التى كتبها أعلام المستشرقين المعاصرين له،والتى فاقت فى مجموعها الخمسين مقالا .

وفى ضوء هذا التعريف بتكوينه العلمى أحاول أن أستعرض لحضراتكم أهم أعماله العلمية.

فى الدراسات الاسلامية المصرية نجد أن ڤيت أقدم فى سنة ١٩١١ ، وهى السنة الأخيرة من عمله كباحث فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، على نشر كتاب « الخطط » للمقريزى . وكان هذا جرأة كبيرة منه لإقدامه — وهو لايزال فى بدء حياته العلمية — على نشر هذا الكتاب الذى يعتبر أهم المصادر العربية لتاريخ مصر وتاريخ بلدانها وآثارها منذ بدء الخليقة كما جرى عرف المؤرخين المسلمين حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى على وجه التقريب. ويزداد تقديرنا لهذه الجرأة لأننا نعلم أن الفصول الأولى من هذا الكتاب والتى تعالج تاريخ مصر — تعتبر أكثر أجزاء الكتاب صعوبة وغموضاً .

وكان قد سبق ڤيت إلى الاهتمام بدراسة هذا الكتاب عالمان فرنسيان لهما شهرتهما فى ميدان الاستشراق وهما بورياند Bouriant وكازا نوفا Casanova . ولكنهما إدراكاً منهما لصعوبة نشر هذا الكتاب والتعليق على مايحتويه من حقائق علمية هامة خاصة بتاريخ مصر واثارها ، إكتفيا بترجمة النص العربى إلى اللغة الفرنسية . وقد بدأت هذه الترجمة بالفصل الأول من الكتاب وتوقفت عند الفصل الخاص بابتداء الدعوة الفاطمية (طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ٣٩٥) ، وقد صدرت هذه الترجمة فى أربعة مجلدات من مجموعة MIFAO فى سنة ١٨٩٥ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٦ ، ١٩٢٠ .

واما ڤيت فقد توفر على نشر هذا الكتاب والتعليق عليه ، وأخرج لنا منه خمسة أجزاء بدأت بالفصل الأول من الجزء الأول وتوقف عند الفصل الخاص بذكر القطائع ودولة بنى طولون (حتى ص ٣٢٦ ، من الجزء الأول طبعة بولاق)

وقد صدرت هذه الأجزاء الخمسة فى نفس المجموعة فى سنة ١٩١١ ، ١٩١٤ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٨ ، (أرقام : ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣).

ولم يستطع ڤيت أن يواصل نشر بقية كتاب الخطط ؛ إذ كان قد شغل منذ سنة ١٩٢٢ بنشر دراسات أستاذه ماكس ڤان برشم عن النقوش العربية الخاصة بمصر والقدس ، كما عين سنة ١٩٢٦ مديراً لدار الآثار العربية . وهكذا جذبه العمل فى دار الآثار العربية وفى نشر النقوش العربية إلى ميدان آخر هو ميدان النقوش العربية والفنون الإسلامية التى عاش فى جوها .

غير أن عمله فى نشر « الخطط » كان بمثابة القاعدة الصلبة التي أقام عليها معرفته التامة بتاريخ مصر ومصادره المختلفة من العصر القبطى حتى العصر الحديث . فقد تطلب منه التعليق على أهم معالم مصر وآثارها وبلدانها وعواصمها التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب ، والرجوع إلى كافة المصادر لتعريف القارئ بما اندثر من هذه المعالم ، وبما لا يزال باقياً منها حتى عصرنا الحديث ، وهذا يتجلى فى وضوح لكل من يتصفح الحواشى والتعليقات العلمية المسهبة فى الأجزاء التى قام بنشرها من الخطط .

كما أن نشر الخطط جعله يمد جذور دراسته عن مصر الإسلامية إلى العصر القبطى ، وأن يتعرف على تاريخ المدن المصرية القديمة التى ورد ذكرها فى الكتاب وأن يتعرف أيضا على المؤرخين القبط الذين كتبوا تاريخ مصر باللغة العربية فى العصر الإسلامى .

فى سنة ١٩١٤ قام بالاشتراك مع جان ماسبيرو Jean Maspero باصدار الجزء الأول من دراستهما عن المدن المصرية ، وهى الدراسة التى إستكملت سنة ١٩١٩ وظهرت تحت عنوان :

— Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte, in MIFAO, T. XXXVI, Fasc. I (1914), Fasc. II (1919).

وفى هذا الكتاب عرف المؤلفان بأهم المدن المصرية ، ومنذ العصر الفرعونى حتى عصرنا الحالى من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

وفى عام ١٩٢٣ قام بالاشتراك مع عالمين متخصصين فى العصر القبطى ، وهما Eugéne Tisserant, Louis Villecourt بايضاح شخصية مؤرخ قبطى عاش فى العصر الإسلامى وكتب باللغة العربية وهو شمس الرئاسة أبو البركات ابن كبر . وظهرت هذه الدراسة فى العدد الثانى والعشرين من مجله المشرق المسيحى بعنون :

— Réckerches sur la personnalite et la vie d'Abul Barakat ibn Kubr, in Revue de l'Orient chrétieu, XXII.

وفى سنة ١٩٢٩ قام بالاشتراك معها بدراسة لكتابه « مصباح الظلمه وإيضاح الخدمــــة » . وكان قد سبقهما إلى ذلك فى سنة ١٩٠٢ المستشرق الألمـــانى ولهلم رايدل Wilhelm Riedel ، وقد صدرت هذه الدراسة فى العدد ٢٠ من مجموعة Patro logia Orientalis بعنوان :

— Le liver de la laupe des t'enébres

ثم قام فى سنة ١٩٢٤ باشتراك مع Eugene Tisserant بدراسة الآباء بطارقـــة الاسكندرية الذين أورد القلقشندى أسماءهم فى كتابه « صبـــح الأعشى » ، وهى الدراسة التى ظهرت فى مجلة المشرق المسيحى ، العـــدد ٢٣ بعنوان :

— La liste des patriarches d'Alexandrie daus Qalqashandi.

وتخليداً لذكرى صديقة جان ما سبيرو قام فى سنة ١٩٢٤ بالاشتراك مع Tisserant Fortescue, بنشر الكتاب الذى لم يكن قد تمكن من طبعه قبل وفاته وهو « تاريخ بطارقة الاسكندرية من سنة ٥١٨ حتى سنة ٦١٥ م

— Histoire de Patriarches d'Alexandrie, depuis la mort de l'eupéreur Anastase Jusqu â la réconciliation des Eglises Jacopites (518 — 615), in Publications de l'Ecole des Hautes-Etudes. Paris 1924.

وظهرت أثر هذه الدراسات فى كتابته لتاريخ مصر الإسلامية . فقد استطاع أن تتفهم فى عمق الدور الذى شارك به القبط فى تاريخ مصر الاسلامية وفى تطور الحضارة المصرية الاسلامية . و يكفينا فى هذا الصدر أن نشير إلى مقاله عن « القبط » فى دائرة المعارف الاسلامية .

* * *

وأما عن تاريخ مصر الإسلامية فإنا نلاحظ أن فيت لم يبدأ فى كتابة كتبه الرئيسية عن هذه الفترة إلا بعد أن توفر له الإلمام الكافى بتاريخها وحضارتها . وهذا تيسر له بعد أن قام بدراسات عن أهم مؤرخى مصر الإسلامية كالكندى والمقريزى (سنة ١٩١٤ ، وسنة ١٩١٦) ، وإبن عبد الحكم (سنة ١٩٢٠) ، وإبن ييسر (١٩٢١) ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى (١٩٣٠) . وكذلك بعد أن عمل فترة طويلة فى دراسة النقوش العربية . وبعد أن عمل بضع سنوات مديراً لدار الآثار العربية . واستطاع أن يتعرف فى هذين المجالين على الكثير من الجوانب الحضارية المصرية الإسلامية .

ففى سنة ١٩٣٢ أصدر ثلاثة كتب . أولها :

— الكتاب الذى إشترك فى تأليفة مع LouisHautecoeur عن مساجد القاهرة . نقد كتب ڤيت القسم الأول من الكتاب وهو الخاص بالحقائق التاريخية. .وترك لزميله دراسة مساجد القاهرة من الناحية الأثرية . وفى هـــذا القسم عالج ڤيت موضوعات حضارية بحتة تهدف إلى إبراز خصائص الشعب المصرى وملكاته التى ظهرت فى العصر الإسلامى . وتجلت فى جوانب الإبداع الحضارى التى تتسم بها الحضــارة المصرية الإسلامية .

— وكتابه عن « مصر الإسلامية » الذى ظهر فى الجزء الثانى من مجموعـة « موجز تاريخ مصر »

—Précis de l'Histoire d'Egypte

وفى هذا الكتاب عالج تاريخ مصر من الفتح العربى حتى سقوط دولة المماليك . وفى هذه المعالجة يلاحظ القارىء قدرته على إبراز الجانب الحضارى بجانب التاريخ السياسى ، سوء فيما يختص بتطور نظم الحكم أو الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفنية خلال هذه الفترة الطويلة

— ثم كتابه الثالث :

— Les Biographies du Manhal Safi

وهذا الكتاب عرض مسلسل للتراجم التى وردت فى كتاب أبى المحاسن بن تغرى بردى « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » وذلك عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٣ ، وتتكون من ثلاثة أجزاء ضخمة وتحتوى على ٢٨٢٢ ترجمة ، وقد ألفه أبو المحاسن ليكون ذيلا لكتاب « الوافى بالوفيات » لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ولهذا فان التراجم التى

أوردها أبو المحاسن تشمل النابهين والمشهورين من رجال مصر فى العصر المملوكى من سنة ٦٥٠ هـ حتى وفاة المؤلف سنة ٨٧٤ هـ .

والتزم ڤيت فى التعريف بهذه التراجم منهجاً فريداً يهدف إلى التعريف بها فى شىء من الدقة والإيجاز ، بدلا من الإسهاب الممل الذى يشعر به القارىء فى قراءة التراجم الإسلامية . فاهتم بتحقيق اسم صاحب الترجمة ، وكنيته ، ولقبه ، وتاريخ وفاته ، ونشأته ، وأهم الوظائف التى تقلدها ، وشهرته التى اشتهر بها . كما أضاف إلى هذه الحقائق المستخرجة من الترجمة ، كما وردت فى النسخة الخطية ، كل ما يزيد القارىء تعريفاً بصاحبها وأهم الأحداث المتصلة به ، وذلك بإحالة القارىء إلى كافة المصادر والمراجع التى تحدثت عن صاحب الترجمة . كما قدم لنا تحليلا علمياً لما ورد بهذا الكتاب من تراجم ، فقام بتجميع كل من ينتسب من أصحاب هذه التراجم إلى أسرة واحدة ، سواء أكانت من الأسرات الحاكمة فى المشرق أو فى المغرب الإسلامى أو من الأسرات التى اشتهر أفرادها بالاشتغال بالفقه أو بالقضاء ، أو بأحد فروع العلوم والمعرفة .

وفى سنة ١٩٣٧ كتب ڤيت أهم كتبه عن تاريخ «مصر العربية L'Egypte Arabe » الذى خصص له الجزء الرابع من مجموعة « تاريخ الأمه المصرية » .

وفى هذا الكتاب أسهب ڤيت فى معالجة « تاريخ مصر العربية » الذى كان قد عالجه فى سنة ١٩٣٢ فى مجموعة « موجز تاريخ مصر » بعنوان « تاريخ مصر الإسلامية » ، كما تطرق فيه إلى بحث جوانب أخرى جديدة من التاريخ السياسى والحضارى لمصر فى هذه الفترة ، ومن ثم اتسمت هذه الدراسة بالإسهاب والشمول وغزارة المادة . ولهذا فانه يعتبر — فى نظر المتخصصين أهم الكتب التى تعالج تاريخ هذه الفترة الطويلة من التاريخ المصرى .

وفى سنة ١٩٦٤ دعى لإلقاء سلسلة من المحاضرات فى جامعة أوكلاهاما بالولايات المتحدة الأمريكية عن القاهرة . وهى المحاضرات التى نشرت فى كتاب:

— القاهرة . مدينة الفن والتجارة .

—Cairo, City of Art and Commerce

* * *

كما تعددت مقالاته العلمية عن مختلف الجوانب الناقصة من تاريخ مصر الإسلامية. بل نراه فى هذه المقالات يطرق نواحى فريدة وآفاقا جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية

ومن هذه الموضوعات — على سبيل المثال لا الحصر —

— كتاب السر فى العصر المملوكى (رؤساء ديوان الإنشاء)
— المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى .
— تجار الكارم .
— السلطان الظاهر بيبرس .
— ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية الصغرى .
— القاهرة كما رآها الرحالة الأجانب .
— الموسيقى والرقص فى مصر الإسلامية .
— الوباء الأسود (الطاعون) الذى حل بمصر وسورية سنة ١٣٤٨ م وبلاد كثيرة أخرى فى أوروبا .
— الأدباء والكتاب المصريون فى القرن الخامس عشر الميلادى .
— أبحاث عن المكتبات المصرية فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى.
— الأعياد والألعاب الشعبية فى مصر الإسلامية .

القاهرة فى ألف عام .

— شعار الجمهورية العربية المتحدة (النسر) .

وفى مجال العلاقات الخارجية :

— العلاقات المصرية — الحبشية فى عهد سلاطين المماليك .

— أميران من أمراء الأتراك العثمانيين بالبلاط المملوكى .

— اللاجئون السياسيون من أمراء الأتراك العثمانين فى مصر .

— لاجىء من أمراء المماليك بالبلاط المغولى .

وبالإضافة إلى هذه المقالات ، كتب فييت أكثر من ٢٠ مقالا فى دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الفرنسية ، عن أشهر المدن المصرية وعن أشهر الشخصيات فى تاريخ مصر .

* * *

وامتد إهتمام فييت إلى تاريخ مصر الحديث وعلى الأخص عصر الحملة الفرنسية وعصر محمد على

وأهم مؤلفاته فى هذا الصدد ، هى :

١ — مذكرات الرحالة Trécourt عن مصر فى سنة ١٩٧١ ، نشرها والتعليق عليها . وقد ظهرت فى مطبوعات الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٤٢ .

٢ — سقوط العريش ، كما رواه الكابتن Bauchard فى مذكراته ، وقد صدرت بالقاهرة سنة ١٩٤٥ .

٣ — مذكرات نقولا الترك ، من ١٧٩٨ حتى ١٨٠٤ . وقد نشر النص العربى مع ترجمته إلى اللغة الفرنسية والتعليق عليه ، وظهرت بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

٤ — محمد على والفنون الجملية .

هذا غير عدد من المقالات عن تاريخ هذه الفتر ، منها : —

— قناصل فرنسا فى مصر فى عهد محمد على .

— خطاب للعالم الفرنسى جومار .

— رحلة إبراهيم باشا إلى فرنسا وإنجلترا .

— مذكرات غير منشورة عن الحملة الفرنسية على مصر .

— محنة السيادة العثمانية على مصر .

— تقرير بريطانى عن إستيلاء الوهابيين على مكة .

كما تجلى إهتمامه ، بتاريخ هذه الفترة ،فى قيامة بالاشتراك مع الدكتور عبد الرحمن زكى ، فى وضع فهرس مفصل لكتاب « عجائب الآثار للجبرتى » لكى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذا الكتاب الهام على خير وجه .

وكما أوضحت من قبل فإن دراسة ڤيت لتاريخ وحضارة مصر الإسلامية إنما كانت داخل الإطار العام لتخصصه فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية عامة . وقد ساعده على الاحاطة التامة بالتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية إلمامه الكافى بمصادر التاريخ الإسلامى ، العربية والفارسية ، كما أن دراساته فى ميدان الفنون الإسلامية والنقوش العربية جعله يمد دراساته من هذا الميدان إلى آفاق جديدة ، وخاصة بلاد الشام التى كانت هى ومصر تكونان دولة واحدة فى معظم فترات التاريخ المصرى الإسلامى .

وأبرز مؤلفاته فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، هما كتاب — مجد الإسلام ، باريس ١٩٦١ (Gran deur de l'Islam) .

— مقدمة فى دراسة الآدب العربى ، وهو من مطبوعات اليونسكو ، باريس ١٩٦٦ ('Intraduction a' la littérature arabe) .

— فأما الكتاب الأول فقد كتب بقصد تعريف الأوربيين بمجد الإسلام ، وذلك عن طريق إيراد النصوص المختارة على لسان المؤرخين والكتاب الثقة التي تصور في أمانة ودقة الشخصيات التي أسهمت في بناء مجـــد الإسلام في المشرق أو في المغرب، وكذلك الأحداث التاريخية الكبرى التي شكلت تاريخ الإسلام ، منذ القرن الأول حتى بداية القرن العاشر الهجرى . وقد إقتضى الأمر أن يمهد لكل فترة من هذه الفترات التاريخية بتعريف موجز لها يسمح للقارىء الأوروبي بأن يتفهم الإطار التاريخي للنص الذى ينقله إليه عن أحد كبار المؤرخين والكتاب العرب .

— وأما الكتاب الثانى ، فهو — فى حقيقة الأمر — دراسة للحضارة العربية من خلال دراسة تطور الفكر العربي فى مختلف الميادين، فى الشعر والنثر ، والقصة، والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والتصوف . وهذا الكتاب يعتبر من أروع ما كتب عن تاريخ الفكر العربى ، وجاء نتيجة إلمام المؤلف الواسع والعميق بكل ما كتب فى مختلف اللغات عن الحضارة العربية .

ويضيق بنـــا الوقت عن الاستشهاد بأهم ما كتبه من مقالات فى موضوعات التاريخ الإسلامى العام . ويكفى الإشارة — فى هذا المجال — إلى بعض هـــذه المقالات لمعرفة الاتجاهات التى كان يطرقها بالبحث .

فعلى سبيل المثال :

— تطور الأساليب الفنية فى العصر الإسلامى الوسيط .
— إسطول لاتى سوريى فى القرن الرابع عشر الميلادى .
— بعض مظاهر الحضارة العربية فى العصر الجاهلى .
— أثر الشرق الإسلامى على الثقافة الغربية .
— الدولة الأموية دولة بيزنطية الطابع ، والدولة العباسية دولة فارسية الطابع .

— حياة الترف والمتعة في مكة في القرن الأول الهجري .

— الترجمة عن الاغريقية عند العرب .

* * *

وفي مجال الفنون الإسلامية كان لفييت نصيب كبير من الشهرة العلمية . لقد تميز عمله في متحف الفن الإسلامي بالتعمق في دراسة الفنون الإسلامية في مجالاتها المختلفة ، ودراسة المجموعات الفنية التي يضمها المتحف من منسوجات وحراير وسجاجيد ، وخزف ، وتحف معدنية نحاسية وبرونزية وتصاوير ، وأواني زجاجية ، والشكاوات المموهة بالمينا . ويتضح هذا الجانب إذا ما استعرضنا دراساته الرئيسية في هذا المجال ، وهي :

— المشكاوات والأواني الزجاجية المموهة بالمينا ، من مطبوعات المتحف ، القاهرة ١٩٢٩ .

— كتالوج للمتحف ، القاهرة ١٩٣٠ .

— التحف النحاسية والبرونزية ذات النقوش التاريخية ، من مطبوعات المتحف ، القاهرة ١٩٣٢ .

— معرض الفن الفارسي بالقاهرة ١٩٣١ . وقد ظهر له عن هذا المعرض كتابان أحدهما سنة ١٩٣٣ ، والثاني سنة ١٩٣٥ .

— التصاوير الفارسية والتركية والهندية . مجموعة شريف صبري ، من مطبوعات المجمع العلمي ، القاهرة ١٩٤٣ .

— حراير فارسية ، من مطبوعات المجمع العلمي ، القاهرة ١٩٤٨ .

هذا وقد تعدت مقالاته في مختلف موضوعات الفنون الإسلامية عامة ، وعن مصر والشام خاصة ، الخمسين مقالا ، يعرف المختصون مواضعها في المجلات والدوريات العلمية ، ويتعذر علينا — في هذا المقام — الإشارة إليها .

كما برع ڤيت في ميدان النقوش العربية . وهذا يرجع إلى قدرته في قراءة الكتابة العربية التي استخدمت كعنصر من عناصر الزخرفة في الفن الإسلامي ، ثم تطورت عبر العصور وبلغت على يد الفنان المسلم درجة من التعقيد بحيث يتعذر على القارىء العادي قراءتها . كما يرجع أيضاً إلى إلمامه الواسع بالتاريخ الإسلامي ، الأمر الذي مكنه من شرح هذه النقوش والتعليق عليها لوضعها في إطارها التاريخي الصحيح .

وبالإضافة إلى ما قام به من نشر دراسات استاذه ماكس فان برشم عن القدس ومصر التي لم يتيسر له نشرها قبل وفاته ، فقد أمد ڤيت المكتبة العربية بالكنوز العلمية الآتية في مجال النقوش :

ـــ النقوش العربية في مصر ، الجزء الثاني ، (الجزء الأول أخرجه ڤان برشم) وقد صدر في مجموعة الأعمال العلمية لأعضاء المعهد الفرنسي للآثار الشرقية . سنه ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ .

مجموعة شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الإسلامي . وهي من مطبوعات « الدليل العام للمتحف » . وقد صدرت في ثمانية أجزاء تحمل الأرقام الأتية :

« الثاني والرابع (١٩٣٦) ، الخامس (١٩٣٨) ، السادس (١٩٣٩) السابع (١٩٤٠) ، الثامن والتاسع (١٩٤١) ، العاشر (١٩٤٢) .

ـــ كما قام بالاشتراك مع إثنين من زملائه وهما Ehiune Combe, Jean Sauvget من تلامذة فان برشم بإصدار سجل الكتابات العربية . وفي هذا السجل جمعوا الكتابات العربية في كافة البلدان العربية الإسلامية مرتبة ترتيباً زمنياً بدأت بالقرن الأول الهجري وتوقفت بنهاية القرن التاسع الهجري . وقد ظهر منها خمسة عشر جزءاً في الفترة ما بين سنة ١٩٣١ حتى سنة ١٩٥٧ .

— « النقوش العربية فى مكة والمدينة » . وهذه النقوش كان قد قام بجمعها فى مكة والمدينة المرحوم حسن الهوارى الذى كان يعمل أميناً مساعداً بالمتحف وقت أن كان ڤييت يتولى إدارته . ولم يبدأ ڤييت دراسة هذه النقوش والتعليق عليها إلا بعد أن عاد إلى فرنسا وعين أستاذاً بالكوليج دى فرانس سنة ١٩٥٢ وابتداء من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٥ كانت محاضراتة عن هذه النقوش التى كان يعدها للنشر . ولا أعرف حتى الآن مصير هذه الدراسة .

ولم يقتصر نشاطه فى مجال النقوش على إخراج هذه الكتب ، فقد نشر الكثير من النقوش العربية ، وخاصة عن مصر والشام ، فى عديد من البحوث فى المجلات العلمية ، ويكفى أن نشير إلى أن الحصر المبدئى لهذه البحوث بلغ حوالى الأربعين بحثاً .

ولم يكن ڤييت يستطيع أن يبرز على هذا النحو فى كافة المجالات التى أشرت إليها لولا قدرته الفائقة فى قراءة النصوص العربية القديمة . وهذه القدرة هى التى ساعدته على أن يبز أقرانه ومعاصريه من المستشرقين فى مجال ترجمة النصوص العربية القديمة إلى اللغة الفرنسية والتعليق عليها ، وذلك لتعريف الأوربيين بروائع الأدب العربى .

كما أن إقامته الطويلة فى مصر جعلته على صلة وثيقة بكبار الأدباء المصريين المعاصرين له مثل طه حسين ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وهذه الصلة مكنته من أن يتعرف على روح الشعب المصرى وأن يتذوق ما كتبه هؤلاء الأدباء لينقله إلى لغته الأصلية .

وإلى حضراتكم قائمة بأهم ماقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية من نصوص عربية قديمة.

اليعقوبى : البلدان ، باريس ١٩٣٧ .

— ملخص لكتاب « نزهة المشتاق » للادريسى ؛ من مطبوعات الجمعية الجغرافية المصرية ، سنة ١٩٣٩ .

ـــ ابن إياس : بدائع الزهور . ابتداء من عصر قايتباي حتى الغـزو العثمانى لمصر فى ثلاثة أجزاء صدرت بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ثم فى باريس سنة ١٩٥٥، ١٩٦٠

ـ مذكرات نقولا ترك (فيما بين سنتى ١٧٩٨ و ١٨٠٤) ، القاهرة ١٩٥١ .

ـ عجائب مصر لمرتضى بن عفيف ، باريس ١٩٥٣ . (وهذا الكتاب يتحدث فيه مؤلفه عن الأهرامات ، وفيضان النيل ، وما اشتهرت به مصر من عجائب . وكان قد ترجمه VATTIER سنة ١٩٥٦) .

ـ المقريزى : الفصل الخاص من كتاب الخطط ، عن « أسواق القاهرة » .

ـ محاضرات القيت فى الكوليج دى فرانس سنوات ١٩٥٤، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦،

المقريزى . إغاثة الأمة بكشف الغمة . ترجمة مع التعليق عليها . وقد نشرت فى

Journal of economic and social History of the Orient, no 5, 1960.

ـــ إبن رسته : الأعلاق النفيسة ، باريس ١٩٥٥

من مطبوعات اليونسكو

ـــ إبن حوقل : صورة الأرض ، باريس ١٩٦٤

من مطبوعات اليونسكو

وفى مجال الأدب المصرى الحديث قام فيت بترجمة الكتب والقصص الآتيـة : ـــ

ـ طـه حسين ـــ

ـ كتاب الإمام ـــ القاهرة ١٩٤٠ .

ـ شجرة البؤس . (قصة قصيرة) ، مجلة القاهرة ١٩٤٩ .

ـــ توفيق الحكيم .

ـــ يوميات نائب فى الأرياف ـــ بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ

الدكتور محمد حسن . القاهرة ١٩٣٨ .

— الرباط المقدس — مجلة القاهرة ١٩٤٣ .

— محمود تيمور

ترجم له عدداً من القصص أهمها :

— بنت الشيطان .

— تاج من ورق .

— غرام قديم .

— النبع المجهول .

— بسمة اللبنانية .

— كان فى غابر الأزمان .

— حلم وانقضى .

— كلب أسعد بك .

— حافظ رمضان .

— أبو الهول قال لى ، القاهرة ١٩٤٦ .

* * *

ولم يكن ڤيت أثناء إقامته فى مصر يعيش بعيداً عن حيـــاة المجتمع المصرى ومشاكله الاجتماعيـــة . ففى سنة ١٩٤٠ كتب مقالا فى مجلة « القـاهرة la Revue du Caire » ، العدد الخامس بعنوان « نظرة على المشـكلة الاجتماعية فى مصر » شرح فيها أبعاد هذه المشكلة، كما كان يراها المثقفون وقتذاك بالإضافة إلى رأيه الخاص بوصفه رجلا أوربياً .

وفى سنة ١٩٤١ قام بترجمة المقال الذى كتبه وقتذاك الأستاذ محمود عبدالرحيم

عنبر عن « مشكلة الطلاق فى مصر » وقد نشرت الترجمة فى مجلة مصر المعاصرة .

* * *

وفضلا عن كل هذا وذاك ، فقد كان ڤيت قارئاً ممتازاً، كما كانت تربطه بكافة المؤرخين المعاصرين له ، أوروبيين وعرباً ، صلات طيبة ، ولهذا لم يكن يخرج كتاب فى الدراسات الإسلامية ، موضوع تخصصه ، إلا وسارع بتقديمه إلى القراء ، معترفاً به ، وناقداً له .

ويخرج المرء ، بعد إطلاعه على قائمة تقديمه للكتب — والتى سبق أن أوضحت فى بداية هذه الكلمة أنها فاقت الخمسين كتاباً ، بالعربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية — بفكرة واضحة عن مدى سعة إطلاعه ، وغزارة علمه ، وشمول ثقافته، وتجاوبه مع الحياة العلمية أخذاً وعطاء .

لقد قام الأستاذ أندريه ريموند André Raymond مدير المعهد الفرنسى للآثار بدمشق ، بمناسبة بلوغ المرحوم جاستون ڤيت السبعين من عمره ، بحصر أعماله العلمية ، منذ أن بدأ حياته العلمية فى سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩٦٠ ، ونشرها فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة . وهذه القائمة تكاد تكون تامة ، لم يسقط منها إلا بعض المقالات التى تعد على أصابع اليدين بسبب السهو أو بسبب عدم الإحاطة الشاملة بكل مؤلفات ومقالات ڤيت . هذا فضلا عن أن ڤيت ظل يعمل ويكتب حتى قبيل وفاته ، ومن ثم فإن الأمر يقتضى وضع قائمة كاملة بكل مؤلفاته وأبحاثه .

* * *

وأخيراً لا يسعنى فى ختام هذه الكلمة إلا أن أوجه الشكر إلى حضراتكم لتفضلكم بالحضور إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لسماع هذه الكلمة عن العالم والمؤرخ جاستون ڤيت .

بحـــوث

العنقاء

بين فكر العرب .. وفكر الإغريق والرومان

بقلم

الدكتور سيـــد أحمد على الناصرى

مدرس التاريخ والحضارة

اليونانيـــة الرمانية

بكلية الآداب ـــ جامعة القاهرة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لايعرف العالم موضوعاً شغل خيال العديد من شعوبه مثل العنقاء ، ذلك الطائر الخرافي الذي تناوله كل شعب بالخيال والتعبير — طريقة يمكن أن تفيد في التعرف على نفسيات هـذه الشعوب وعلى عقلايتها المتميزة إذا مادرسناها بالتحليل ، أنها فرصة نادرة أمام الدارسين أن يجدوا موضوعاً خيالياً واحداً تتناوله شعوب مختلفة العنصر والفكر والحضارة ويفصل بينها عصور وأزمنة مختلفة .

كان المصريون أول من صاغ الأسطورة فكراً وصورة كما سنرى فيما بعد ، إذ عرفوا العنقاء بإسم « بنو » Bnu ويرجع العالم الكبير الدكتور أحمد بدى أن هذا الاسم مشتق من الفعل المصرى القديم Wbn أى يشرق أو يبرق أو يتوهج ويكون معنى الاسم إذا البراق أو الوهاج ، ومن هنا جاءت الصلة بين إسم الطائر وبين الحجر الهرمى المعروف بإسم بن بن bn bn والذى رمز به المصريون إلى التل العتيق الذى برز منه الماء الأزلى (النون) أى إلى الأرض التى طفت على وجه الماء — فإذا هذا الطائر يتلألأ من فوقها فيملأ الكون نوره ويخرج صوته فيكون بذلك أول دوى فى الوجود (١) .

هذا كل ماتقدمه لنا المصادر المصرية عن العنقاء بالرغم من أن أسطورة العنقاء كانت شائعة ومعروفة خاصة عند كهنة معبد الشمس فى هليوبوليس HelePolis (المطرية) .

وإذا كانت أسطورة العنقاء شائعة فى مصر فلا بد أنها شاعت أيضاً فى فلسطين

---

(١) أحمد بدوى وأخد صقر خفاجة : هيرودوت فى مصر دار القلم القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٨ .

خاصة عند العبرانيين القدماء لأن فكرهم تأثر كثيراً بالفكر المصرى القديم خاصة فى مجال الأساطير الدينية والأدب ولهذا السبب يميل فريق كبير من دارسى نصوص التوراه إلى الاعتقاد بأن مؤلف أناشيد أيوب كان على دراية بقصة العنقاء خاصة فى الفقرة الثامنة عشرة من الأنشودة التاسعة والعشرين ولذا ترجمت إلى العربية على النحو التالى :

« فقلت أنى فى وكرى أسلم الروح والسمندل(١) أكثر أياماً » .

و يستشهد هؤلاء المفسرون المحدثون علـــى هذه الترجمة بأن المؤلف ذكر فى البيت نفسه كلمة وكر أو عش لأن الأساطير القديمة كانت تربط بشدة بين العنقاء وعشه الخرافى الذى كان يبنيه من أعشاب منتقـاه كذلك فان أيوب كان يريد أن يحياه ولا يوجد فى الوجود شىء جاور العنقاء عمراً حتى صار مضرب الأمثال (٢) فى العالم القديم .

ومهما كان الأمر فإن اللفظ الذى ورد فى النص العبرى هو حول أو خول أى أن العبرانين عرفوا العناء بهذا الأسم بالرغم من أن المترجم العربى للتوراه تجنب لسبب أو لآخر كلمة عنقاء وفضل عليهـا لفظ « سمندل » وهو أحد المرادفات التى أعطاها العرب لهذا اللفظ كما سنرى فيما بعد .

---

(١) وترجمتها بالإنجليزية كما يلى :

«Then I said I shall die in my nest, and as the Phoenix I shall multiply my days; of Cambridge Bible, Job, with notes introduction and Appendix by the Rew. A. B. Davidson, Cambriage University Pres, 1899, Comment on Song XXIX, 18. p. 205.

(٢) يقول المثل الأغريقى القديم « فلان يعيش عمر العنقاء » Phoinikos ete Bioun

أما الأغريق وهم الذين يرجع لهم الفضل فى نقل الأسطورة المصرية من وادى النيل وصياغتها بقالب هلييني ثم تقديمها إلى العالم المثقف فقدترجموا اللفظ المصرى بنو إلى فوينكس phoinix وهى تعنى باليونانية « الألوان الداهية » نظراً لما عرف عن ريش هذا الطائر العجيب من الوان زاهيه متلألئه ومن الملاحظ أن الأسم الاغريقى(١) يكاد يحمل المعنى الأصلى للاسم المصرى بنو (البراق — الوهاج) آما الرومان فقد تقبلوا اللفظ والفكرة الإغريقية ولم يضيفوا عليهما شيئاً وكل ما فعلوه هو أن صاغوا الأسم الاغريقى بالحروف اللاتينيه فأصبح فينكس phoenix وهو الأسم الذى انتقل إلى معظم اللغـات الأوربية المعاصرة خاصة تلك التى تولدت من اللاتينيه .

أما بالنسبة لشعوب الشرق والتى يجىء العرب على رأسها فقد لقبوا هذا الطائر بأسماء مختلفة فتارة لقبه العرب حينا بالعنقاء وحينا بالسندل(٢) ولكن العنقاء هو الأكثر شيوعا« وقيل أنها سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق « أو ربما» لأن لها عنق طويل »(١) كما قيل أن عنقها كان مثل عنق البعير(٢) .

---

(١) كذلك فان اللفظ فينكس يعنى بالاغريقية شجرة النخيل ولكن لا علاقة بين اسم الطائر وشجرة النخيل وإن كان البعض يحاولون الربط بين الطائر وبين شجر النخيل التى تكثر فى سوريا وحيث قيل أنه كان يبنى عليها عشه الشهير كذلك ذكرت الأساطير اليونانية لفظ Phoinix كاسم علم لأحد أبناء ملك بلاد اليونان الأسطورية والذى طرده أبوه مغادرها إلى مملكة فثتيا Phthia حيث أصبح معلم لاخيليس الآخيين فى الحروب الطروادية بل أنه لعب دوراً فيهـا كذلك تذكر الأساطير رجلا آخر بنفس الإسم وهو شقيق قدموس Cadmus الذى خرج ليبحث عن الأميرة يوروبا Europa فاستقر به المقام عندسواحل آسيا الصغرى وأنشأ دولة فينيقيا ومن أسماء الأعلام الشاعر فوينكس أحد الشعراء الهجائين الذين عاشوا فى القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) كذلك خلطوا بينه وبين اسم السامند أو السلاماندر أو السمؤل وهو حيوان النار انظر : الدميرى : حياة الحيوان الكبرى الجزء الثانى ص ٤٠ .

(٣) انظر أبى منظور : لسان العرب الجزء الثانى عشر (فصل العين حرف القاف) ص ١٤٩ .

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٧٦ .

كذلك عرفت العنقاء فى عدة لغات من لغات الهند ولغات الشرق الأقصى(١) ويجيء الفرس بعد العرب فى اهتمامهم بأمر العنقاء إذ عرفوها باسم السيمرغ Simurgh وهو اسم مركب من كلمتين مرغ ويعنى الطائر وسى ويعنى طائر كبير لعله النسر كما لقبوه « بالشاه مرفان » أى ملك الطيور « لأنه يقبل كالسحابة الراعدة لعظم جسمها وخفيف اجنحتها (٢) .

كذلك ربط الخيال الشعبي العربى بين العنقاء والرخ أو الرخه الذى نسمع عنه فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ذات الخلفية الثقافية والفكرية الإيرانية وقد انتقلت هذا الأسم إلى الخيال الشعبي الأوروبى عن طريق الرحالة ماركو بولو حيث سمى هذا الطائر بالرخه Rocca (٣) .

هكذا يتبين لنا أن أسطورة العنقاء قد شغلت خيال كثير من الشعوب القديمة من الشرق ومن الغرب على السواء وثنيون كانوا موحدون فجاءت الأسطورة نتاجا لفكر الشرق والغرب ولقد نجح العلامة الألمانى تيرك Turk فى تتبع جذور هذه الأسطورة ولكن بايجاز شديد .

وتتفق الأساطير فى جوهر واحد بالرغم من أن كل شعب اختلف فى التفاصيل وهذا

---

(١) انظر ناجي القيسي : فريد الدين العطار وكتابه منطق الطير (رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٥ (غير منشور) ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) انظر ناجي القيسى المرجع السابق ص ٣١٨ .

(٣) ليس من المستبعد أن تكون الأسطورة قد توغلت إلى قلب أفريقيا السوداء عن طريق العرب لأنى أذكر أنى قرأت أسطورة من غرب أفريقية ترجمها الأديب والدبلوماسى السودانى جمال محمد أحمد ونشرتها جريدة الجمهورية فى أحد أيام عام ٦٩ تتحدث عن طائر غريب تتفق أوصافه والعنقاء أو الرخ .

الجوهر أن العنقاء طائر غريب المقدم والمولد يقدم طائراً من قلب الجزيرة العربية (١) عندما تكتمل دورة زمنية معينة اختلف الروائيون فى احتسابها فمن قائل أن ظهور العنقاء يجىء كل خمسماية عام ومن قائل أنه يجىء عند انتهاء دورة الشمس كما حسبها المصريون الذين عرفوها بدورة سوثيس Sohis ويقدرونها بـ ١٤٦١ سنة ومهما اختلفت الروايات فان غالبيتها تكاد تتفق أن العنقاء يجى كل خمساية عام.

ولقد سجل لنا هيرودوت وصفا لشكل هذا الطائر يعتبر جوهر الفكرة الغربيه عن هذا الطائر وذلك عندما زار مصر وشاهد رسما لهذا الطائر فى معبد هليوبوليس ومن الغريب أن هيرودوت كان مقتنعا بأن العنقاء كانت موجودة فعلا وليست أسطورية لأنه روى قصتها فى معرض حديثه عن طيور القطر المصرى ، يقول هيرودوت :

« وهناك طائر آخر مقدس يسمى بالفوينكس لم أره إلا مصورا إذ أنه لا يزور البلاد إلا فيما ندر، يزورها كل ٥٠٠ عام على حد قول أهل هليوبوليس وذلك عندما يموت أبوه وإذا كان يشبه رسمه فهكذا يكون حجمه وشكله : بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر وهو قريب الشبه جداً من النسر فى هيئته وحجمه ويرون أنه فى مهارة يدبر الأمر التالي — ولكنني لا أصدق ما يقولون: يرون أنه يغادر بلاد العرب حاملا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه فى هذا المعبد وذلك بعد أن يغطيه بطبقة من المر ولكى ينقله يقوم بما يلى: يصنع أولا من المر بيضة بالقدر الذى يستطيع حمله

---

(1) w. H. Roscher, Aus Furhliches Iexicon der griechischer und Romisehen Mythologie, 1902—1909 111, 2, col. 3450 — 3472.

بالرغم من العرب ملوا فيا بعد إلى جعل موطنه العنقاء غربا فى جزر المحيط وقبل أن موطنه هو جزيرة سومطرة أو أرض الصين شرقا .

ثم يحاول حملها فاذا انتهى من محاولته يجوف البيضة ويضع أباه فيها وبعدئذ يغطى بالمر ثانية المكان الذى جوفه من البيضه وأدخل فيه أباه بحيث أن يظل ثقل البيضه واحـــدا وبعد أن يغطى أباه يحمله إلى معبد الشمس فى مصر ، ذلك ما يفعله هذا الطائر حسب ادعائهم» (١).

لقد مر هيرودوت مروراً سريعا على هـذه الأسطورة ولم يذكر بالتفصيل فكرة هامة وهى الطريقة التى يموت بها العنقاء ، تقول الرويات أن العنقاء عندما تحس بدنو اجلها تجمع أعشابا من طيب النبات ثم ترقد عليها وتشعل فيها النار وتظل ساكنة حتى تحترق تماما مع العش وما تكاد النار تخبوا حتى — يتخلق من الرماد مخلوق عنقاء صغير سرعان ما ينمو ويتحول إلى عنقاء كبير يجمع رفات أبيه ويكون منها بيضه كبيرة يحملها بين مخلبيه ويطير قاصداً مصر حيث معبد رب الشمس فى هليوبوليس (مدينة الشمس) وحيث يترك رفات ابيه عندئذ تقوم كهنة المعبد بالصلاة عليه وإقامة الطقوس الجنائزية وشعائر الدفن .

وهناك رواية أخرى تقول أن العنقاء الكهل يطير إلى مصر حيث يموت هناك ويتخلق من جثته الطائر الجديد الذى يترك رفات أبيه ويطير عائداً من حيث آتى ، وخلاصة القول أن طائر العنقاء كان مقرباً عن رع رب الشمس ولذا أعطى تقديساً وتبجيلا يفوق أى تبجيل منح لأى نوع آخر من الطـــير أو الحيوان كما تذكر النقوش الهيروغليفية .

ويؤكد الكاتب المصرى حور أبوللون Hor apollon (٢) فى كتابه الشهير

---

(١) هيرودت الكتاب الثـــانى فقرة ٧٣ ، انظر أحمد بدوى ؛ محمد صقر خفاجه المرجع السابق ص ١٧٨.

(1) Pouly - Wissowa, Sab Horapolloa, vol VIII, col. 2313 – 2319 (by Roeder).

«رموز اللغة الهيروغليفية » Hieroglyphica وجود العنقاء فى فكر المصريين فيقول « وعندما يريدون (أى المصريون) أن يرمزوا إلى نفس عمرت طويلا أو إلى فيضان فأنهم يرسمون طائر العنقاء وهم يرمزون به إلى النفس المعمرة لأنه أطول المخلوقات عمراً فى الوجود ويرمزون به إلى الفيضان لأن طائر العنقاء رمز الشمس التى لاشىء يفوقها حجما فى الوجود(١) » ويستطرد المؤلف المصرى فى الفصل الذى يليه فيقول « لكى يرمزوا الى رجل عاد الى وطنه بعد غيبة طويلة فى بلاد أجنبية فأنهم يرسمون طائر العنقاء لأن هذا المخلوق اذا ماأتاه أجله بعد خمساية عام عاد على الفور الى مصر وبعد أن يوفى حق الدنيا فى مصر (أى يموت) فإنة يلقى شعائر جنائزية سرية ، وما يؤديه المصريون لسائر الحيوانات يؤدونه للعنقاء اذ يقول المصريون عنه أنه أكثر تذوقا للشمس من أى طائر آخر والنيل يفيض لهم بفعل حرارة هذا الإله (أى الشمس) وقصصنا عليك أمر ذلك منذ وهلة (٢).

كما يتعرض الكاتب المصرى فى مناسبة ثالثة للعنقاء فى الفكر المصرى فيقول « وعندما يريدون أن يرمزوا الى دوران الدهر فأنهم يرسمون طائر العنقاء وذلك أن ولادته تجىء نتيجة اكتمال دورة الأحوال (الدهر) وهويولدعلى النحوالتالى:

عندما يحس طائر العنقاء بدنو أجله فإنه يسقط نفسه على الأرض — فتحدث فى جسده فجوة نتيجة لهذا السقوط ومن دمه (الايخور Ichor) الذى يتدفق من جراحه يتخلق طائر آخر وماأن ينبت لهذا الطائر جناحان حتى يلفظ أبوه أنفاسه

---

(1) Hor - Apollon : Hieroglyphica, Book I, chapter 34.

(2) Op. cit. Book 1, chapter 35.

الأخيرة عند مطلع الشمس وبعد موت والده يقفل الابن عائداً إلى وطنه الأصلى بينما يتولى الكهنة المصريون دفن العنقاء الراحل »(١) .

ويلاحظ القارىء اختلاف رواية المؤلف المصرى عن باقى الروايات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بالطريقة التى يموت بها الطائر العجوز وفيما إذا كان يطير إلى مصر حياً أم محمولا بواسطة العنقاء الجديد ، ولكن ذلك أمر طبيعى فى معالجة أسطورة خرافية تركت حقلاخصباً لخيال الكتاب والشعراء من كل جنس وعصر وثقافة هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فإن عمل حور ابوللون — الذى لا يقل أهمية عن مؤلف موطنه مانيتون فى التاريخ المصرى — لم تصل إلينا إلا فى شكل ترجمة يونانية ركيكة قام بها كاتب اغريقى مصرى أو مصرى متأغرق بعد قرنين على الأقل من الوقت الذى جمع فيه حور ابوللون ملاحظاته باللغة المصرية القديمة(٢) .

إذ ليس من الغريب أو المستغرب أن تستهوى أسطورة مثل هذا خيال الشعراء والكتاب والفلاسفة الاغريق والرومان فتناولها كل واحد بالطريقة الخاصة به من أجل القصد الخاص الذى يبغيه ، فمثلا ذكر الشاعر التعليمى هسيودوس Hesiod « أن العنقاء تعيش عمر الغراب Raven تسع مرات(٣) ، كما أن أسم فوينكس كان شائعاً لدرجة أنه كان من بين اسماء الاعلام وأبطال الاغريق الأسطوريين . ومن أشهر شعراء العصر الأوغسطى الذين تناولو هذه الأسورة الشاعر أوفيد ، إذ تناول الأسطورة ونسج منها أبياتاً رقيقة فى مؤلفه الشهير » مسخ

---

(1) Op. cit. Book II; Chapter 47.

(٢) لقد اعتمدت فى الترجمة على النص اليونانى الواردة فى الكتاب التالى :
A. S. Cory, The hieroglyphes of Hilous London (1840).

(1) cf. Loeb edition of Hes,od, p 74. Frogm. no163

المخلوقات « Metamor phoses (١) وفى قصيدته Amores كما كتب الأديب الرومانى ستاتيوس سيلفيوس Statius Silvius (٢) عن فكرة الخلود الأزلى فى أسطورة العنقاء الذى لا تؤثر فيه السنون أو الزمن أما الفيلسوف والأديب الرومانى سينيكا فقد وجد فى أسطورة العنقاء ضالته المنشودة كمثل حي لتعليم الرواقية التى تنادى بالالتزام لنظام معين لا يمكن الخروج عليه (٣)، كما كان من الطبيعى أن يتوقف بلينى الأكبر طويلا عند العنقاء فى مؤلفه الشهير عن التاريخ الطبيعى Histotia Naturalis ويتحدث عن الأعشاب الغريبة التى ينقيها العنقاء ليبنى منها عشه خاصة ما كان منها ذى رائحة وعبير طيب يملا الجو شذاه كذلك تناول بلينى عادات العنقاء وسلوكه وطباعه وكيفية تولد الطائر الجديد حيا من الطائر الميت (٤) أما عن المؤرخ تاكيتوس فيسجل لنا ما يثبت كيف أن هذه الأسطورة ظلت حية فى فى وجدان العالم خاصة فى الأوقات التى يحتاج فيها نفسياً إلى الإسقاط السيكلوجى وخداع النفس من أجل تبرير الأمانى وأضغاث الأحلام إذ ذكر أن شائعة عمت العالم عام ٣٤ ميلادية بأن طائر العنقاء قد ظهر فى مصر معلنا نهاية دهر وبداية دهر جديد وأن الشائعات تقول أن هذا الطائر ذهب إلى معبد الشمس فى هليوبوليس حيث ترك جثة العنقاء القديم وطار من حيث اتى (٥) وفى نهاية العصر الوثنى الرومانى

---

(1) Mitamor phoses, XV, 392 — 407.
وقد قام الدكتور ثروت عكاشه بترجمة هذا العمل عن الانجليزية وقد راجع الترجمة الدكتور مجدى وهبة ، كذلك أنظر : Amor II, VI, 54.
(2) Stat. Silv: II, IV, 36.
(3) Seneca, Epistulae XI ii, 1.
(4) Pliny, Historia Naturalis X, 3—5.
(5) Tocitus, Annales, VI, 28.

نجد الشاعر كلوديانوس(١) يكرس قصيدة بأ كملها للعنقاء ظلت المصدر الأول لكتاب وفلاسفة الرومان المسيحين بعدأندثار الوثنية كذلك تناولها شعراءوكتاب كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال اوريليوس فكتور(٢) .

وبالرغم من انتصار المسيحيةعلى الوثنية فى أوروبا الا أن شعراء الرومان المسيحيين وقفوا مبهورين أمام التراث الثقافى الوثنى خاصة أسطورة العنقاء ولعلها ذكرتهم بالحنين الرومانى الديفى فجمال العش الأخضر بأعشابه وزهوره حيث كان يسكن العنقاء فوق قمم النخيل ذات الأكام ذكرتهم بجنات عدن التى وعد بها المؤمنون ، كما أن فكرة موت الطائرة وقياسته لاقت صدى عاطفيا محببا فى نفوس المسيحيين الأول لأنه فى ذلك يشبههم بالمسيح حين صلب ثم قام ، أضف إلى ذلك أن رهبان الأديرة الناثيهو النساك وجدواقرابه فى ذلك الطائر الذى يقض عمره وحيداً بلا قرينة ولاوالد ولا ولد ، ورأيت ألا يفوتنى أن أنقل لقارىء العربية الأول مرة الجزء الأخير من أشهر قصيدة كتبها رومانى مسيحى أسمه لاكتانتيوس Lactantius فى مديح العنقاء سماهاعن طائر العنقاء De avc P h o c n i ce ولاكتايتيوس هذا كان استاذاً للخطابة والبلاغه فى نيكوميديا — أحدى مقاطعات آسيا الصغرى — فى القرن الرابع بعد الميلاد ثم استهواه الدين المسيحى فى فجره ما شهر مسيحيته ثم دعاه الامبراطور قسطنطين ليشرف على تعليم الامير كرسبوس crisPus لقد تغنت قصيده لاكتانتيوس بجمال العنقاء وبسره الإلهى المبارك

(1) Claudianus, De Consultatu Stilichonis.

(2) Autelius Victor, De Caesaibus 4,

(3) H. J. Rose, A Hand book of latcr Latin Literature, Methuen, Gompany, 3rd edition p 1954. p 481.

بنغمة حارة أشبه بصلاة مسيحى متنسك ولكنها بالرغم من هذا تحمل فى حناياها عمق الثقافة اليونانية الرومانية الوثنية وسموها وانسانيتها فجاءت مزيجا رائعاً بين تلك الثقافة وبين الدراما العاطفية والزهد والتجرد عن الدنيا وهو ما بشر به المسيح .

وقد آثرت أن انقل النص اللاتينى الفعلى مقرونا بترجمتى العربيـة حتى يشاركنى القارىء الاستماع بجمال القصيدة ذاتها :

تقول القصيدة «أن ضخامة ذلك الطائر الذى يجىء من بلاد العرب لا يمكن أن تقارن بأى مخلوق آخر حيوان كان أم طيرا وهو على الرغم من ذلك لا يبـدو مترهلا كما تبدو الطيور ذوات الأجسام الضخمة بسبب ثقل وزنها ، بل أنه خفيف رشيق تملاؤه مظاهر الملوك .

هكذا يبدو لاعين الناس وعندما يقـدم تخرج مصر عن بكرة أبيها لتستقبل المعجزة ولكى تحى الجماهير (هذا) الطير النادر بالتهليل ، وفى الحال ينقشون على الرخام المقدس شكله ويسجلون بعنوان جديد التاريخ والحدث .

وتتجمع حوله الطير من كل جنس وليس فى مخيله أى منها رهبة أو خوف وتنهق طائرة إلى العلى تحيطها جوقه ويتبعها الجمع فرحة بفريضة التقوى ولكن عندما تصل إلى الأثير الأعلى ، تعود فى الحال إدراجها وتكتفى بمتابعته من امكنتها، آه ياطائر البشرى والخاتمـة السعيدة ، يا من جعله يلد نفسه من نفسه وسواء كان انثى أم لا هذا ولا ذاك أو حق كليهما معا فهو طائر سعيد لأنه يعبأ بشهوة الجماع .

فالموت عنده هو الحب وشهوته الوحيدة تكمن في الموت ولذا فقبل أن يولد يشتهي الموت ... أنه نفسه حفيد نفسه لأنه الوالد والوريث . وهو الذي يرعى نفسه بنفسه والمرء الأبدي لنفسه ولكن الأمور لا تدوم لأنه كان نفسه وليست نفسه . لأنه يحي بالموت الكريم حياة خالدة » .

Magnitiem terris Arabum quae gignitur ules
Vix aequare potest, Seu fera seu sit avis,

Non tamen est tarda, ut Volucres quae corpore
mogno incessus pigroe per grave pondus habent,

Sed levis ac velox, regali plena decore:
talis in adspectu se tenet usque hominum.

Huc venit Aegyptus tanti ad miracula visus
et raram valucrem turba salutat ovans.

Protinus exsculpunt sacrato in marmore formam
et titulo signat remque diemque novo.

Contrahit in coetum sese genus omne
valantum, nec proedae memor est ulla nec ulla
metus.

Alituum stipata choro volat illr der altum
turdaque prosequitur munere laeta pio,

Sed postquam puri pervenit ad aetheris auras,
mox redit, illa suis conditur inde locis.

A fortunatae sortis finisque volucrem,
cui de se nasci praestit ipse deus.

Femina vel mas haec, seu reutrum, seu sit utr-
umque, felix quae veueris foedra nulla Colit :

Mors illi venus est, Sola est in morte valuptas :
ut possit nasci, appetit ante mori

Ipsa sibi proles, suus pates et suus heres,
nutrix ipsa sui, semper olumna sibi

Ipsa quidem, sed non eadem quia et ipsa nec
ipsa est, aeternam vitam mortis adepta bono.

---

1 — of. A.M. Duff, minor Latin poets, Loeb Classical Library, 1935. pp 647 ff.

تلك هي قصيده لاكتانتيوس — شيشيرون المسيحية — كما لقبة معاصروة[1]، والتي أصبحت نموذجا إحتذاه كل كاتب استهواه هذا الموضوع فنسج على منوالها قصائد متعددة ولقد كانت الأسطورة محـل عناية خاصة من جانب الشعراء الغنائيين Lyricist [2] الذي تناولوها من جوانب متعددة فنهم من كتب عن تغريد العنقاء وعن الأناشيد التي يشدو بها عندما يقبل وعند ظهوره كلما أكتمل ألف عام وعودته إلى أكام النخيل ذوات الطلع النضير في شوطئ سوريا حيث كان يبني عشة الغريب الجميل وعن مأساه موته وبعثة من جديد ، في مزيج شيق من الوثنية وتراثها والمسيحية وعناصرها جديرة بالدراسة والترجمة .

وإذا ما تركنا الغرب الأوروبي وإنتقلنا إلى الشرق مهد الأسطورة نفسها وجدنا شعوبة أيضا تعالج الأسطورة ولكن بطريقتها الخاصة ويجئ على أرس هذه الشعوب العرب لقد عرف عرب ماقبل الإسلام العنقاء وذكروها في أمثالهم المديده ولكن لا نسمع عنهم أي تفسيرات لا معقولية لطائر العنقاء وربما لأن العرب شعب فقير في صنع الخرافات والاساطير أو لأن العقلية العربية تميل إلى التجريد المطلق « فمثلا إذا خبرت العرب عن هلاك شئ بطلانة قالت حلقت به في الجوعنقاء مغرب » (٣)

ويقول أبو منظور لسان العرب (٤) « والعنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب وقيل والعنقاء المغرب كلمة لا أصل لها ، يقال أنها طائر عظيم لاترى إلا في الدهور ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا (٥) ومغربه كقولهم .

---

1 — H. J. Rose, op. cit d. 481.
2 — cf A.M. Duff, op. cit pp.643w647.

(٣) الحيوان للجاحظ جزء ٧ ص ١٢٠

(٤) لسان العرب لابى منظهور الجزء الثانى عشر (فصل العين حرف القاف ص ١٤٩ .

(٥) كذلك ذكرأو منظهور في لسان العرب أن العنقاء لقب رجل من العرب اسمة ثعلبة ابن عمرو والعنقاء أيضا أسم ملك أنظر المرجع السابق .

ولولا سليمان الخليفة حلقت | به من يد الحجاج عنقاء مغرب

وقيل إنها سميت عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق وقال كراع العنقاء فيما يزعمون طائر يكون عند مغرب الشمس وقال الزجاج العنقاء المغرب طائر لم يره أحد وقيل فى قوله تعالى — طيرا أبابيل هى عنقاء مغربه أبو عبيد — من أمثال العرب طارت به العنقاء والمغرب ولم يفسر .

أما الشعراء العرب فقد ذكرو العناق فى قصائدهم على أنها طائر خرافى كقول أبى نواس فى هجاء أحد الناس .

وما خبره إلا كعنقاء مغرب | تصور فى بسط الملوك وفى المثل (١)

كذلك يصورونها بأنها طائر ضخم لايستطيع صيدة كقول المعروى فى مطلع قصيدته « سقط الزند » :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا | فعاند من تطيق له عنادا

وبأنه طائر عقيم لايرضع كقولهم .

مهدته العناق وهى عقيم | رب مهد يكون فوق الهلال (٢)

والحق يقال أن الخيال العربى لم يصبح خصبا إلا فى الحقل الدينى حيث فتح باب الاجتهاد أمام المفسرين والباحثين فى قصص الأنبياء حتى أن بعض المفسرين ذكروا اسم العنقاء فى تفسير قوله تعالى «وعادا وثمود وأصحاب الرس» (٣) وفى قوله تعالى « كانت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود »(٤) ويقول ابو منظور فى لسان العرب « قال ابن الطلبى كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له رمخ مصعده فى السماء ميل فكان ينتابه طائره كأعظم مايكون لها عنق طويل من أحسن الطير فيها من كل لون وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على

(١) حياة الحيوان للجاحظ جزء ٣ .
(٢) المرجع نفسه جزء ٧ .
(٣) سورة الفرقان آية ٣٨ .
(٤) سورة قاف آية ١٢ .

الطير فتأكلها عافجت وانقضت علي صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب بما أخذته ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة فدعا عليها فسلط الله عليه آفة فهلكت فضربتها العرب مثلافى إشعارهاويقال ألوحت به العنقاءالمغرب وطارت به العنقاء(١) .

كذلك تحدثت الأساطير(٢) الإسلامية عن العنقاء خاصة فى معرض ذكرها للنبي سليمان حيث اشتهر بتحكمهفى المخلوقات وقوى الطبيعة وتسيره لها حتى قيل أنه يفهم لغة الطير والحيوان ومن الواضح العرب اتبعوا قصص الأنبياء التراث العبرانى وأخذوا منه الكثير خاصة أن معظم أنبياء الله عبرانين وكان من الطبيعى أن تحتل العنقاء مكانة عالية فى مجلس الطير الذى كان يرأسه النبي سليمان بل وأن يكون لها حكاية معه رواها لنا النيسابورى الثعلبي(٣) كما رواها أيضا النويرى(٤) وملخصها تحدى العنقاء للقدر أمام سليمان حين قالت الإيمان لله ولكن المشيئة للعباد فيضعها سليمان أمام حكم من أحكام القدر وهى أن طفلا ولد بالمغرب وجارية بالمشرق وكل منهما ابن ملك وأنهما سيكبران ويجتمعان فى أمنع الموانع وتحمل الجارية من الفتى سفاحا وترد العنقاء مغرورة بقوتها بأنها ستمنع الفتى عن الفتاه فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة « ومرت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عظما ووجهها وجه الإنسان ويدها وأصابعها(٥) كذلك فحلقت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا وعرفت مكان الجارية وخطفتها وحملتها حيث تسكن فوق قمة شجرة عالية تلامس

---

(١) أنظر لسان العرب المكان السابق.

(٢) أنظر مثلا شرح المقامات للشويشى مطبعة بولاق ١٩٠٠ جزء٢ ص٤٠٦ . كذلك أنظر دائرة المعارف الإسلامية تحت سيمرغ .

(٣) النيسابورى الثعلبى: قصص الأنبياء مكتبة الجمهورية المصرية ص٣٢٠ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى : نهاية الأرب الجزء الرابع عشر مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٣ ص٨٦ — ٨٧ .

(٥) نهاية الأرب الجزء الرابع عشر ص٩٢ .

غصونها النجوم والشجرة فوق جبل شاهق عال يتوسط جزيرة فى البحر وأخذت تربيتها حتى كبرت ولـكن الريح تسوق سفينة الفتى والذى كان أصبح ملـكا إلى هذه الجزيرة ويخاطب الفتاة ثم يصل إليها بطريقة غريبة تذكرنا بمـا ذكره هيرودوت نقلا عن ماسمعه من كهنة مصر وهى أن الأمير « بقربطن فرس من دوابه وأخرج ما فيه وجوفه وأقبره وأطينه وأدخل فى جوفه وتحت إلحاح الجارية أحضرت العنقاء جثة الفرس إلى العش ونال الفتى من الفتاة وخبرت الريح سليمان بمـا جرى فطلب من العنقاء إحضار الجارية وتحت إلحاح الجارية مرة أخرى سمحت العنقاء لها بأن تدخل فى بطن الفرس حيث يرقد الأمـير وتحملها إلى مجلس سليمان وأمام الطير تنـكشف الحقيقة فتدهش العنقاء وتتيه فى السماء نحو المغرب حيث اختفت فى بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت ألا ينظر الطير فى وجهها أبداً استحياء»(١) .

كذلك استوحى عدد كبير من كتاب العرب معلوماتهم من التراث الفارسى خاصة فيما يتعلق بالعنقاء ولايفوتنا فى هذا المجال أن نذكر الدميرى(٢) وماقاله عن العنقاء حيث خلط بينه وبين السندل فحينا يذكره بأنه طائر غريب بأرض الصين يستلذ بالنار ولا يغسل جلده إلا بها — وحينا يذكره بأنه حيوان دون الثعلب لايتأثر بالنار ولا تؤثر فيه ومرة ثالثة يقول أنه طائر بأرض الهنـد يبيض ويفرخ فيها ويعمل من ريشه مناديل إذا — اتسخت ألقى بها فى النار فتصبح نظيفة ويقول أنه سمع من شيخه عبد اللطيف ابن يوسف البغـدادى أنه قـدم للملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب قطعه سمنـدل عرض ذراع فى طول ذراعين ألقيت فى النار فلم تؤثر فيها .

---

(١) المرجع السابق فى نفس المكان .
(٢) حياة الحيوان الـكبرى الجزء الثانى ص ١٧٧ — ١٧٩ .

كذلك يروى القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات(١) «أن العنقاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقه تخطف الفيل كما تخطف الحدأه» وذكر أنها نفيت إلى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء وهى جزيرة لا يصل إليها أحد من الناس وفيها تعيش حيوانات كثيرة كلها تحت طاعة العنقاء وذكر أن العنقاء كانت تترك مايتبقى من صيدها لباقى الحيوانات حيث يشاهدها من موضعه العالى وهى تأكل بقاياه وذكر أنه عند طيرانه يحدث ريشه صوتا كصوت هجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح .

من الواضح أن الأسطورة مرت شرقا حتى وصلت إلى الهند إذ ورد اسم العنقاء فى عدد من لغاتها القديمة ولكننا لا نعلم الكثير نظرا لصعوبة الاطلاع على نصوص هذه اللغات ومهما كانت فلن تبلغ الأسطورة فى الهند مابلغته فى فارس الإسلامية حيث تناولوها من وجهه نظر صوفية إسلامية بحته وتظهرها الأساطير الإيرانية كرمز لشىء عبقرى طيب أمين أو كرمز للشرير الداهيـة والذى يخلص البشرية من آثامه بطل مخلص(٢) ومن يطلع على الأسطورة الإيرانية لا يجد فرقا كبيرا بيها وبين مارواه المفسرون والكتاب العرب ويقال إن أخبار العنقاء فى الكتب العربية مستوحاة من فارس الإسلامية(٣) .

ومن أشهر الشعراء المسلمين المتصوفين الذين عالجوا العنقاء من زاوية صوفيه بحتة الشاعر الإيرانى فريد الدين العطار(١١٤١ — ١٢١٠ ميلادية) وهو واحد من

---

(١) الجزء الثانى ص٢٧٩ تحت عنقاء .
(٢) انظر ناجى القيسى المرجع السابق ص٣١٧ - ٣١٨ .
(٣) ناجى القيسى المرجع السابق ٣١٨ — ٣٢٠ .

أكبر ثلاثة شعراء متصوفة في تاريخ الأدب الفارسى بعد الإسلام(١) لقد تناول فريد الدين العطار فى كتاب أسماه بمنطق الطير فكرة سبق للامام الغزالى (المتوفى عام ١١١١ ميلادية) أن عالجها فى بحث أسماه « رسالة الطير » بل أن الشاعر الفارسى تأثر بها تأثيرا لا يخفى على الدارس وهذه الفكرة هى أن الطيور على اختلاف أشكالها تجتمع لتبحث عن مليك لها وتجتمع على اختيار العنقاء وتخرج وفود الطير للبحث عنها فى رحلة كلها مهالك وأخيرا يصل عدد قليل إلى حضرة العنقاء ويروون قصتهم راجين منه أن يقبل قرارهم بأن يكون ملكا عليهم فيسخر العنقاء منهم قائلا لهم بأنه ملك الطيور سواء شاءوا أم أبوا وأنهم اتبعوا أنفسهم لعمل شىء هو قائم فعلا — ويستطرد ديوان العطار فيقول إن الطيور قد حارت فى العودة حتى تمنوا أن يموتوا عن آخرهم ولكن العنقاء ولا الطيور يسمح لهم بالإقامة عنده(٢) .

ويرى الدارسون لفكرة الغزالى والعطار أن اختيار العنقاء رمزا لفكرة الحق(٣) الذى هو غاية الباحثين كما ترمز القصة يرجع إلى نظرة الناس إلى هذا الطائر الذى هو بعيد عن الناس فلا مكانه معروف ولا وصفه على الحقيقة معروف فهو موجود حسا وفكرا وغير موجود مادة وفى هذا يمكن منطق فلاسفة المسلمين فى إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وفى هذا اختلاف كبير عن فكرة متصوفة المسيحيين الأولين .

---

(١) أنظر المرجع السابق كذلك أنظر : د. عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين العطار القاهرة ١٩٤٥ .

(٢) أنظر ناجى القيسى المرجع السابق ص ٣٠٢ — ٣٠٤ .

(٣) من الواضح أن العطار رمز للحق بالعنقاء وهو غاية الغايات كما رمز بالطيور الباحثة عن العنقاء . إلى الصوفية وطلاب الفضيلة والمقصود بالقصة أن الحق موجود سواء بحث عنه العلماء أم لا والذين يبحثون عنه سوف ينتهى أمرهم إلى حضرته كما أواهم العنقاء .

اتفاقات البحـــر المتوسط

(فبراير — ديسمبر ١٨٨٧)

بقلم الدكتور حسن محمد صبحى

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

يمتاز الربع الأخير من القرن التاسع عشر بمحاولة بريطانيا لإنهاء « عزلتها » وذلك حينما بدأوا فى انجلترا يشـكون — فى الثمانينات والتسعينات — فى جدوى سياسة العزلة هذه فالتوسع الاستعمارى فى أفريقية وفى الشرق الأقصى قد أدى إلى نزاع مع فرنسا والمانيا والروسيا . وهذا أوضح لانجلترا أنها لم تعد تتمتع بإحتكار فى ميدان التوسع الاستعمارى . والتعاون الفرنسى الالمـــانى فى عامى ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ قد ساعد هاتين الدولتين على إرساء قواعد لامبراطوريات أفريقية دون أن يسألا انجلـترا موافقة على ذلك . كذلك كانوا يخشون فى انجلترا أن يتوصل منافسوهـا إلى انهاء خلافاتهم وتـكوين تـكتل فى القـارة الأوربية . وإذا تمكن منافسوها من عزلتها فقد يتمكنون حينئذ من الضغط عليها فى جنوب افريقية ومصر ومضايقتها هنـــاك (١)

وفى غمار هذا الاتجاه الجديد لبريطانيا تجىء هـــذه الاتفاقات المعروفة باسم

---

(١) Bruce, The Shaping of The Modern World 1870—1939. Vol I. p. 886.

اتفاقات البحر المتوسط (١٨٨٧) . ولـكن هذه الاتفاقات لم تـكن وليدة الرغبة الانجليزية الجديدة فقط ، بل جاءت أيضاً نتيجة لأحداث الفترة ، ومطامح إيطاليا فى شمال افريقية ومخاوفهـــا ازاء فرنسا فى نفس الوقت ، ومخاوف النمسا من أن تتورط وحدها فى حرب ضد فرنسا بسبب ايطاليا . وفوق كل شيء جاءت هـــذه الاتفاقات نتيجة أيضاً لمباركة بسمارك لـكل هذه الاتجاهات .

ففيما يتعلق ببريطانيا تجد أن أولى مشاكلها — بالنسبة للسياسة الخارجية كانت تـكمن حينئذ فى البحر المتوسط . هـكذا كان الحال حينما تولى سولسبرى رئاسة الوزارة البريطانية فى أغسطس ١٨٨٦ . فى ذلك الوقت كانت تواجه بريطانيا مشكاتان رئيسيتان : الأزمة البلغارية ، والمسألة المصرية . ففيما يتعلق بالمشكلة الأولى قامت حركة فى بلغاريا فى سبتمبر ١٨٨٥ لضم شرقى الروملى إلى بلغاريا ، وبذلك فاجأت بلغاريا العالم بالأمر الواقع ، وضربت بقررات برلين (١٨٧٨) عرض الحائط وبينت زيف الإدعاء بأنها مجرد تابعة للروسيا . ومن المعروف أن لورد بيـكونزفيلد قد فرض فصل الولايتين ، ضد رغبة الروسيا عام ١٨٧٨ . ولـكن الروسيا صارت تعارض الآن الوحدة بنفس إصرارها السابق على نفس الوحدة ، فالحزب المسيطر فى بلغاريا ذو ميول معارضة للاتجاه الروسى . وقد كان سولسبرى — أول الأمر — يميل إلى أن يلتزم بسياسة لورد بيكونزفيلد . ولـكن الملـكة فيـكتوريا ، وسيرويليام هوايت السفير الانجليزى فى القسطنطينية — قد أقنعاه بأن يتبع فى هـــذه المسألة سياسة مغايرة لسياسة بيكونزفيلد . وفى تلك السياسة تبعت النمسا والمجر انجلترا . وهكذا كان على بريطانيا أن تعمل على تعضيد استغلال بلغاريا أبعاد النفوذ الروسى عن القسطنطينية (١) .

---

(١) Lowe, Salisbury and Mediterranean 1886—1896 pp. 2—3.

وقد كان هناك البعض — مثل لورد راندولف تشرتشل وسير روبرت موريه Robert Morier —سفير بريطانيا فى بطرسبرج — ممن كانوا يرون أن تكف بريطانيا عن الوقوف فى وجه الروسيا وأن تصل إلى اتفاق مع القيصر الروسى، الذى سوف يقابل مجاملة بريطانيا له الشرق الأدنى بأن يكف عن تهديده لأواسط آسيا . ولكن سولسبرى كانت له وجهة نظر مغايرة . فهو إذا نظر قدماً إلى السلام أعتبر الروسيا وفرنسا دولتين ذات ميول عدوانية (١) . فمنذ عام ١٨٧٩ تتبع فرنسا سياسة عنيفة فى توسعاتها فيما وراء البحار . ومنذ عام ١٨٨٢ وهى تشهر السكين فى كل مكان فى وجه بريطانيا وتقيم العقبات القوية فى وجه السياسة الاستعمارية الأنجليزية وفى سبيل ذلك تلجأ راضية إلى المـــانيا ، عدوتها التقليدية تثيرها ضد انجلترا وترسم لها سوء نواياها (٢) . وانجلترا كانت تخشى التوسع الفرنسى فى شمال أفريقية ورجال بحريتها كانوا يخشون من اتخاذ فرنسا قاعدة بحرية فى سبتة بالمغرب (٣) ولا شك أن السياسة الخارجية للدولة تتأثر عادة بآراء خبرائها العسكريين (٤) . وفى خلال أعوام ١٨٨٧ — ١٨٨٩ انتابتها حمى الوطنية المزعجة التى أثارها الجـــنرال بولانجية Boulanger وبشكل عام أصبحت للعلاقه بين فرنسا وانجلترا كما قال روزبرى (٥) فى عام ١٨٨٦ تسبب كثيراً من المضايقة للانجليز . ففرنسا تطلب من انجلترا شيئاً مالا تستطيع اعطاءه لها أبداً ثم تشكو قائله « أنكم لاتعملون شيئاً مطلقاً من

(١) Ensor, England 1870—1914. p. 195.

(٢) صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر . ص ٧٦/٧٧

(٣) Marder, A., British Naval Policy, p. 271.

(٤) أنظر أيضا : حسن صبحى ، التنافس الاستعمارى الأوربى فى المغرب ص ٦٧ ٦٩ ، ص ٧٧ .

(٥) وزير خارجية إنجلترا (١٨٨٦) .

أجلنا (١) » . وبالنسبة لسولسبرى فإن فرنسا — كما يقــول سولسبرى فى فبراير ١٨٨٧ — ترتكب طائفة من المزعجات . ففى مراكش مثلا « تسير فرنسا فى طريق ابتلاع البــلاد قطعة فقطعة وتتطلع إلى احتـــلال طنجة (٢) ويبلغ الضيق بسولسبرى أشده حتى يذكر أنه من الصعب على المرء أن يمنع نفسه من يتمنى حرباً حرباً فرنسية ألمانية أخرى لتضع حداً لهذا الجور المستمر (٣) .

أما أطماع الروسيا فقد ظهرت في طجة Perdjeh فى أواخر عام ١٨٨٥ حينما هاجمت قوة روسية أخرى أفغانية وهزمتهـا هناك فى ٣٠ مارس ١٨٨٥ ، وهذه منطقة خصبة على الحدود الأفغانية ـ التركانية . وكان ذلك الحدث منبها قوياً للخطر الذى يهدد انجلترا فى الهند من الناحية الشمالية الغربية . حينئذ بدت الدولتان — لبضعة أسابيع — على شفا الحرب . كذلك في أواخر العام تظهر أيضاً أطماع الروسيا القلقة حينما هددت صوفيا .

هذه كانت من الدواعى التى أدت بالبريطانيين إلى الاتجاه إلى دول الحلف الثلاثى، ولا سيا وأن انجلترا قد باتت مهددة بأن تقف وحدهـا فى المسألة المصرية وهذه — أى المسألة المصرية — كانت المشــكلة الثانية التى تجابه بريطانيا حينئذ فى البحر المتوسط ، فـكان على بريطانيا أن تجابه مشكلة مباشرتها للأمور المصرية مع التخلص من العداء الفرنسى لهــا هناك ، وتتجنب — فى نفس الوقت — اتجاهات بسمرك

---

(١) روزبرى إلى السفير الإنجليزى فى باريس — ١٠ أغسطس ١٨٨٦ — أنظر .
Wilson, Beckles, L' Ambassade D'Angleterre A Paris, p. 229.

(٢) سولسبرى الى ليونز (السفير الإنجليزى فى باريس) ٥ فبراير ١٨٨٧ . المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٣) صبحى ص ٦٨ .

التى تميـــل إلى مناقشة حق الانجـــليز فى مصر إذا ماناقشوا حق المانيـــا فى الاستعمار (١).

ومن المعروف أن سولسبرى كان له رأيه الخاص فى الدولة العثمانية ومصيرها . فهو كان يبدو عديم الثقة بها ، ميالا إلى تقسيمها ولايرى هناك داعياً لبقائها . وهو لذلك يهتم بالمحافظة على المصالح الانجليزية لا بحماية تركيا من الخطر الروسى (٢) وقد وضح اتجاه سولسبرى هذا تماما حينما زاد تعقد المسألة الشرقية فى السبعينيات وحينما خلف سولسبرى داربى فى وزاره الخارجية البريطانية (مارس ١٨٧٨) فحينئذ بدا أن سياسة سولسبرى بخصوص الدولة العثمانية كانت أبعد ما تـكون عن تأييد تلك الدولة أو المحافظة عليهـــا . وكان ذلك انعكاساً لشكه فيما إذا كانت تركيا حقيقة جديرة بالدعم من جانب بريطانيا(٣) . صحيح أنه لم يفقد حينئذ الأمل نهائياً فى إصلاح الأحوال فى تركيا ، ولـكنه كان يرى أن الامبراطورية العثمانية قد دب فيها الفساد والعفن إلى حد كبير ، وأنها تسير حتما إلى النهاية . وكان يعتقد بجدوى تأجيل سقوط الامبراطورية العثمانية ـــ بالنسبة لانجـلترا ـــ حتى قيـام الثورة فى الروسيا وأنه من مصلحة انجلـترا تأجيل حدوث هذه الـكارثة (٤) . أما السياسة العملية فى نظره فهى الاشراف الفعـــلى على فرق المواصلات المائية إلى الهند ، وذلك باحتلال مصر وقناة السويس وكريت والعمل على القضاء على الدولة العثمانية (٥) .

واستولت بريطانيا على قبرص (١٨٧٨) ، ومصر (١٨٨٢) ، واطمانت على مركزها فى شرق البحر المتوسط وعلى طرق مواصلاتها البحرية إلى الهند . ومع

(١) Ensor, England. p. 197.
انظر كذلك : صفوت / الاحتلال الإنجليزى لمصر . ص ١٤٢ .
(٢) صفوت : نفس المرجع . ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٣) Marder, A?, British Naval Policy, p. 271.
(٤) يظهر ذلك فى خطاب خاص له إلى Layard السفير البريطانى فى القسطنطينية أنظر :
Medlicott, The Congress of Berlin and After, p. 345.
(٥) صفوت : إنجلترا وقناة السويس . ص ٦٦ .

ذلك فقد بقيت العقبـــة الفرنسية فى مصر من ناحية كما استمر الإزعاج الروسى أو النمسوى للبلقان من ناحية أخرى .

حينئذ رأى سولسبرى — وفيما يتعلق بالبحر المتوسط ، وكما قال هو نفسه فى عام ١٨٨٧ — أنه لا خير لانجلترا فى أى تغيير ، وأن من مصلحة انجلترا ألا يحدث من التغيير إلا أقله (١) . ورأى سولسبرى أن تتبع حكومته — فى الأمور الداخلية كما فى الخارجية السياسة التقليدية ، ودبلوماسية الصبر وإناة بالنسبة لـكل المشكلتين . فى مصر والبلقان (٢) . ففى خريف عام ١٨٨٦ كان سولسبرى يريد مصلحة فرنسا بـكلمات معسولة وإشارات إلى الانسحاب من مصر ، بينما يجـدد المباحثات من الباب العالى ، وكانت قد قطعت عام ١٨٨٥ . « يتضح ذلك تماماً فى مقابلة طويلة بين سولسبرى وودانجتون — السفير الفرنسى فى لنـــدن — خصصت كلها لبحث المسألة المصرية . وفيها يتحدث سولسبرى حديثاً ودياً ولـكن يشوبه الغموض ، كما يقول وادنجتون ، ويذكر — أى سولسبرى — أن ـــانجلترا وفرنسا سوف يصلان إلى اتفاق بشأن المشكلة المصرية ، وأنه يمـكنهما أن يتفقا حول ذلك الموضوع .

«... Neamoirs Je suis persurdé que Nous arriverons à une entente ... La France et l' Angleterre auront pu Se mettre d'accord.(٣)

ومن العسير تفسير ذلك على أنه مقدمة لهذه الصفقة الإنجليزية — الفرنسية التى عقدت فى أبريل عام ١٩٠٤ (الوفاق الودى) — وذلك لجملة اعتبارات لا تخفى

(١) Lowe, p. 1.

(٢) Ibid. p. 5.

(٣) من حديث سولسبرى إلى وادنجتون : أنظر

Doc. Dip. Fr., Lére S., T. VI, No. 342.

Waddington à Freycinet, 3 Nov. 1836, Taes Confidential.

على كل دارس للعلاقات بين انجلترا وألمانيا وفرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . إنما بكل تأكيد يمكن اعتبار ذلك الحديث متفقاً مع رغبة سولسبرى فى مصالحة فرنسا بمجرد كلمات طيبة دون أدنى التزام من جانبه . فحينما يخبره وادنجتون بأنه لا يوجد أحد فى فرنسا يصدق أن الحكومة الإنجليزية مخلصة حينما تؤكد رغبتها فى الإعداد للجلاء عن مصر يكتفى سولسبرى بأن يصيح «إنكم تخطئون جداً .....» (١) ويؤكد أن انجلترا إنما تسعى إلى الوسائل التى تخرج بها بشرف من مصر ، وأن القوات الإنجليزية فى مصر سوف تكون أكثر نفعاً فى الهند ، وأن انجلترا مصممة على الجلاء عن مصر .

ويتمادى سولسبرى فى تصوير مسألة الجلاء كأمر جدى تفكر فيه بريطانيا فيقول « إننا حينما نعلن ميعاد جلائنا فلسوف نطلب حينئذ من أوروبا تحديد فترة يكون لنا الحق إبانها فى الرجوع إلى مصر فى ظروف محددة إذا نشأت فى مصر حالة جديدة وخطيرة من الفوضى .....» وحينما يسأله وادنجتون « وهل فاتحت الآخرين — أى الدول الأخرى تلك الفكرة ؟ يجيب سولسبرى : « لا إنك أول شخص أتحدث معه فى هذا الموضوع ثم يشير سولسبرى إلى المصاعب البرلمانية» التى توجد فى انجلترا ، وكيف أنهم فى انجلترا — كما فى فرنسا — يثورون بسهولة عند إثارة القضية المصرية (٢) .

وبهذه الطريقة كان سولسبرى يظن أنه من الممكن مصالحة فرنسا فى مصر . وكان ذلك بالنسبة له يبدو أمراً معقولا إذا كان عليه أن يقف فى وجه الروسيا فى نفس الوقت فى البلقان . وهو يقترح — وسيلة لذلك — التعاون مع النمسا فى

---

(١) On se trompe grandement chez vous, Lorsqu' on croit que nous

(٢) Ibid.

سياسة ترمى إلى تعضيـــد الأمير اسكندر فى بلغاريا . ولـكن الوزارة رفضت كلى الاقتراحين ، وكان تشرشل Randolphe Churchill وزير المـالية وزعيم مجلس العموم — يعارض سياسة سولسبرى(١) . كذلك حدث ما جعـــل سياسة سولسبرى — فيما يتعلق بالتعاون مع النمسا لصد الروسيا فى البلقان —لا تلقى نجاحاً يذكر فبسمرك كان غاية فى الصراحة فيما يتعلق بذلك الأمر ، وبين بوضوح أنه لن يحرك أصبعاً من أجل الأمير اسكندر فى بلغاريا ، وأن بلغاريا وحتى القسطنطينية منطقة مصالح روسية لن يتدخل فيها أو يسمح للنمسا بالتدخل. واقترح بسمرك على بريطانيا —متهكما— أن تستأجر تركيا إذا أرادت أن تعارض الروسيا فى البلقان(٢).

Mit Geld laest sich in der Tuerkei alles machen

والنمسا من ناحية أخرى لم تبد تجاوبا مما جعل ادسلى Iddesleigh — وزير الخارجية الإنجليزية — لا يتأمل الـكثير منها فى تلك المسألة . فالروسيا كانت قد أكدت للنمسا أنها لن تغزو بلغاريا(٣) .

ولـكن بمجىء يناير عام ١٨٨٧ كان يبدو أن سولسبرى قد تخلص من بعض العقبات. فهو تخلص مثلا من تشرشل فى ديسمبر من العام السابق ، وبسمرك — وقد شغل بأمر مباحثاته مع النمسا وإيطاليا بشأن تجديد الحلف الثلاثى — بدأ أكثر استعداد للتعاون مع انجلترا . وكانت النتيجة أن سولسبرى صار فى ذلك الوقت قادراً على اتباع سياسة يختارها هو ، وكان يرمى إلى عقد اتفاقية مع إيطاليا والنمسا لحماية الحالة الراهنة فى شرق المتوسط . وإجراء مباحثات بشأن تحديد أجل الاحتلال الانجليزى لمصر وبذلك يصالح فرنسا ويرضيها . وكان ذلك يعنى الرجوع إلى سياسة القرم(٤)

---

(١) Lowe, p. 5.

(٢) بالمال يفعل المرء أى شىء فى تركيا . أنظر : Lowe p. 7.

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) Lowe, p. 8.

الأمر الذى كان تشرشل يعارضه بشدة . ولكن ذلك لم يكن يعنى أن سولسبرى كان يرى جدوى فى الجلاء عن مصر أو يفكر فى ذلك حقيقة .

نلحظ أن بسمرك أيضاً كان يعمل على ارجاع « تكتل القرم» بطريقته الخاصة ووضح ذلك فى مذكرة له فى نوفمبر ١٨٨٦ (١) .ولكن بينما كان سولسبرى يعمل على مصالحة فرنسا وإيهامها بجدية التفكير الانجليزى فى الجلاء عن مصر ، كان بسمرك يعمل على التوسط بين انجلترا وفرنسا لمصالحتهما. وكان بسمرك يسعى إلى ذلك تقربا من فرنسا التى اخذت تتأكد من نوايا بسمرك السليمة ، بل وفكرت فى تجديد وفاق فرى مع المانيا إذا ما ساعد بسمرك فرنسا ضد انجلترا فى مصر . ولما كان بسمرك لا يستطيع أن يفقد انجلترا من أجل فرنسا ، فقد عرض الوساطة بين الدولتين . وبهذا — كما يرى بسمرك — يتكون تكتل شبيه بتكتل القرم يعمل على تخفيف التوتر للموقف فى البلقان ويرغم الروسية على احترام الاتفاقات(٢) . ولكن انجلترا لم ترحب وقتشذ بذلك الامر . فمصر وموقف فرنسا فى البحر المتوسط بشكل عام بالاضافة الى رغبة بريطانيا فى عدم تدخل دولة ثالثة فى أمر مصالحتها مع فرنسا فى مصر (٣) كل ذلك جعل ارجاع تكتل القرم كما يراه بسمرك أمرا عسيرا .

كانت هناك عقبات أذن تحول دون سولسبرى وتنفيذ سياسته « ولكن بمجىء يناير عام ١٨٨٧ كان يبدو أنه تخلص من كثير منها . فبسمرك مثلا — وقد شغل بأمر محادثاته مع النمسا وإيطاليا بشأن تجديد الحلف الثلاثى — بدأ أكثر استعداد للتعاون مع انجلترا ففترة السنوات الخمس للحلف الثلاثى كانت قد قاربت على الانتهاء

---

(١) Taylor, The Struggle For Mastery in Europe 1843—1919. p 305

(٢) نفس المذكرة بالمرجع السابق .

(٣) كانت إنجلترا تعلم جيدا أن فرنسا سوف تقف وحدها إذا ما قام نزاع بينها وبين إنجلترا بشأن مصر . انظر : نفس المرجع .

فكان لابد من تجديد ولكن كانت هناك مصاعب معينة تعترض اتمام ذلك — فالنمسا كانت راغبة عن الارتباط كثيرا بإيطاليا نظرا للتنافس الإيطالى الفرنسى فى البحر المتوسط ، بينما ايطاليا كانت تخشى مغبة أطماع النمسا فى البلقان وتوريط نفسها من أجل ذلك فى حرب مع الروسيا . ولكن لما كان بسمرك حريصا على تجديد الحلف، فقد وجد طريقا الى ذلك التعاون مع انجلترا التى كانت على استعداد لذلك نظرا لمصاعبهامع الروسيا وفرنسا . (١) وكانت النتيجة أن سو لسبرى صار فى ذلك الوقت قادرا على اتباع سياسة يختارهاهو وتهدف كما ذكرنا الى الاتفاق مع ايطاليا والنمسا ومصالحة فرنسا وارضائها عن طريق عقد اتفاقية مع ايطاليا والنمسا واجراء مباحثات بشأن تحديد أجل للاحتلال الانجليزى لمصر .

والتغيير المفاجيء فى سياسة بسمرك ، وهو التغيير الذى أدى الى عقد اتفاقيات البحر المتوسط فى فبراير ومارس ١٨٨٧ وإلى زيادة التعاون بين انجلترا والتحالف الثلاثى، يراه Lowe يرجع بالدرجة الأولى الى الضغط الايطالى (٢) بينما يراه Taylor يرجع الى موقف فرنسا الذى أملى على أوربا دبلوماسية سنة ١٨٨٧ (٣) .

فبسمرك — كما يرى تيلور — كان يرجو أن ترتمى فرنسا فى أحضان الروسيا، بعد هذه العزلة لفرنسا فى القارة ، وهذا بالتالى يدفع انجلترا إلى الانضمام الى جانب النمسا والمجر فى المسألة البلغارية . ولكن فرنسا فوتت على بسمرك هذا الهدف بأن قررت أن تحذو حذو المانيا فى الازمة . هكذا تحرك بسمرك فى عام ١٨٨٧ يتعاون مع انجلترا (٤) . أما Lowe فينظر الى الاراء القائلة بأن اتفاقات البحر المتوسط

---

(١) Bruce, p. 196.
(٢) Lowe, p. 8
(٣) Taylor, p. 310.
(٤) Ibid.

هى فروع التحالف الثلاثى على أنها مبالغة ، ويرجع هذه الاراء إلى نفوذ الوثائق الالمانية على التاريخ الدبلوماسى لتلك الفترة .

ومن المؤكد أنه كانت هناك عوامل خاصة بايطاليا، واخرى بانجلترا قد انتجت هذة الاتفاقيات ، وكان لـكل من سولسبرى ، وكرسى وجهة نظر دفعته إلى قبـول المفاوضات من أجل هذه الاتفاقيات .وفيما يتعلق بايطاليافإن من أهم دوافعهاللتفاوض مع بريطانيا بهـذا الخصوص كانت أطماعهـا الاستعمارية والتى كانت تتلخص فى كلمة واحدة : طرابلس .

ومن ناحية ثانية هناك مخاوف الإيطاليين ازاء فرنسا . فالايطاليون يرفضون بشدة وصاية الفرنسيين عليهم أو رعايتهم لها منذ أيام نابليون الثالث . وهم أيضا يخافون من امتلاك الفرنسيين لحوض البحر المتوسط ومن تآمرهم ضدهم.لذلك يصمم الايطاليون على زيادة قوتهم تفاديا لاذلال آخر قد يحيق بهم . كل ذلكـ بجانب المشكلة الإيطالية الأصلية والمستمرة مشكلة «الاريدنتا» Qnti-Austian irredentism قد أعطى اتجاها جديدا للسياسة الإيطالية الخارجية . وبمجىء عام ١٨٨٤ رأينا دبلوماسيين ايطاليين مثل روبلان Robilant (١) يتزعجون خشية توسع فرنسى جديد دون معوق ويصممون على الوقوف فى وجه المنافسة الفرنسية وهؤلاء كانوا يخشون أيضاً أن يؤدى إستيلاء فرنسا على المغرب وطرابلس إلى انفجار شعبى فى إيطاليا يطيح بالملـكية ويخشون ما قد يترتب على ذلك من عواقب بالنسبة لايطاليا . . . (٢) .

---

(١) وزير الخارجية الإيطالية ١٨٨٥ — ١٨٨٧ .

(٢) Ibid.

ذلك دعا إلى زياده اهتمام إيطاليا بطرابلس عام ١٨٨٤ . ولكن إيطاليا لم تشأ أن تسير فى ركاب المانيا وفرى (فرنسا) ضد انجلترا سعياً وراء الغنيمة . وعلى ذلك يرفض مانشيني (١) مفاتحات فرى بشأن وفاق استعمارى فرنسى — إيطالى ، ويبدو ميالا إلى التعاون مع انجلترا بخصوص مصر والسويس ، املا منه فى ان يؤدى ذلك إلى تفاهم إيطالى — انجليزى قوى يعمل على حماية المصالح الإيطالية فى البحر المتوسط (٢) فهم فى ايطاليا كانوا يعتقدون أن انجلترا هى أخلص صديق لهم فى أوربا . وهذه النظرة الإيطالية إلى انجلترا نجدها واضحة تماما فى اتفاقها مع المانيا سنة ١٨٨٢ ، كما تتضح أكثر بالنسبة لتجديدات التحالف الثلاثى فيما بعد .

وفى سنة ١٨٨٦ كان الموقف — بالنسبة لإيطاليا — كما كان عام ١٨٨٤ مع فارق هو تصدع وفاق بسمرك الاستعمارى مع فرنسا إلى حد الانهيار . والموقف فى البلقان قد أوحى إلى روبيلان Robilant بأنه من الممكن الحصول من ألمانيا على بعض الضمان لصالح إيطاليا فى البحر المتوسط وتنمية التعاون مع انجلترا فى نفس الوقت (٣) .

وكان روبيلان واثقاً من نفسة فهو يصر على تعضيد ألمانى لإيطاليا فى طرابلس ثمناً لتجديد الحلف الثلاثى . ولم يكن يهم روبيلان أن يعنى ذلك تمارنا مع انجلترا وفرنسا ، فعلى بسمرك تحديد ذلك . وفى اكتوبر (١٨٨٦) جاء رد بسمرك كما ارسل به لوناى Launay السفير الايطالى فى برلين — إلى روبيلان وفيه يقول أن بسمرك

---

(١) وزير خارجية إيطاليا (١٨٨١ — ١٨٨٧) .

(٢) Lowe, pp, 9–10.

(٣) p6-01Lowe, p. 11

« n' hésite Pas à formuler son cpinion dans ce sens qu' il serait tout contraire tout à l'interêt de lA, llemagne au' à eelui de l'Italie d'entrer dans les vues de la France. »

وكان ذلك يعنى أن على إيطاليا أن تتجه إلى انجلترا .

وباتضاح موقف بسمرك إزاء ما ينبغى أن تكون علية العلاقات الإيطالية — الفرنسية يسعى روبيلان لعقد تحالف مع انجلترا ويستدعى Lumley السفير البريطانى فى روما — يوم ٢٢ اكتوبر (١٨٨٦) ويخبره أنة على استعداد لبحث المسألة المصرية كما يظهر روبيلان ذلك على الملأ فى خطبه عامة له فى نوفمبر ١٨٨٦ (١)

ولكن لم يكن لهذا أثر يذكر فالانجليز كانوا يريدون تعضيداً فى بلغاريا الأمر الذى كان روبيلان راغباً عنه ، والايطاليون يعرضون تأييدهم للانجليز فى مصر وهو أمر كان الإنجليز يشكون كثيراً فى قيمته (٢)

فشل روبيلان إذن فى دفع بريطانيا إلى اتخاذ الخطوة الأولى نحو عقد تحالف إيطالى — انجليزى فقام هو بتلك الخطرة وقابل كورتى corti السفير الإيطالى فى لندن سولسبرى فى ٧ ، ١٧ يناير ١٨٨٧ ، وأشار إلى أن الوقت قد حان لتفاهم انجليزى — إيطالى (٣) ، وفى هذه المقابلة الأخيرة يقول سولسبرى للسفير الايطالى أنه يود أن يجعل العلاقات مع إيطاليا أكثر توطداً وأكثر نفعاً . (٤)

---

(١) Lowe, p. 12.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid. p. 13.

(٤) Taylor,

واقتراحات كورتى كانت غامضة الى حد ما (يناير ١٨٨٧) . ولكن مهما يكن فهم سولسبرى للعروض الايطالية،سواء كانت توحى بتعضيد إيطالى فى بلغاويا بالذات أو شرقى المتوسط عامة ، فإن سولسبرى — كما كتب إلى سفيره فى القسطنطينية Morier فى ١٩ يناير ١٨٨٧ — كان يعتقد بأن استخدام إيطاليا فى الدفاع عن الحالة الراهنة فى الشرق إنما هو أمر واقع(١) .

ولكن اقتراحات روبيلان التى جاءت بالتفصيل فيما بعد (١ فبراير ١٨٨٧) كانت على عكس ما توقع الانجليز . فهى وإن كانت تتكلم عن أثرها فى القضاء على الخطر الروسى إلا أنه يبدو أنها كانت ترمى إلى تحالف فى حالة الحرب ضد فرنسا(٢) وكان ذلك أكثر مما كان يرمى إليه سولسبرى(٣). فالإيطاليون كانوا يرغبون فى عقد إتفاقية محددة واضحة لمراعاة الحالة الراهنة فى البحر المتوسط . وقد اقترحوا لذلك مراعاة الحالة الراهنة فى البحر المتوسط والإدرياتى والإيجى والبحر الأسود ومقاومة كل ضم أو حماية أو احتلال فى هذه الجهات وعدم احداث تغيير فى هذه المناطق مهما كان دون موافقة مسبقه من انجلترا وإيطاليا، والتأييد الإيطالى لانجلترا فى مصر مقابل التأييد البريطانى لإيطاليا فى شمال أفريقية ولا سيما فى برقة وطرابلس وذلك ضد أى غزو تقوم به دولة ثالثة ، وأخيراً تعضيدا عاما متبادلا فى البحر المتوسط . ولكن يلاحظ أن كل هذه المقترحات كانت تعنى أكثر من حلف ضد فرنسا أو ضد النمسا والمجر فيما يتعلق بالإدرياتى(٤).

---

(١) Taylor, p. 310

(٢) Lowe, p. 14.

(٣) Ibid.

(٤) Taylor, p. 311.

ولكن يبدو أن الإيطاليين — بهذا العرض — كانوا قد أساءوا فهم البريطانيين فالبريطانيون، رغم أنهم كانوا مستعدين لإعطاء إيطاليا نوعا من التعضيد فى طرابلس كما أعطاهم الإيطاليون فى مصر، لم يكونوا على استعداد للارتباط معهم بحلف من هذا النوع . فقد يلجأ مثلا خليفة روبيلان إلى شن حرب ضد فرنسا لاسترجاع نيس وسافوى وعلى أى حال، فانجلترا لم يكن لديها ما يمنع من إيجاد تفاهم مع إيطاليا — فى حالة زوال إحتمال عمل إيطاليا على استرجاع نيس وسافوى ... فطرابلس نفسها، فى هذه المرحلة، لم تكن تكون عقبة فى سبيل مثل هذا التفاهم. وقد أكد سولسبرى لكورتى أنه فى الوقت اللائم فإن إيطاليا هى التى سوف تحتل طرابلس وليست فرنسا وكانت انجلترا تعلم أن طرابلس لا تثير مشكلة تذكر مع فرنسا(١) .

وكان على كورتى أن يؤكد لسولبرى أن إيطاليا ليست لديها أى نية لمهاجمة فرنسا ولكن إيطاليا — ببساطة — تريد ألا تتكرر مسألة تونس بصورة أخرى. وقد أكد روبيلان ذلك فى ٧ فبراير ١٨٨٧ (٢).

وإذا كانت إيطاليا حقيقة ليست لديها النية لمهاجمة فرنسا فإن اتفاقا مع إيطاليا يربط انجلترا بدول الوسط يبدو لانجلترا إذا ميزات متعددة بالنسبة لها ولكن الأمر الذى كان يخيف سولسبرى حينئذ كان هـذا الذى يقوله بسمرك فى الرايشستاج Reichstager وما كان يعنيه عن قرب حدوث حرب فرنسية — ألمانية .

وفى الواقع كانت الصحافة الألمانية والرأى العام الألمانى حينئذ يتكلم عن استعدادت فرنسية على الحدود وعن النزعة الحربية للجنرال بولانيجه Boulanger وزير

---

(١) Ibid.

(٢) Ibbid. p. 15.

الحرب الفرنسى(١) . ورغم أن Hatzfeldt السفير الألمانى فى لندن — قد أبلغ سولسبرى فى ٢٤ يناير ١٨٨٧ أن ألمانيا سوف تهاجم فرنسا فى الحال إذا استمرت استعدادات بولانجيه الحربية(٢) إلا أن كلى المستشار والقيصر فى ألمانيا لا يفتا يؤكد نزعة ألمانيا السلمية إزاء فرنسا(٣) ذلك يرجح الرأى القائل بأن الخطر الفرنسى على ألمانيا حينئذ إنما هو خطر وهمى كان يحلو لبسمرك أن يخلقه .

وبسمرك من ناحية أخرى — كان يتعجل حدوث اتفاق إيطالى — انجليزى ، وذلك قبل أن يضع KaInoky العقبات فى اللحظة الأخيرة .... ونرى بسمرك فى هذه المباحثات الانجليزية — الإيطالية مهتما بالشرق وليس بالغرب . فهو باهتمامه كثيراً بالارتباط مــع انجلترا فى الشرق إنما يضمن أن إيطاليا سوف تكون عند التزاماتها — الأمر الذى كانت فيينا تشك فيـــه . ذلك يفسره ما أبلغه بسمرك إلى MaIat — السفير البريطانى فى برلين — فى يوم ١ فبراير ١٨٨٧ بأنه ليست هناك حاجة إلى أى اتفاق موجهة ضد فرنسا ، بل إن كل المطلوب هو تفاهم بخصوص الشرق .

فى نفس الوقت يقنع الانجليز HatzfaIdt — السفير الالمانى فى لندن بإعطاء ضمان لتأييد ألمانيا فى مصر (٤) .

---

(١) أنظر Herbette (برلين) إلى Flourins ٢٣ يناير ١٨٨٧ — الوثائق الفرنسية .

(٢) المجموعة الأولى — جزء ٦ رقم ٤٠٤ .

(٣) Lowe, p. 15.

(٤) أنظر Flourina إلى Laboulaye (سان بيترسبورج) - ٣ فبراير ١٨٨٧ — الوثائق الفرنسية — المجموعة الأولى — جزء ٦ رقم ٤٢٢ .

على أية حال ، نجد أنه بمجيء أو فبراير ١٨٨٧ اتضح أنه كان هناك قدر كبير من التفاهم بين سولسبرى وروبيلان . واطمأن الانجليز إلى نزعة إيطاليا ، فقد أوضح Robilant أن كل ما يطلبه هو التأكد من عدم وجود احتمال اتفاق أوروبي قد يعطى طرابلس إلى فرنسا ، فهذا من شأنه أن يحدث زوبعة فى إيطاليا قد تؤدى إلى الحرب(١) .

وهكذا نجد أن الوزارة البريطانية تطمئن ، وتسمح لسولسبرى بأن يجيب روبيلان بالموافقة (٢ فبراير ١٨٨٧) ولا سيما وأن تشرشل كان ـ كما ذكرنا ـ قد خرج من الوزارة ولم يعد سولسبرى يجد معارضة لآرائه .

واستقالت الوزارة الإيطالية التى كان روبيلان وزيرا للخارجية بها (٥ فبراير ١٨٨٧) جعل سولسبرى يسرع بعقد الاتفاق المنشود ، وذلك قبل أن تقف أوضاع إيطاليا الداخلية فى سبيل خططه(٢) .

وأخيرا تتمكن كل من بريطانيا وإيطاليا من الوصول إلى اتفاقية سرية (١٢ فبراير ١٨٨٧) وهى الاتفاقية الأولى من سلسلة الاتفاقات التى عقدتها بريطانيا مع الدول وسميت باسم اتفاقات البحر المتوسط . Mediterranean Agreements

وهذه اتفاقية من أجل حفظ الحالة الراهنة فى البحر المتوسط والبحر الإدرياتى والبحر الإيجى والبحر الأسود . وفيها تتعهد إيطاليا بتعضيد المصالح البريطانية فى مصر ، كما تتعهد بريطانيا بحماية السواحل الإيطالية من الأسطول الفرنسى(٣).

---

(١) Ioqe, pp. 15—16.
(٢) Ibid. p.16.
(٣) Libd.

وقـد جاءت هذه الاتفاقية ـ كما أرادها سولسبرى ـ تخدم الظروف الحاضرة ولا ترتبط بها بريطانيا ارتباطا محددا ولا تعطى الإيطاليين ســوى موافقة عامة لفـكرة التعاون . وقد أضاف سولسبرى إلى الاتفاقية جملة غامضة حول مضمون هذا التعاون تقول :

«... the character of that co—operation must be decided by them when the occasion for it arises, according to the circumstances of the case.»

وكان سولسبرى يعنى بـكلمة by them الانجليز ، بينما كان الايطاليون يفهمونها على أنها تعنى كلا من الحـكومتين البريطانية والإيطالية(١)

وقد لجأ سولسبرى إلى جعل الاتفاق على شكل خطابات متبادلة وليس بصورة معاهدة. وهى طريقة يستطيع بها أن ينفى للبرلمان أنه قد فعل أى شىء. وفى نفس الوقت فهو يخبر روبيلان أن تفاهما بين بريطانيا وإيطاليا على ذلك النحو سوف يـكون له نفس تأثير « الأتفاقية » وعلى أى حال ففى نظر سوالسبرى فإن اتفاقاً مع إيطاليا يمثل اتجاها سياسيا سليماً بالنسبة للصداقة التقليدية بين الإيطاليين والبريطانيون .(٢)

وبالنسبة لايطاليا نجد أن الحلف الجديد مع انجلترا يخدمها سواء بالنسبة لمركزها فى المتوسط وأطماعها هناك أو بالنسبة لعلاقاتها بالحلف الثلاثى . . . فهذا الحلف قد قوى من مركز إيطاليا كثيرا ، كما اعترف — لأول مرة — بأطماعها فى المتوسط

---

(١) Taylor, p. 311.

(٢) Lowe, p, 196.

فالمادة الثالثة من اتفاقها مع انجلترا تنص على أنه بينما على إيطاليا أن تعضد بريطانيا في مصر فأن على بريطانيا بالتالى — في حالة اغتصاب أراضى دولة ثالثة (طبعاً بالبحر المتوسط ، والمقصود هنا فرنسا والمغرب) — أن تعضد عمل إيطاليا في أى جهة أخرى على سواحل افريقية الشمالية ولاسيما في برقة وطرابلس. (١) وهكذا كان الطريق في الواقع قد تمهد للحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ ، بعد أن حددت هذه الاتفاقية الأهداف الايطالية واعترفت بآمال بإيطاليا في شمال أفريقية.

ويعقد ايطاليا لأتفاقها مع انجلترا تتحرر النمسا من مخاوف انزلاقها وحدها إلى حرب ضد فرنسا بسبب إيطاليا، ويتجدد الحلف الثلاثى (٢٠ فبراير ١٨٨٧) بعد أسبوع من عقد اتفاق البحر المتوسط هذا وبعد مصاعب تخطاها بسمرك مستخدماً مهارة مرموقة في ذلك السبيل. فبسمرك يجدد التحالف الثلاثى بدون تغيير لارضاء كالنوكى كما فعقد اتفاقيات منفصلة بين إيطاليا كل من المانيا والنمسا والمجر. وفيها تعد المانيا إيطاليا بمساعدتها إذا حاولت فرنسا أن تمد احتلالها أو حمايتها أو سيادتها على طرابلس أو — المغرب. كذلك تعد المانيا بأن تهرع إلى نجدتها — إن هى تحركت بعدئذ في شمال أفريقية أو حتى اذا هاجمت فرنسا في أوروبا وفضلا عن ذلك فالمانيا تعد ايطاليا بان تحصل لها على ضمانات أقليمية لسلامة حدودها ومركزها البحرى وكانت تقصد بذلك كورسيكا وتونس ونيس (٢) وبذلك لم يعد التحالف الثلاثى مجرد عصبة من أجل السلام — كما كان يحلو لبسمرك أن يصفه — وصار بعيدا كل البعد عن وعود بسمرك المتكررة بتعضيد فرنسا في كل مكان ماعدا الالزاس واللورين واهداف ايطاليا في علاقتها بالنمسا تتضح ايضاً عند تجديد الحلف الثلاثى ففى اتفاقية منفصلة وملحقة بالحلف الثلاثى تتفق الدولتان على أنهما اذا وجدتا ضرورة

---

(١) Bruce. p. 196.

(٢) Taylo,r p. 312.

لاتخاذ خطوات لتغيير الحالة الراهنة فى البلقان أو الادرياتى والأيجى ،فعليهما أن تتفقا مسبقا بالنسبة للخطوات التى عليهما اتباعاً . وكذلك ينص الاتفاق فى هذه الحالة — على أن تنال كل منهما تعويضاً عن أى كسب تحصل عليه الاخرى : . وهذه الفقرة قد احتواها التجديد للحلف الثلاثى فى أعوام ١٨٩١، ١٩٠٢، ١٩١٢ ونلحظ أن ايطاليا تتخلى عن الحلف الثلاثى فى سنة ١٩١٥ بحجة أن هجوم النمسا على الصرب هو خرق لهذا الا(١).

وهكذا بمجئ فبراير ١٨٨٧ كان سولسبرى قد حصل أخيراً على ما كان يسعى للحصول عليه منذ صيف سنة ١٨٨٦ : اتفاقية ربطت بين دول الوسط بهدف الدفاع عن الحالة الراهنة فى الشرق ، ولاسيما وأن موافقة النمسا عليها(مارس ١٨٨٧) قد زادت من قيمتها .

وكانت الاسباب الرئيسة لامتناع كالنوكى Kalnoke عن ذلك فى موقف برلين من ناحية ، وما كان يراه من عدم الاعتماد على السياسة البريطانية التى كانت متأثرة بنفوذ تشرشل من ناحية أخرى ولكن الآن — فقد ذهب تشرشل — ومنذ ١٦ فبراير قد بدأت برلين تتعجله الانضمام إلى التكتل البريطانى — الايطالى وبذلك لم يعد هناك ما يمنع من فتح باب المفاوضات مع بريطانيا فى ٢٣ فبراير بقصد الوصول الى اتفاق على غرار ذلك الذى عقدته بريطانيا مع ايطاليا .(٢)

وبالنسبة لانجلترا فأنه اذا كان اتفاقها مع ايطاليا (فبراير)ثم اتفاق ايطاليا مع المانيا فى الأسبوع التالى قد ضمنا الحالة الراهنة فى البحر المتوسط ضد فرنسا فإن الخطر من جانب الروسيا قد أغفلته هذه الأتفاقات .ولم يكن ذلك التجاهل بالطبع

---

(١) Bruce, pp. 196–197.
(٢) Lowe, p. 17.

الأمر الذى يسر النمسا . وهنا كان سولسبرى أيضـــا مستعدا لإرضاء النمسا . فسعى إلى ذلك الأمر وهو يرىأن الوزارة البريطانية ـ وقد انزلقت إلى اتفاقية ـ فلن تعارض فى عقد أخرى(١) .

وقد كان كالنوكى ـ كما كان روبيلان ـ يفضل تحالفا قويا صلبا لا يربط الحكومة البريطانية الحالية فحسب ، بل الحكومات البريطانية القادمة أيضا. ولـكن سولسبرى رأى أن عقد معاهـدة Treaty غـير مأمون العواقب بالنسبة لمركزه البرلمانى ... وجهد سولسبرى كثيرا ليقنع كالنوكى بأن اتفاقا سياسيا له قيمته على أن تترك القرارات العسكرية فيما بعد حسبما تملى الظروف والأحداث(٢) .

وقد كان لسولبرى ما أراد . وهكذا يجىء إتفاق بريطانيا مع النمسا (٢٤ مارس ١٨٨٧) وفى المذكرات المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والنمسوية تذكر الحالة الراهنة وعلى الأخص فى البحرين الإيجى والأسود ولـكنها لم تحتو على إشارة محـــددة للبلقان وهو ما كان كالنوكى يصر عليـه فى أول الأمر . وهذه المذكرات ـ مثل مثيلاتها المتبادلة مع إيطاليا ـ تـكلمت فقط عن تعاون دبلوماسى ، ولم يكن هناك أى وعـــد أو ارتباط من جانب بريطانيا بشىء(٣) . وبذلك يكون سولسبرى قد ربط انجلترا إلى تفاهم سياسى عام مع إيطاليا والنمسا فى البحر المتوسط تاركا أمر الترتيبات.. التفصيلية بشأن التعاون بين الدول الثلاث تحددها الظروف والضرورة(٤) .

---

(١) Taylor, p. 312.

(٢) Taylor, p. 313.

(٣) Lowe, p. 17.

(٤) Lowe, p. 18.

والاتفاق الانجليزى ـ النمسوى قد جاء بمزايا بالنسبة للنمسا . فقد حصلت النمسا على ما سبق أن رفضه روبيلان ـ وزير الخارجية الإيطالية ـ عند تجديد الحلف الثلاثى ، وهو التعضيد الإيطالى فى الشرق . وبذلك يرجع لانجلترا الفضل فى ازدياد تماسك التحالف الثلاثى ، فكالنوكى ـ فى أول الأمـــر ـ لم يول هذ ـ الاتفاقات اهتماما يذكر(٢) .

وهكذا تكون اتفاقات فبراير ومارس ١٨٨٧ قد خلقت وفاقا ثلاثيا يحمى مصالح بريطانيا فى مصر ومصالح إيطاليا فى طرابلس ومصالح الجميع فى القسطنطينية ونلحظ أنه رغم أن فرنسا لم تكن تعلم شيئاً عن أية اتفاقية مكتوبة تدور حول البحر المتوسط ، وكذلك كان الروس ، إلا أن هــذه الحقيقة عن التعاون الدبلوماسى الذى اشتملت عليه هذه الاتفاقات كانت واضحة للجميع(٢) .

وقد يكون هدف سولسبرى من هذه الاتفاقات هـــو ضمان تأييد دول وسط أوروبا الدبلوماسى فى المسألة المصرية ، ولكنه على أية حال قد برر هذه الاتفاقات للملكة فكتوريا بأنها أحسن طريقة لدرء خطر عصبة من دول القارة الأوروبية قد تسعى إلى تقسيم الإمبراطوريه البريطانية(٣) .

والاتفاقات فى حد ذاتها نصر كبير للدبلوماسية البريطانية . فقد حصل الانجليز على تأييد دبلوماسى لهم دون وعد صريح بعمل قد يعقب ذلك التأييد وبذلك ضمن الانجليز أغلبية صامدة فى وجه الفرنسيين فى مصر(٤) .

---

(١) Ibid.
(٢) Ibid. 314.
(٣) Ibid. p. 313.
(٤) Ibid.

كانت الخطوة التالية لسولسبرى ـ بعد عقد اتفاقه مع النمسا (مارس ١٨٨٧) ، هى انتهاز فرصة هذا الموقف ـ غياب تشرشل من ناحية ، وتعضيد بسمرك من ناحية أخرى ــ وأحياء فكرة المفاوضات بخصوص الانسحاب من مصر(١)..

وبعد تسعة شهور اتخذت الأمور شكلها النهائى بعقد اتفاقية البحر المتوسط الثانية (١٢ ديسمبر ١٨٨٧) : وهى اتفاقية لا يحمل اسمها سوى النذر اليسير من المعنى لأنها لا تحتوي إلا القليل عن البحر المتوسط . وإنما هى قد جاءت على أية حال نتيجة للازمة البلغارية وميول كل من كرسبي وكالنوكى . .

ففى ٧ يوليو (١٨٨٧) انتخب المجلس البلغارى فردينان Ferdinanand Coburg أمـيرا متحديا بذلك رغبات الروس ، وبدا التدخل الروسى وشيك الوقوع . وتـكرر موقف الخريف الأسبق : كل من بسمرك وســولسبرى يرغب فى أن يكل إلى الآخر أمر تعضيد النمسا والمجر . وفى ٣ أغسطس يقابل سولسبرى هاتز فلد Harjzfeldt فى لندن ويبدآن سلسلة من المناقشات حول الأمور العالمية . وبدا الأمر طبعاً . فسولسبرى يصر على أنه من غير الممـكن إنقاذ الإمبراطورية العثمانية وأن إنجلترا سوف تضطر إلى اقتسامها مع الروسيا ، ما لم تعضدها ألمانيا . ولـكن بسمرك لم يخدع ، وسرعان ما أرسل إلى سفيره فى لندن ـــ بعد أقل من أسوع(٢) ـــ بأن من دواعى سروره أن يعمل على تشجيع تفاهم روسى ـــ إنجليزى . وحينئذ تراجع سولسبرى وأجاب بأنه لا يستطيع أن يخذل ايطاليا ويهجرها وأن اتفاقية إنجليزية روسية على أية حال ، أمر مستحيل وهذا هو الأمر الوحيد فى المسألة الذى كان بسمرك يعمل على تحقيقه (٣) .

---

(١) Lowe, p. 18.

(٢) فى ٨ أغسطس ١٨٨٧ . أنظر : Taylor, p. 319

(٣) نفس المرجع ص ٣١٩ .

وجاء دور سفراء الدول الثلاث المتحالفة (ألمانيا — النمسا والمجر — إيطاليا) في القسطنطينية . فبدأ في التشاور حول موقف تركيا في الأزمة ، وأنها سوف تسلم للروسيا عند أول تهديد روسى لها . وتكلم السفراء الثلاثة عن فكرة إعطاء تركيا قوة للمقاومة على الأقل قوة أدبية . وتبينت إيطاليا هذا الاقتراح بحماس . فكرسبي — وقد صار — رئيساً للوزراء منذ يوليو ١٨٨٧ — كان يعلم تماما مدى ضعف بلاده وتفككها ، وأعتقد أن علاج ذلك يكمن في دفع إيطاليا إلى النشاط . لذلك كان كرسبي ينتهز أى فرصة لإظهار بلاده بمظهر الدولة العظمى ، ويعمل على كسب تأييد بريطانيا بسياسته الاستعمارية العدوانية عامة وموقف إيطاليا من فرنسا في البحر المتوسط خاصة . ففي إبان وزارة كرسبي الأولى (١٨٨٧ — ١٨٩١) لم يغفل كرسبي قط — بصفته وزيراً للخارجية — مسألة بنزرت التي كان الفرنسيون قد أثاروها منذ عام ١٨٨١ . كذلك فهو لم يفتأ — طوال هذه الفترة — إثارة هذه المسألة لدى الدول الصديقة والمتحالفة وحتى المهتمة منها عند أى بادرة لأى عمل إنشائى في بنزرت مهما كان تافهاً(١) ولكنه يرمى إلى جعلها قاعدة بحرية تهدد أمن وسلام إيطاليا . وكان كرسبي يهتم على وجه الخصوص بجذب انجلترا للتعاون معه ومع حلفاء إيطاليا في عمل يهدف إلى منع استمرار فرنسا في هذه الإنشاءات فأعمال فرنسا هذه كانت تبدو في نظر كرسبي مخالفة لما سبق وتعهدت به فرنسا حينما فرضت حمايتها على تونس ، كما أنها أيضاً تخل بالتوازن وتهدد الحالة الراهنة بالبحر المتوسط(٢) .

---

(١) أنظر : crispi, Francesco, « Politica Estera » (1871—1890) "qustioni Internationali" Tradudction fr. de P. G. Grandcha : p. p. 123.

(٢) والحكومة الإنجليزية بدورها كانت تشارك كرسبي وجهة نظره في مذكرة لها إلى الحكومة الإيطالية في ١٩ يناير ١٨٨٩ تذكر أن بنزرت كانت « أقوى مركز استراتيجى —

وفى هذا المضمار — العمل على كسب تأييد بريطانيا لإيطاليا — كان كالنوكى يؤيد كرسبي ، فكالنوكى كان يريد جذب انجلترا أكثر إلى الشرق الأوسط . وقد رحب سولسبرى بالتفاهم مع النمسا وإيطاليا حول هذا الموضوع ، ولكنه طلب أن تغطى الاتفاقية آسيا الصغرى كما تشمل بلغاريا والمضايق . والوزارة البريطانية لم تسلم أول الأمر برأى سولسبرى بضرورة الاتفاق مع النمسا وإيطاليا ، ولكن موافقة بسمرك الأدبية — كطلب سولسبرى — على ذلك الاتفاق ودون أى وعد بمساعدة عملية أو الارتباط بسياسة معينة ، هذه الموافقة الأدبية كانت بمثابة إرضاء للوزراة البريطانية(١) .

وهكذا توقع اتفاقية البحر المتوسط الثانية (١٢ ديسمبر ١٨٨٧) ، وفيها تتفق الدول الثلاث على المحافظة على الحالة الراهنة فى الشرق الأدنى ، كما تتفق بوجه خاص على حرية المضايق والسلطة التركية فى آسيا الصغرى ، وسيادتها على بلغاريا . أما إذا اضطرت تركيا إلى مقاومة « أى مشروعات غير قانونية » — ومن المفروض أن تأتى من جانب الروسيا بالطبع — فإن الدول الثلاث عليها أن « تصل فى الحال إلى الوسائل التى تتخذ » لحمايتها . أما إذا تجاهلت تركيا مثل هذه « المشروعات غير القانونية » . فإن الدول الثلاث « سوف تجد مبرراً » لاحتلال ما تراه ضروريا من الأراضى التركية حسبما يتفق عليه ، باعتبار أن مثل هذا الأمر شيئاً ضرورياً . ومن

— فى البحر المتوسط » وهى لذلك تعاتب بشدة الحكومة الفرنسية وتوجه نظرها إلى التزاماتها فى هذا المجال والتى تعهدت بالوفاء بها منذ عام ١٨٨١ . وكذلك فعلت ألمانيا عن طريق سفيرها فى باريس . وفى مذكرة أخرى لسولسبرى — ردا على مراسلة من حكومة كريسبي بتاريخ ٢٩ يناير ١٨٨٩ — يؤكد سولسبرى أن مسألة بنزرت تهم بريطانيا بقدر لا يقل عن اهتمام يطاليا بها ، وأنها تراقب الموضوع بكل اهتمام ويقظة — أنظر المرجع السابق ص ١٢٣/١٢٤

(١) Taylor, pp. 320—321.

ذلك نرى أنه إذا كانت اتفاقات البحر المتوسط الأولى تهدف إلى تعاون دبلوماسى ضد فرنسا على وجه الخصوص ، فإن الاتفاقية الثانية كانت تمهد لعمل عسكرى محتمل موجه ضد الروسيا فقط .

ولكن ارتياح سولسبرى بخصوص تلك الاتفاقية لم يستمر كثيراً . فبسمرك قد أخبره بمحتويات المحالفة النمسوية الألمانية لعام ١٨٧٩ . بالإضافة إلى ذلك فسولسبرى لم يكن ليطمئن على الإطلاق إذا علم بمحتويات الاتفاقيه الألمانية — الروسية(١) . Re-insurance Treaty (١٨٨٧) التى فيها وعد المستشار الألمانى الروسيا بالحياد المشبع بالعطف فى حالة تقدمها فى البلقان والمضايق(٢) . وموافقة بسمرك ومباركته لاتفاقيات البحر المتوسط وعقده لاتفاقه ذلك مع الروسيا فى نفس الوقت من المسائل المفقدة التى يصعب تفسيرها(٣).

وسقوط بسمرك (٩ مارس ١٨٩٠) لم يؤثر مباشرة على علاقة دول الوسط بانجلترا فيما يتعلق بالبحر المتوسط . وظلت ألمانيا تشجع زيادة تقارب إنجلترا من دول الوسط ففى ٧ مارس ١٨٩١ كتب مارشال Marschall وزير الخارجية الألمانية يقول « إن صداقة بين إيطاليا وانجلترا لهى شوكة خاصة فى عين فرنسا كما أنها أكبر عقبة فى وجه المطامع الفرنسية فى البحر المتوسط »(٤) .

---

(١) بدأت مفاوضات هذه الاتفاقية فى صيف عام ١٨٨٧ . وهذه هى المحالفة الرابعة المهمة بعد الحلف الألمانى — النمسوى (١٨٧٩) وحلف الأباطرة الثلاثة (١٨٨١) والتحالف الثلاثى (١٨٨٢) التى عقدها بسمرك بعد مؤتمر برلين وهذه المحالفة الروسية — الألمانية هى فى الواقع اعتراف من بسمرك بفشله فى أمرين إزالة التوتر بين ألمانيا وفرنسا وإزالته بين النمسا والروسيا من ناحية أخرى ، أنظر : Bruce, p. 879.

(٢) Bruce, pp. 198—199.

(٣) انظر : Herzfeld, Hans, Die Moderne Welt, I Teil, P. 238.

(٤) Eermau Diplomatic Documents Vol. II P.55.

ولذلك جهدت ألمانيا فى تقريب انجلترا من إيطاليا برباط أقوى من ذلك الذى تم فى عام ١٨٨٧ . فاتفاقيات البحر المتوسط (مارس وديسمبر ١٨٨٧) لم ترضها ألمانيا قرارات حول البحر المتوسط بالمعنى الضيق ، إنما كانت كلها تتعلق بالمشكلة الشرقية. وكانت ألمانيا تعلم أن اتجاه السياسة الإيطالية هو ضمان مصالح إيطاليا فى البحر المتوسط قدر الامكان بواسطة اتفاقيات مناسبة تحاول إيطاليا أن تخفى هذا الاتجاه فى إبان المباحثات مع ألمانيا بشأن تجديد الحلف الثلاثى . وإيطاليا بدورها كانت تعتقد بأن اتفاقها السرى مع انجلترا غير كاف لحماية مصالحها كما أنه فشل فى الاعتراف بأهمية إيطاليا بالنسبة للسياسة البريطانية(١) . لذلك تظهر اقتراحات ألمانية ترمى إلى دخول انجلترا فى اتفاق لمراعاة الحالة الراهنة فى كل حوض البحر المتوسط . ورغم أن سولسبرى كان يبغى الإستمرار فى تقارب أشد مع إيطاليا ومع الحلف الثلاثى وبالتالى ، فالدولتان لم تصلا — فى هذا المجال — إلى اتفاق محدد(٢) .

ورغم سياسة سولسبرى المتميزة بالصداقة الواضحة مع الحلف الثلاثى فهى استمرت بعد سقوط سولسبرى ومجىء روزبرى وزيرا للخارجية (١٨٩٢) إلا أن هذه العلاقة الوطيدة لا تلبث أن تنهار فى عام ١٨٩٦ — إبان وزارة سولسبرى نفسه الثالثة . فحينما تولى روزبرى وزارة الخارجية (١٨٩٢) أخبر سفراء دول الحلف الثلاثى بأنه يعتزم الاستمرار فى سياسة سولسبرى ، وأبدى السفراء ارتياحهم الودى إزاء هذه البادرة الطيبة منه . وهكذا استمرت الوزارة فى اتباع سياسة الصداقة

---

(٢) هكذا أخبر Tornielli السفير الإيطالى فى لندن زميله الالمانى Hatzfeldt هارتزفلد إلى الخارجية الألمانية ٢٦ مارس ١٧٩١ — سرى —
Germ Dip,II.P.94.

(٢) ملحوظة بالمرجع السابق ص ٩٤ ، انظر أيضا الفصل الخاص بإيطاليا والبحر المتوسط ، نفس المرجع ص ٩٥ — ١٠٧

الواضحة مع الحلف الثلاثى ، ولـكن دون ارتباط أو وعد أو اتفاق محدد المعالم . وهذه كانت سياسة — كما كان يقول لورد — جراى — يمـكن التخلص منها فى أى لحظة(١) . ومع ذلك فهذه العلاقة كثيراً ما كانت تثير الرأى العام الفرنسى ولا سيما فى أوقات الاحتكاك بين البلدين فتتكلم الصحافة الفرنسية عن الحلف الثلاثى ناعته إياه بالحلف الرباعى(٢) .

وفى عام ١٨٩٦ تنهار هذه العلاقة بين إنجلترا ودول الوسط ، وهى علاقة كما رأينا قد نمت وقويت بعناية منذ عام ١٨٨٧ ، وتحل محلها هذه السياسة المشهورة عن البريطانيين : العزلة الرائعة splendid Isolation ودواعى هذا التغيير معقدة فى الغالب بعكس ما تبدو به لأول وهلة . . . هناك ما يتعلق بالوزارة البريطانية فالمعارضة بالنسبة لآراء سولسبرى صارت أقوى كثيراً بعد عام ١٨٩٥ . بالإضافة إلى ذلك فقد حدث تغيير فى التفـكير بشكل عام وبدأ هناك واضح فى لندن بتصدع الحلف الثلاثى . فى نفس الوقت ، صارت برلين مقتنعة — بمجىء عام ١٨٩٦ — بأن المفاوضات مع إنجلترا كانت بمثابة مضيعة للوقت . كذلك كان لاتباع ألمانيا لسياستها الاستعمارية Kolonialpolotik أثره فى إبعاد المسئولين والرأى العام فى بريطانيا عن ألمانيا(٣) . وكان ذلك فى الواقع يعنى انهيار اتفاقات البحر المتوسط .

وفيما عدا اتفاقات البحر المتوسط هذه ، بقيت بريطانيا بوجه عام بعيدة عن

---

(١) Grey, Twenty-Five Years vol .I.P.47.

(٢) Ibid. pp. 47-48.

(٣) انظر Lowe, pp. 91 - 94.

المحالفات الأوروبية . وقد ارتفعت أصوات فى بريطانيا فى عام ١٨٩٨ تنادى بنبذ سياسة العزلة هذه(١) .

ولكن عقد بريطانيا لاتفاقيتها مع فرنسا (٢١ مارس ١٨٩٩) كانت نظرًا لسياسة « العزلة » بالنسبة لبريطانيا(٢) . فالانجليز قد اطمأنوا — بعقد هذه الاتفاقية على مركزهم فى مصر ، ولم تعد بريطانيا ، ومن جهة النظر العسكرية ، فى حاجة إلى تعضيد الدول الأخرى لها فى مصر . وبهذا انهت فاشودة فى الواقع ما تبقى من وفاق البحر المتوسط .

---

(١) Eubauk Keith Paul Cambon — Master Diplomatist, p. 64.

(٢) Taylor, p. 382.

ثبت الاعلام

أدسلى Iddesleigh وزير الخارجية الانجليزية في وزارة سولسبري الثانية. خلفه سولسبرى فى وزارة الخارجية فى يناير ١٨٨٧ .

بسمرك Bismarck مستشار الرايخ الألماني « ١٨٧١ — ١٨٩٠ » .

بولانجيه Boulanger, Georges–Ernest وزير الحرب في وزارتي فريسينيه وجوبليه « يناير ١٨٨٦ — مايو ١٨٨٧ » .

بيكونزفيلد (Benjamin Disraeli) Beaconsfield الرئيس الفعلى للوزارة البريطانية « ١٨٥٢ » . رئيس الوزراء « ١٨٧٤ — ١٨٨٠ » « حصل على لقب كونت بيكونزفيلد عام ١٨٧٦ » .

تشرشل Randolph Churchil وزير مالية بريطانيا فى وزارة سولسبرى الثانية « تكونت فى أغسطس ١٨٨٦ » . إستقال فى يناير ١٨٨٧ .

تورنيللى Tornielli . السفير الإيطالى فى لندن .

تيلور Taylor, P.O.J. مؤرخ بريطانى معاصر .. عمل محاضراً فى الجامعات البريطانية . بكتب للصحافة واشتغل معلقا على الاحداث بالإذاعة البريطانية . له مجموعة من الأعمال الجيدة فى التاريخ الدولى .

روبرت موريه Robert Morier سفير بريطانيا فى بطرسبرج .

روبيلان Robilant, Generaldi . وزير خارجية إيطاليا « أكتوبر ١٨٨٥ — ابريل ١٨٨٧ » .

سولسبرى Salisbury رئيس وزارة بريطانيا ١٨٨٥ — ١٨٨٦ ، ١٨٨٦ — ١٨٩٢ ، ١٨٩٥ — ١٩٠٢ .

فرديناند Ferdinand of Coburg أمير بلغاريا المنتخب « ١٨٨٧ » .

فرى Ferry, Jules رئيس الوزارة الفرنسية ١٨٨٠—١٨٨١، ١٨٨٣ — ١٨٨٥ . كذلك تولى الخارجية منذ ١٨٨٣ .

فلوران Flourins وزير الخارجية الفرنسية ١٨٨٧ — ١٨٨٨

كالنوكى Kalnoky, Gustave وزير خارجية النمسا والمجر « ١٨٨١ — ١٨٩٥ »

كرسبي Francesco Crispi رئيس الوزارة الإيطالية « يوليو ١٨٨٧ — يناير ١٨٩١ »

كورتى Corti السفير الإيطالى فى لندن

لافولاى Lavoulay السفير الفرنسى فى بطرسبرج .

لاو Lowe, Cederic Jq : es محاضر فى التاريخ الدولى فى جامعة لندن (L. S. E.)

لوملى Lumley السفير البريطانى فى روما .

لوناى Launay السفير الإيطالى فى برلين .

ليارد Layard السفير البريطانى فى القسطنطينية .

ليونز Lyons السفير البريطانى فى باريس .

مارشال Marschall وزير خارجية ألمانيا « ١٨٩١ — ١٨٩٧ »

مالت Malet السفير البريطانى فى برلين .

مانشينى Mancini وزير خارجية إيطاليا « ١٨٨١ — ١٨٨٥ »

هاتزفلد Hatzfeldt السفير الألمانى فى لندن .

هربيت Herbette السفير الفرنسى فى برلين .

هوايت William white السفير البريطانى فى القسطنطينية .

وادنجتون Waddington السفير الفرنسى فى لندن .

مراجع البحث

أولا : باللغات الأوربية

- Bruce, Maurice, the Shapinc of t9e Modern, vol. I. London L959.
- CRISPI, ERANCESCO, " Politica Estera" (187—1890)"
  " Questioni Internationali " Traduction Fr. dê Grandcha : p. Tunis 1913,
- Documents diplomatiouEs Francais, 1 ere. S.m T. VI.
- ENSOR X.C.K., Englaud 1870—1914. Oxford 1949.
- EUBANK, REITH. Paul Cambon-Master Diplo-matistt, Oklahoma, 1960.
- GERMAN DIPLOMATIC DOCUMENTS, 1871-1914, Vol II, selected and tranlated by E.T.S. Dugdale, London 1929,
- GREY OF FALLODON Twenty Five Years, Vol. I. London 1935.
- Herwfeld, HANS, Die Moberne Welt, I. Teil, 1957.
- LOZE. C.J.M Salisbury and The Mediterranean 1886-1896, London, 1940.
- MARDER, British Naval Policy 1880-1905, Mass. U.S.A. 1940.
- MedlicOTT, W.N., The congress Of Berlin And After (1878-1880) 1938.
- TAYLOR, A. J. P., The struggle For Mastery In Europe (1848-1914) Oxford 1954.
- WILSON, Beckles, L'A : bassade d'Augleterre A Paris (1814-1920), Paris 1929.

ثانيا : باللغة العربية :

ـ حسنى صبحى : التنافس الاستعمارى الأوربى فى المغرب (٨٨٤— ١٩٠٤)
دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٦٥ .

ـ محمد مصطفى صفوت : الاحتـــلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه .
القاهرة ١٩٥٢ .

ـ محمد مصطفى صفوت : إنجلترا وقناة السويس (٨٥٤—١٩٥٦) .

حزب الفلاح الاشتراكي (*)

١٩٣٨ — ١٩٥٢

بقلم . دكتور رؤوف عباس حامد

كلية الآداب — جامعة القاهرة

لعل أبرز سمات تميزت به الحياة الحزبية في مصر — منذ اعلان دستور ١٩٢٣ حتى أواخر الثلاثينات — ظهور أحزاب سياسية مختلفة أدت إلى تفتت وحدة البلاد السياسية وهبوط العمل الوطني من مستوى النضال الثوري الذي بلغ ذروته في ثورة ١٩١٩ إلى محاولة الوصول الى تحديد العلاقات بين مصر وانجلترا — عن طريق المفاوضات — يحقق للبلاد مضمونا استقلاليا يدعم ذلك الاستقلال الشكلي الذى حصلت عليه البلاد في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ كما شغلت تلك الاحزاب السياسية بمشكلة النضال الدستوري وتباينت مواقعها بين مناصر لطغيان القصر حينا ومناوىء له حينا آخر وإنشغالها عن تحقيق الاهداف الوطنية بالصراع على الحكم وأدى هذا الصراع الى أنصرافها عن وضع برامج اصلاحية تعالج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن سوء توزيع الثروة وعلو شأن الاحتكارات الرأسمالية في البلاد فلم تهتم بايجاد حلول جذرية لمشاكل الطبقة الكادحة من الفلاحين والعمال

(*) يدين هذا البحث بالفضل للاستاذ أحمد كامل قطب المحامي الذى تفضل مشكورا فأذن لى بالاطلاع على وثائق وأوراق حزب الفلاح الاشتراكي وهى عبارة عن بعض السجلات الخاصة بمركز الحزب بالقاهرة وملفات الفروع والشعب واستطعت أن استخرج من تلك الوثائق والأوراق مادة البحث .. كما أتاح لى سيادته الجلوس إليه جلسات طويلة لمحاولة الوقوف على ما كان غامضا بالنسبة لى من بين الأوراق والوثائق فالى سيادته أتقدم بالشكر والعرفان .

وهو أمر طبيعى اذا علمنا أن ألوية قيادة تلك الاحزاب كانت معقودة للبرجوازية الوطنية .

ولقد أدى إقفال الاهتمام بمشاكل الطبقة الكادحة الى قيام محاولات لتأسيس هيئات سياسية تضمنت برامجها أسسا لحل هذة المشاكل ويأتى فى مقدمة هذه الهيئات « الحزب الاشتراكى » الذى تأسس فى العشرينات الاولى من هذا القرن وتضمن برنامجه تصورا لحل هذه المشاكل ازداد وضوحا فى البرنامج الذى أعلنه الحزب بعد تحويله الى حزب شيوعى ولكنه أتاح للبرجوازية الوطنية فرصة تصفيته بتغليبه قضية الصراع الطبقى على قضية التحرر الوطنى مما نفر الجماهير منه وعجل باصطدامه بالوفد الذى كان يتولى قيادة الجماهير (١) .

وفى أواخر العشرينات ظهرت محاولة لتأسيس حزب للفلاح فقد دعا اسماعيل مظهر — صاحب مجلة العصور — مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى إلى تأسيس حزب الفلاح المصرى ونشر فكرة المشروع على صفحات مجلته (٢) على شكل مذكرة مطوله تحدث فيها عن مبررات قيام حزب الفلاح وضمنها مشروع برنامج الحزب واقترح أن يتولى الوفد تأسيس هذا الحزب فتكون رئاسته الدائمة لرئيس الوفد المصرى وأن يتولى صاحب الاقتراح سكرتاريته العامة مدى الحياة وأن تؤسس جريدة باسم (الفلاح) تنطق بلسان الحزب ، ويبدو أن الفكرة لم ترق للوفد فلم يعرها التفاتا لأننا لم نعثر على ذكر للمشروع بعد ذلك ولم يسفر عن تأسيس حزب للفلاح وهو أمر طبيعى فقد كان الوفد — كدأبه —

---

(١) محمد أنيس : ثورة ١٩١٩ وحزب العمال البريطانى مجلة الهلال أكتوبر ١٩٦٤ ، ص ٢٢ — ٢٥ .

(٢) العصور ، مجلة شهرية ، أكتوبر ١٩٢٩ .

لا يقبل السماح بقيام حزب سياسى غيرة كما كان يصرف جهودة للقضية الوطنية ولم يلق بالا إلى المشاكل الاجتماعية الاقتصادية الاما كان منها ملحاً فيسعى حينئذ الى محاولة تخفيف حدتها دون أن يحاول استئصال شأفتها .

وشهدت الثلاثينات الأولى محاولة لتأسيس حزب للعمال ولكنها كانت مناورة سياسية رمى من ورائها النبيل عباس حليم — مؤسس الحزب — إلى خلق ثقل سياسى يستند إليه فى تحقيق أطماعه السياسية ورغم أن برنامج هذا الحزب تضمن تصوراً لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية غير أنه لم تتوفر لديه نية بذل جهود عملية فى هذا الصدد إذ سرعان ما أوقف الحزب نشاطه بعد ستة أسابيع من تأسيسه حين حقق مؤسسه هدفه بالوصول إلى تفاهم مع قيادة الوفد(١) .

ولكن حركة حزب الفلاح الاشتراكى التى بدأت فى أواخر عام ١٩٣٨ كانت أكثر استمرار وسندرس فيما يلى ظروف قيام هذا الحزب وتطوره التنظيمى ودوره فى الحركة الوطنية وصولا إلى تقييم لتلك التجربة من شتى جوانبها.

* * *

وترجع أصول هذا الحزب إلى موجة الإعجاب التى شملت فريقاً من الشباب المصرى — وخاصة طلبة الجامعة — بالجانب البراق من المبادىء الفاشية والنازية من حيث كونها دعوة للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ومن ثم شهد مطلع الثلاثينات اتجاه بعض الشباب إلى الاشتغال بحركة الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى وهيأت لهم الظروف السياسية فرصة تحقيق بعض النجاح فى هذا الصدد . فقد أقدمت حكومة إسماعيل صدقى «١٩٣٠» على إلغاء دستور ١٩١٣ وإعلان دستور وقانون انتخاب

---

(١) انظر : رءوف عباس الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ — ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٨ .

جديدين ينقصان من الحقوق السياسية للأمة . وتبع ذلك دخول الأحزاب في صراع مرير مع حكومة صدقى من أجل الدستور وانصرافها عن القضية الوطنية وعن حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي ازداد تفاقمها نتيجة للأزمة الاقتصادية العنيفة التي عانت منها مصر وغيرها من دول العالم في تلك الحقبة مما دفع بعض الشباب إلى فقدان الثقة بالأحزاب السياسية والانصراف إلى الاشتغال بالإصلاح الاجتماعى وشجعتهم الحكومة على ذلك لتصرفهم عن تأييد الوفد الذى كان يتزعم المعارضة .

ومن ثم كان تأسيس أولئك الشباب لجمعيتى « مشروع القرش » و « جمعية الطلبة لنشر الثقافة » فبينما رأى أعضاء الجمعية الأولى أن علة تأخر مصر تمكن في تخلفها عن الأخذ بالصناعة ومن ثم طفقوا يجمعون التبرعات من مواطنيهم لإقامة مشاريع صناعية تتيح للبلاد فرصة الاستغناء عن البضائع الأجنبية كخطوة أولى في سبيل التخلص من السيطرة الأجنبية(١) وجد أشياع الجمعية الثانية أن علة تأخر البلاد عن ركب التقدم تكمن في سيطرة الأمية والجهل على الفلاحين الذين كانوا يمثلون غالبية الأمة ، ومن ثم رأوا أن يأخذوا بناصر مواطنيهم الفلاحين بالعمل على محاربة الجهل بين صفوفهم . وقد قدر لهؤلاء الشباب أن يطوروا أفكارهم وأساليب عملهم بالصورة التي أدت في النهاية إلى تأسيس حزب الفلاح .

لقد قام لفيف من طلبة الجامعة والمدارس العليا بتأسيس « جمعية الطلبة لنشر الثقافة » في مطلع عام ١٩٣٣ لتوجيه جهود الشباب إلى نشر الثقافة بين جميع طبقات الأمة عن طريق إلقاء المحاضرات والمناظرات في الأندية والجمعيات العامة وتنظيم

---

(١) أسس هذه الجمعية بعض طلبة الجامعة والمدارس العليا برئاسة أحمد حسين وقامت بجمع تبرعات أنشىء بها مصنع الطرابيش وبارك اسماعيل صدقى باشا الحركة عند قيامها وتحولت بعد ذلك إلى جمعية حزب مصر الفتاة (انظر : أحمد حسين أزهار قصة مصر في الثلاثينات دار القلم القاهرة ١٩٦٢ — وهي تتضمن مذكرات أحمد حسين عن تلك الحقبة) .

الرحلات واستغلال العطلة الصيفية في العمل على محو الأمية بين صفوف الفلاحين في الريف وذلك بإقامة لجان في القرى وفي الأحياء الشعبية المدن تضم الطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم القراءة والكتابة لمواطنيهم كما يلقون عليهم محاضرات ذات أسلوب مبسط عن الصحة وطرق الوقاية من الأمراض وأساليب الحياة المثلى الاقتصادية والاجتماعية منها حيث إرشادهم إلى الوسائل الحديثة للزراعة وما يتعلق بها من جمعيات تعاونية وطريقة تنظيم منازلهم وحياتهم اليومية كذلك إلقاء دروس في تاريخ مصر وحضارتها القديمة لاطلاع الفلاحين على عظمة مصر ومجدها الغابر وكان شعار هذه الجمعية أن من هدم ركناً واحداً من أركان الجهالة فقد شيد ركناً متيناً من أركان الوطن (١) .

ووضعت الجمعية قانوناً أساسيا نصت فيه على أنهـا لا تتعرض للمسائل السياسية أو الدينية وأن غرضها ثقافي علمي بحت كما وضعت لنفسها إطارا تنظيميا في شكل لجنة تنفيذية تكونت من طلبة الجامعة المصرية والمدارس العليا بحيث يمثل كل كلية أو مدرسة عضوان (وانتخب أحمد كامل قطب (الطالب) بكلية الحقوق رئيسا للجنة وأحمد فؤاد عمرو (كلية الحقوق) وكيلا ولطفي حماد الحسيني (كلية العلوم) سكرتيرا ومحمد عبد النبي صادق (مدرسة التجارة العليا) أمينا للصندوق . كما كانت هناك لجان فرعية في الكليات والمدارس المختلفة وفي القرى التي ينتمي إليها الطلاب وأسندت الرئاسة الشرفية للجمعية إلى الدكتور علي باشا إبراهيم الذي كان — في ذلك الحين — مديرا للجامعة المصرية بالنيابة (٢) .

---

(١) الامام : صحيفة نصف أسبوعية يصدرها أحمد زكي أبو شادي عدد خاص عن جمعية الطلبة لنشر الثقافة ٨/١/١٩٣٢ .

(٢) المرجع السابق : نفس العدد

وبدأت الجمعية عملها فى « مشروع القرى » اعتبارا من صيف عام ۱۹۳۳ فى حوالى أربعمائة قرية عن طريق التطوعين من الشباب المتعلمين — من الطلبة وغيرهم — كل فى قريته فيقومون بجمع الفلاحين ممن تجاوزوا سن الالتزام ويختص كل متطوع بعشرة من الفلاحين يعلمهم القراءة والكتابة والحساب وفق طريقة معينة ابتكرها محمد مظهر سعيد ويلقى عليهم محاضرات فى الصحة العامة والزراعة وغيرها من الأمور التى تمس صميم الحياة فى الريف وكان مركز الجمعية فى القاهرة على اتصال دائم بلجان القرى يمدها بالنشرات الخاصة فى الدروس وطرق تدريسها ، وقد اشترك فى تحرير تلك الدروس لفيف من المتخصصين أمثال محمد فريد وجدى والشيخ عبد الوهاب النجار وعبد الله أمين وإبراهيم رمزى وخليل مطران وبطرس باسيلى وغيرهم(١)

وفى العام التالى (١٩٣٤) تحول المشروع إلى جمعية باسم « جمعية نهضة القرى » تكون لها مجلس إدارة جديد من بعض الشخصيات التى أبدت تأييدها للمشروع بالاشتراك فى تحرير حلقات الدروس التى تضمنتها نشراته المطبوعة وتولى رئاسة المجلس الجديد الدكتور على باشا إبراهيم وبقيت رئاسة اللجنة التنفيذية لأحمد كامل قطب .

وقد اتسع نشاط الجمعية حتى بلغ عدد القرى التى شملها ذلك النشاط نحو ألف قرية فى عام ١٩٣٦ وتعاونت الحكومة مع الجمعية فرخصت لها باستخدام المدارس الزراعية الحكومية فى مختلف أنحاء القطر وخصصت لها إعانة سنوية . وقام الكثير من نظار المدارس والمعلمين والموظفين بتنظيم اللجان فى المديريات والشعب فى القرى واهتم العمد والأعيان بالمشروع فوضعوا اللجان القروية تحت رعايتهم وتولوا رئاستها وتبرعوا لها بالمال وأخلوا لها غرفا خاصة من دورهم وتكفلوا بمصاريف الإنارة

---

(١) جهاد العام الخامس : بيان مطبوع عن تطوير جمعية نهضة القرى : ١٩٣٨/٥/٦ .

وتقديم الأدوات الكتابية اللازمة بل أفرد بعضهم دار خاصة للجمعية فى قريته . كما وضعت وزارتى الزراعة والصحة مطبوعاتهما ونشراتهما تحت تصرف الجمعية وبارك الشيخ محمد المراغى شيخ الجامع الأزهر نشاطها وسمح لها بنشر دعايتها للتطوع بين طلبة كليات الأزهر ومعاهده وطلب قسم تفتيش المساجد بوزارة الأوقاف إلى الوعاظ والخطباء فى المساجد أن يدعوا الناس إلى تعضيد المشروع والانضمام إليه(١) .

ونميل إلى تفسير هذا التأييد الرسمى الذى حظيت به جمعية نهضة القرى بحرص الحكومة على أن تنأى بالشباب عن المشاركة فى المعارضة السياسية التى كان يقودها الوفد فى مواجهة حكومات الانقلاب الدستورى التى يرأسها إسماعيل صدقى ثم عبد الفتاح يحيى .

ومهما كان الأمر فقد راع الشباب من أعضاء اللجنة التنفيذية للجمعية — أثناء طوافهم بالقرى — ما بلغته أحوال الفلاحين من السوء نتيجة سوء توزيع الملكية الزراعية وغياب المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية التى تهتم بأمور الفلاحين هذا بالإضافة إلى ما عاناه الفلاح بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية التى تركت آثار بالغة على اقتصاديات مصر عامة وزادت من بؤس الفلاح المصرى خاصة . لذلك فكروا فى إقامة حزب للفلاح يطرح برنامج اجتماعى اقتصادى لحل هذه المشاكل محاولا حشد الفلاحين وراءه لتأييد خطته .

وقد تم ذلك على مرحلتين فقد كون هؤلاء من أنفسهم هيئة فى خريف ١٩٣٨ — أطلقوا عليها اسم « جماعة الفلاح » ثم حولوها إلى « حزب الفلاح الاجتماعى . والاقتصادى » فى الثانى من ديسمبر ١٩٣٨ حيث احتفلوا بافتتاح دار الحزب بميدان

(١) نفس المصدر .

الملكة فريدة «العتبة الخضراء »(١) وأدوا قسم الولاء للحزب، ثم توجهوا بالسيارات لزيارة ضريحي الملك فؤاد وسعد زغلول(٢)، وهي عادة حرص عليها الحزب في كل احتفال من احتفالاته فيما بعد. فكان الحزب شديد الولاء للملك بقدر ما كان حريصاً على كسب رضاء قيادة الوفد..

ولما كان مؤسسوا الحزب ليسوا من الفلاحين وإنما كانوا ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة فقد أخذوا يجمعون التوكيلات من الفلاحين بالقرى واستعانوا في ذلك ببعض أعضاء لجان جمعية نهضة القرى التى كانت منتشرة في الريف. وكانت هذه التوكيلات ينص فيها(٣) على أن الموقعين عليها قد فوضوا عنهم هيئة حزب الفلاح في القيام بالدفاع عن مصالحهم المسلمة، والمطالبة بجميع حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والدفاع عنها أمام أولى الأمر وجميع الهيئات والجهات بكافة أنواعها وفق برنامج الحزب ». وبذلك سعى أعضاء الهيئة التأسيسية للحزب(٤) — من الناحية الشكلية — إلى اكتساب الوكالة الشرعية عن الفلاحين.

وفي ٢٦ من ديسمبر ١٩٣٨، أعلن الحزب برنامجه(٥) الذى صدره ببيان لشرح

---

(١) كانت دار الحزب هي مقر مكتب أحمد كامل قطب المحامي.

(٢) وثائق الحزب ملف الاحتفال بمرور سبع سنوات على تأسيس الحزب خطبة أحمد كامل قطب ٨/١٢/١٩٤٥.

(٣) المصدر السابق ملفات الفروع النص الرسمي المطبوع للتوكيل.

(٤) كانت تتكون من ١٢ محاميا (أحمد كامل قطب، محمد عبد المنعم عفيفي، ومحمود حسين، محمد فهمي غنيم، وعبد المجيد أبو العز، وأحمد فؤاد عمرو، وأحمد جعفر، وسيد عبد الواحد ومصطفى المنزلاوي، وحنفي عبوده، ومحمد على إمام، وواصف رزق الله) بالإضافة إلى مدرسين (محمد صالح سمك ولمعى توفيق) ووكيل نيابة (عبد الفتاح عمران) وموظف بالصحة (محمد حامد) وطبيب (د. نور الدين يوسف).

(٥) نعتمد هنا على النص المطبوع للبرنامج ويقع في ١١ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على البيان ونظام الحزب وبرنامجه.

الظروف التى أدت إلى قيام الحزب فأشار البيان إلى ماعم العمل السياسى من حزازات وتباغض بين الأحزاب وكيف أدى ذلك إلى تفرقة الصفوف وإهمال « مصالح البلاد الاجتماعية والاقتصادية فأصيبت جماعات بالظلم والعـذاب « كالفلاح والعامل » ثم أشاد بالملك فاروق الشاب الذى اعتبر توليه العرش شرفا للشباب وتأكيداً لأهليـة الشباب لقيادة الحركات القومية الـكبرى . وأنه يجب على الهيئات القوميـة فى مصر أن تتجه إلى علاج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية من أجل تحقيق تقدم البلاد وخاصة بعد عقد المعاهدة المصرية البريطانية ١٩٣٦ فتبتعد عن المنازعات السياسية وأجتنابها والاتجاه « نحو إيجاد هيئة جديدة تعمل شيئا إيجابيا جديدا من أجل هذا الفلاح الذى لم يجد فى الماضى هيئة خاصة منظمة تتولى الدفاع عن مصالحه ومطالبـه » . وانتقل البيان إلى وصف خطورة مركز الفلاح فى المجتمع باعتباره يمثل أغلبية الأمة فنى إصلاح حاله إصـلاح لشأن الأمة جمعاء لذلك تأسس « حزب الفـلاح ليعمل اجتماعيا واقتصاديا فى سبيل الفلاح وليطالب وينادى بحقوق الفلاح ومطالبه فى كل مكان وليرفع صوت الفلاح أمام جميع الهيئات « لذلك كانت غاية الحزب أن يوجه الفلاح والشعب الريفى توجيها اجتماعيا واقتصاديا وأن يوجـد شعبا ريفيا يقظا . . « ثم أشاد بمجهود المتطوعين بجمعية نهضة القرى من أجل الفلاح واختتم البيان دعوة الشباب والفلاحين إلى تدعيم (جهاد) الحزب .

وينقسم برنامج الحزب إلى قسمين : « أولهما » البرنامج الاجتماعى « وثانيهما » : « البرنامج الاقتصادى » . وقد نص القسم الأول على أن الحزب يهدف إلى « تكوين رأى عام ريفى ودخول الانتخابات العامة للبرلمان لانتخاب ممثلين للفلاحين يدافعون عن مصالحه وينادون بمطالبه وحقوقه وإصدار جريدة لهذا الغرض « كما أنه يحترم الدين ويقدس العقيـــدة الوطنية ويعول على « بعث روح الاعتزاز بالنفس وبالهيئة الريفية » وعلى محاربة الأمية بين الفلاحين والنهوض بمستواهم الاجتماعى » ومحاربة

المخدرات والبدع والخرافات والجهالة » . كذلك يعمل على تنظيم القرية إداريا بمجلس القرية على أساس الانتخابات وتوسيع اختصاصات مجالس المديريات والمجالس المحلية والقروية ومحاربة الإجرام والقضاء على الحزازات والخصومات بين العائلات ومحاربة فكرة الأخذ بالثأر وبالإضافة إلى ذلك فإن الحزب يهتم بتجميل الريف المصرى وتنظيم مساكن الفلاحين وتوفير مياه الشرب الصحية لهم والقضاء على الحزازات والخصومات بين العائلات ومحاربة فكرة الأخذ بالثأر وبالإضافة إلى ذلك فإن الحزب يهتم بتجميل الريف المصرى وتنظيم مساكن الفلاحين وتوفيرمياه الشرب الصحيه لهم والقضاء على الأمراض المنتشرة بينهم بنشر الوعى الصحى وتعميم المستشفيات القروية والمركزية وإيجاد طبيب بكل قرية ويعمل على نشر الثقافة بين أوساط الفلاحين عن طريق الإذاعة ومحاربة هجر الملاك وصغار الفلاحين للقرى والدفاع عن مطالب الفلاح وشكاياته وحاجياته وتبليغها للحكومة والبرلمان والجهات المختصة وتولى الدفاع عنها أمامها واقتراح سن القوانين على الهيئة التشريعية التي يكون فيها حماية مصالح الفلاح وحقوقه » .

أما القسم الثانى (الاقتصادى) فقد استهل بالنص على أن الحزب يعمل على «رفع الفقر والجوع والبؤس عن كاهل الفلاح وأسرته ومحاربة البطالة بين الفلاحين » وذلك عن طريق الوصول إلى تحديد العلاقات الانتاجية فى شكل قانون للايجارات والأجور « يقضى بتحديد إيجارات الأطيان بما يتفق مع قيمة الإنتاج وتحديد حد أدنى لأجور المزارعين بما يتناسب مع مصلحة الفلاح ورفع مستواه ولا يتعارض مع مصلحة الملاك » وكذلك تعويض الفلاحين عن إصابات العمل ومكافأتهم وتحديد ساعات العمل وأيام الراحة ووضع نظام لفض المنازعات بينهم وبين أصحاب الأملاك وتعميم وسائل التأمين الاجتماعى والاقتصادى لديهم .

كما نص على أن الحزب يعمل على النهوض بالمستوى الاقتصادى للفلاح عن طريق»

تخفيف عبء الضرائب عن كاهله وتنظيم جبايتهـا . . . وحماية أسعار الحاصلات الزراعية من الهبوط (كالقطن والحبوب) بما يحقق الرخاء مع حماية المستهلك من الارتفاع المتطرف فى الأسعـار ومحاربة الآفات الزراعية بأحـدث الأساليب وترقية الصناعات القروية الزراعية المحليـة وإقامة مصنـع قروى بكل قرية والاعتماد على المنتجات القروية دون الأجنبية المماثلة لها . . وتوسيع نطاق حماية الملـكيات الصغيرة ونطاق التسليف الزراعى وتبسيط إجراءاته . وتعميم أنشاء الطرق الزراعية وتنظيمها وإقامة الـكبارى والجسور اللازمة للقرى الريفية والمطالبة بتنظيم الرى والصرف بما يكفل عدم شكاية الفلاحين وتعميم إنشاء الجمعيات التعاونية فى القرى وتنظيمها بمـا يكفل تحقيق أغراضها وتنظيم الاسواق الريفية ومعاونة الفلاح على تصيف محصوله وقضاء حاجياته وإنقاذه من الديون العقارية وتخفيض سعر الفائدة ومحاربة المرابين فى القرى والعمل على زيادة الانتاج الاهلى بما يتناسب مع أطراد زيادة عدد السكان واستغلال الاراضى البور وتوزيعها على صغار الفلاحين .

ونلاحظ أن برنامج الحزب قد خلا من الاشارة إلى المشكلة الخطيرة التى كانت سببا فى تدهور أحـوال الفلاحين الاجتماعية والاقتصادية ونعنى بهـا سوء توزيـع الملـكية الزراعية فأغفل التعرض لها إغفالا تاما فرغم نصه على أنه يهدف إلى الوصول إلى تحديد للعلاقات الإنتاجية بين الفلاحين والملاك يتناول الإيجارات والأجور وساعات العمل والتعويض فى حالة الإصابة والتأمين الاجتماعى والاقتصادى لم يعن بتحديد موقفه من الملـكيات الـكبيرة بل حرص على تأكيد أن تحديد العلاقات الإنتاجية الذى يرمى اليه يجب أن « يتناسب مع مصلحة الفلاح ورفع مستواه » ولا يتعارض مع مصلحة المالك « بمعنى الوصول إلى حل وسط لمشاكل القائمة بين الطرفين دون أن يؤدى ذلك الى الإضرار المادى بالمالك وهو أمر يصعب تحقيقه .

وثمة ملاحظة أخرى فان الحزب لم ينص فى برنامجه على أنه يعمل على تنظيم

الفلاحين المعدمين فى أى شكل من أشكال التنظيم السياسى لتحقيق هذا البرنامج بل أ كتفى بالنص على أنه يهدف إلى « تكوين رأى عام ريفى » أى أنه حدد مهمته فى إطار توعية الفلاحين والدفاع عن مطالبهم التى قدم تصورا لها فى قسمى البرنامج ونص على أنه يعمل على تحقيقها » بكل الوسائل القانونية المشروعة فى حدود الدستور المصرى » (مادة — ٥ —) فحدد بذلك شكل الحزب ومضمونه فى تلك المرحله كحركة إصلاح ليبرالية تعمل على علاج مشاكل الريف الاجتماعية والاقتصادية فى أطار النظام القائم دون أن تسعى لإيجاد تغيير جوهرى فى العلاقات الانتاجية القائمة فى ظله .

وقد حدد القانون الأساسى الهيئات التى يتكون منها الحزب (المواد من ٦ إلى ٣٠) وهى:

ا — مجلس الإدارة : ويتكون من خمسة عشر عضوا من بينهم رئيس الحزب واشترط فى العضو أن يكون على درجة من الثقافة تؤهله للقيام بمهمته .

ب — مجلس استشارى: يؤلف من مستشارين يختارهم مجلس الإدارة ويتجدد اختيارهم سنويا بواسطة الاقتراع السرى على أن يراعى فى اختيارهم تمثيل النواحى الفنية — المختلفة التى تصل بنشاط الحزب .

ج — هيئة الأنصار: ويشترط فى العضو أن يكون قد بلغ درجة مناسبة من الثقافة العامة أو يكون من ذوى الأملاك . وقد كان الغرض من هذه الهيئة توفير الدعم المادى والمعنوى للحزب .

د — المجاهدون : وهم الذين يعملون على نشر رسالة الحزب فى الريف ويعملون على تحقيق أغراضه ويشترط فى المجاهد أن يكون . ذا ثقافة مناسبة ولا تقل سنة عن ثمانية عشر عاماً .

هـ — الفلاحون : ويشترط أن يقدم الفلاح طلباً للاشتراك فى الحزب وتفويضه للدفاع عن مصالحه والمطالبة بحقوقه ولا يدفع اشتراكا ما .

ويتضح من استعراض هيئات الحزب المختلفة أن نشاطه كان قائماً على أكتاف المثقفين وحدهم فهم يكونون معظم هيئاته وخاصة هيئة المجاهدين التى كان يقع على كاهل أعضائها مهمة التحرك بين الفلاحين فى الريف للتعرف على مشاكلهم ونقلها إلى قيادة الحزب فتتولى الأخيرة تبنيها والدفاع عنها أما الفلاحين فكان دورهم سلبياً كما حدده القانون الأساسى — يقف عند حدود تفويض الحزب الدفاع عن مصالحهم والمناداة بمطالبهم ونص القانون الأساسى كذلك على أن الحزب « يؤلف فى كل مديريه اتحاداً للحزب باسم المديرية يتكون من خمسة أنصار على الأقل » ويؤلف فى كل مركز فرع يتكون من خمسة من الأنصار أو المجاهدين على الأقل كما يؤلف فى القرى شعب تتكون كل منها من ثلاثة من المجاهدين على الأقل . وقد بلغ عدد شعب الحزب فى عام ١٩٣٩ خمس عشرة شعبة فى مديريات أسيوط والجيزة والقليوبية والمنوفية والدقهلية وبلغ عدد أعضاؤها ٤٨١ عضـواً كان معظمهم من الطلبة وصغار الموظفين وبعض متوسطى الملاك والمحامين (١) .

أما عن مالية الحزب فكانت تتكون من اشتراكات الأعضاء من الأنصار والمجاهدين ومن التبرعات والاكتتابات التى يمنحها البعض للحزب وقد ظلت موارد الحزب المالية محدودة .

وكانت أول خطوة بادر الحزب إلى اتخاذها هى تأسيس معهد لإعداد الكوادر من الشباب الذين يوكل إليهم أمر نشر رسالة الحزب فى الريف وحمل هذا المعهد اسم « معهد الدراسات الريفية » ونص قانونه الأساسى على أن أعضاءه يقومون

---

(١) وثائق الحزب : سجل المجاهدين والفلاحين : ١٩٣٩

« بأبحاث اجتماعية واقتصادية ريفية وبرحلات علمية ريفية فى الداخل والخارج ويقومون بوضع رسائل خاصة فى شئون الفلاح والقرى » واشترط فيمن يلتحق بهذا المعهد أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية على الأقل وكانت المواد التى تدرس بالمعهد تنقسم إلى شعبتين الأولى شعبة الدراسات الاجتماعية والثانية شعبة الدراسات الاقتصادية . ومدة الدراسة بالمعهد سنة واحدة يخصص كل طالب خلالها فى مادة معينة بصفة رئيسية ويدرس معها مادتين آخرين بصفة اختيارية ويقوم بإعداد بحوث ومحاضرات فى المواد التى تخصص فيها ويقدم رسالة فى المادة الرئيسية التى تخصص فيها .

وبدأت الدراسة بالمعهد فى ٢٤ أكتوبر ١٩٣٩ وخصص يوم السبت من كل أسبوع للمحاضرات العامة التى تتعرض لمشاكل الفلاح الاقتصادية والاجتماعية وكان يسمح للجمهور من غير طلبة المعهد بحضور تلك المحاضرات والاشتراك فى المناقشات. وتولى محمد عبد المنعم عفيفى المحامى — سكرتير الحزب — إدارة المعهد(١) ولكن هذه التجربة لم يقدر لها الاستمرار لعدم توافر الإمكانيات المادية لدى الحزب فقد كان المحاضرون متطوعين لا يتقاضون أجراً على عملهم ولذلك لم يقبل الأساتذة المتخصصون على العمل بالمعهد وحمل هذا العبء بعض أعضاء مجلس إدارة الحزب وقد أدت هذه الصعوبات المادية إلى توقف نشاط المعهد بعد قليل .

كما أصدر الحزب جريدة نصف شهرية تنطق بلسانه فقد اتفق قادته مع محمود حمدى الجريسى صاحب جريدة (النضال) على أن يتولى الحزب إصدار جريدته اعتباراً من ١٨ فبراير ١٩٣٩ واستمرت على ذلك الحال حتى عدد ١٦ يونيو ١٩٣٩ ثم أعلن صاحب الجريدة فى العدد التالى أن جريدته أصبحت لا علاقة لها

---

(١) الأهرام : ١٩٣٩/١٠/٤ .

بحزب الفلاح(١) .

وقد حملت الأعداد العشرة التي أصدرها حزب الفلاح من تلك الجريدة شرحاً لمبادئ الحزب ومقالات كتبت بأقلام رجاله وصفوا فيها أحوال الفلاح وطالبوا بالنهوض به وإصلاح شأنه كما حوت أخباراً عن زيارة قادة الحزب لبعض قرى القليوبية حيث تفقدوا أحـــوال الفلاحين وخطبوا فيهم داعين إلى تأييد الحزب والانضمام إلى عضويته(٢) . وغيرها من مظاهر نشاط الحزب في تلك الفترة .

وأبرز ما يميز ذلك النشاط « مشروع انتعاش الفلاحين » الذى قدمه الحزب إلى الحكومة والبرلمان فى أول مارس ١٩٣٩ وتضمن ذلك المشروع أربعة طلبات محددة مستمدة من برنامج الحزب هى :

١ — إصدار قانون بتخفيض إيجارات الأطيان ورفع الأجور بما يتناسب مع الحالة فى ذلك الحين .

٢ — إصدار قانون بتخفيض ضرائب الأطيان بالنسبة لصغار الفلاحين وإعفاء بعضهم منها .

٣ — إصدار قانون بتخفيض الديون العقارية وسعر الفائدة وتأجيل دفع الأقساط ثلاث سنوات بالنسبة لصغار الفلاحين .

---

(١) كانت الجريدة منذ بداية صدورها (١٥) مايو ١٩٣٧) تروج لفكرة إحياء الخلافة الإسلامية وأصبحت منذ أول يوليو تنطق بلسان حزب الأخاء والإصلاح الاسلامى الذى أسسه توفيق عبد القادر . وبعد أن قطعت علاقتها بحزب الفلاح أصبحت تميل إلى جانب الحلفاء ويبدو من مظهر إخراجها الجديد أن ثمة جهة ما كانت تتولى الإنفاق عليها بسخاء مما يجعلنا نعتقد أن المخابرات البريطانيه كانت تدعمها بالمال . على كل فان حزب الفلاح لم يستطع بعد ذلك أن يصدر جريدة تنطق باسمه .

(٢) النضال ، ١٩٣٩/٣/٥ .

٤ — إصدار قانون بتوزيع الأراضى البور على الفلاحين المعدمين .

وأعلن الحزب الصيام العام بين أعضائه فى ذلك اليوم للفت الأنظار إلى مطالبه وحدد مدة الدورة البرلمانية كمهلة لإجابة تلك الطلبات .

وعندما انفضت الدورة البرلمانية دون صدور أى من تلك التشريعات ألف الحزب وفداً ضم عدداً كبيراً من أعضائه ومن الفلاحين قصدوا قصر عابدين (فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٣٩) وسجلوا أسماءهم فى سجل التشريفات ثم رفعوا عريضة إلى رئيس الديوان الملكى (علي ماهر باشا) ضمنوها تلك المطالب وأعلنوا فيها أن حزب الفلاح قرر « إعلان الصيام العام فى ذلك اليوم بين أعضائه وأنصاره ومجاهديه وفلاحيه فى القاهرة والبنادر والقرى احتجاجاً على إهمال الحكومة والبرلمان لهذه المطالب العادلة » (١) .

وفى مساء اليوم نفسه أقيم احتفال إفطار الصائمين من أعضاء الحزب وبعض المدعوين من طلبة الجامعة المصرية والأزهر حيث تناولوا طعاماً من (الخبز والمش) كرمز لمشاركة الفلاح طعامه واستمر أحمد كامل قطب — رئيس الحزب — فى الإضراب عن الطعام اعتباراً من اليوم التالى لمدة ثمانية أيام وأبلغه محافظ القاهرة فى اليوم الخامس لإضرابه عن الطعام رسالة شفوية من محمد محمود باشا رئيس الوزراء مؤداها أن هذه المطالب موضع عناية الحكومة ولكنه طلب تصريحاً كتابياً بذلك وأخيراً جاءه هذا التصريح من على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى ولكن السلطات لم تنفذ شيئاً من تلك الطلبات (٢) .

---

(١) وثائق الحزب : ملف الصيام العام ، صورة العريضة المرفوعة إلى رئيس الديوان الملكي .

(٢) الأهرام : ١٩٣٩/٦/٣٠ .

وحين بدت فى الأفق نذر قيام الحرب العالمية أصدر الحزب إبياناً دعا فيه أحزاب الشباب وجمعياتهم إلى « عقد اجتماع لوضع خطة حاسمة لمواجهة الطوارىء ولتحديد دور الشباب فى الدفاع عن البلاد وصيانة استقلالها لاحتمال قيام حرب عالمية » وحدد الحزب موقعه إزاء الحالة الدولية بضرورة تدريب الفلاحين تدريباً عسكرياً فى القرى على أن يتضمن ذلك التدريب حمل واستخدام السلاح وطرق الوقاية من الغارات الجوية والإسعافات وإطفاء الحرائق . كما طالب بإعداد الخنادق فى الجهات التى يحتمل غزوها وتوزيع الكمامات الواقية من الغارات على الفلاحين مجاناً فى تلك الجهات وتموين القرى بالمواد الغذائية اللازمة وإعداد المخازن لحماية المحاصيل وقت الحرب ودعا جميع أعضاء وشباب حزب الفلاح إلى التطوع لخدمة الجيش المصرى للدفاع عن الوطن(١) .

ويتضح من هذا البيان أن موقف الحزب من اشتراك مصرفى الحرب كان غامضاً فهو لم يحدد رأيه صراحة فيما إذا كان يرى ضرورة مشاركة مصرفى الحرب إلى جانب الحلفاء أو تقف على الحياد بين المعسكرين المتصارعين لتجنب ويلات الحرب وإن كان يفهم ضمنياً من نص البيان أن الحزب كان يتوقع أن تتعرض مصر لهجوم المحور ومن ثم رأى ضرورة إيجاد مقاومة شعبية منظمة يكون عمادها الفلاحين وأن تكون هناك عناية خاصة بوسائل الدفاع المدنى وأن يكون الجيش المصرى متأهباً للدفاع عن الوطن .

وقد أدى إعلان الحرب العالمية الثانية إلى الحد من نشاط الحزب بسبب الأحكام العرفية التى منعت الاجتماعات وكان المظهر الوحيد لنشاط الحزب خلال الحرب هو تبنيه لبعض المطالب الاقتصادية للفلاحين إذ قضت الحكومة بالاستيلاء على القمح زمن

---

(١) النضال : ١٩٣٩/٥/١

الفلاحين بسعر ثلاثة جنيهات للأردب مما أدى إلى حرمان السواد الأعظم من الفلاحين من القوت الضرورى وساعد على ارتفاع نفقات المعيشة وزاد الطين بلة قيام ملاك الأراضى الزراعيـة برفع القيمة الإيجارية للأراضى مما أدى إلى تدهور أحوال الفلاحين المستأجرين هذا بالإضافة إلى سوء أحوال العمال الزراعيين الذين كانوا يتقاضون أجوراً زهيدة لا تكاد تفى بما يسد الرمق فى وقت ارتفعت فيـه الأسعار إلى ما يربو على ضعف ما كانت عليه قبل الحرب .

لذلك رفع الحزب عريضة إلى الملك فى السادس من مايو ١٩٤٢ طالب فيها بتحقيق ثلاثة مطالب أطلق عليها اسم « المطالب المستعجلة »(١) وهى :

١ ـــ توزيع القمح والذرة على الطبقات الفقيرة من الفلاحين والعمال وغيرهم بنصف السعر الرسمى وإعفاء صغار الفلاحين من الإستيلاء على القمح .

٢ ـــ إصدار أمر عسكرى بعدم رفع إيجارات الأطيان عما كانت علية فى العام الماضى (١٩٤١) .

٣ ـــ إصدار أمر عسكرى بجعل الحد الأدنى لأجور الفلاحين والعمال عشرة قروش صاغ يومياً على الا تزيد ساعات العمل عن ثمانى ساعات يومياً .

وقد أرسل الحزب صور من تلك العريضة إلى رئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب والشيوخ وبعض أعضاء مجلس النواب وإلى شعب الحزب بالقرى المختلفـة وطلب من أعضائها قراءتها على جموع الفلاحين عقب صلاة الجمعة . وأن يلصقوا صوراً منها بمسجد القرية وأن يرسلوا برقيات إلى رئيس الديوان الملكى ورئيس

---

(١) وثائق الحزب : سجل الخطابات الصادرة ابتداء من أول أبريل ١٩٤٢ رسالة رقم ٤٦ بتاريخ ٦/٥/١٩٤٢.

الوزراء بتأييد مطالب الحزب والتماس سرعة تحقيقها على أن يرسلوا صوراً من هذه البرقيات إلى جرائد الأهرام والمقطم والمصرى .

ولكن الحكومة لم تعر الأمر التفاتاً ولم يفكر رجال الحزب — هذه المرة — فى سلوك سبيل الإضراب عن الطعام لإرغام الحكومة على الاستجابة لمطالبهم بعدما تأكدوا من عدم جدوى ذلك . ويبدو أن الحزب لم يرم من وراء إثارة تلك المطالب إلا الدعاية السياسية ولفت الأنظار إليه ليس إلا إذ أنه لم يثر أى مطلب اقتصادى للفلاحين أو غيرهم من طبقات الشعب حتى وضعت الحرب أوزارها فأعاد الحزب تنظيم نفسه على أساس جديد .

* * *

فقد أقام الحزب احتفالا فى ١٨ ديسمبر ١٩٤٥ بمناسبة مرور سبع سنوات على تأسيسه ووقف رئيسه أحمد كامل قطب خطيباً فاستعرض نشاط الحزب خلال تلك السنوات ثم تكلم عن انتشار المبادىء الاشتراكية فى العصر الحديث باعتبارها « تهدف إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة فى الأمم وتحقيق العدالة الاجتماعية » وأشاد بما ورد فى الكلمة التى وجهها الملك إلى الأمة الإسلامية بمناسبة عيد الهجرة حين قال « أعطوا الفقير حقه قبل أن يطلبه » واعتبر هذا اتجاهاً اشتراكياً فى مصر وكذلك « الأديان جميعاً ومن بينها الإسلام تقضى بالمبادىء الاشتراكية فى الزكاة والمواريث » لأن الاشتراكية هى السبيل الوحيد للقضاء على شبح الشيوعية فهى تحترم الملكية الفردية وتعطى العاملين حقوقهم فى الحياة بما يتناسب مع ما يبذلون من تضحية وكفاح وتطمئنهم على حياتهم وحياة أولادهم ولذلك فإن حزب الفلاح رأى أن يأخذ بالاشتراكية باعتبارها الثورة الحقة على الجهل والجوع والمرض والخوف » وختم كلمته بإعلان البرنامج الاشتراكى للحزب الذى أصبح بمقتضاه يسمى

« حزب الفلاح الاشتراكى » (١)

ونميل إلى تفسير هذا التطور الذى طرأ على حزب الفلاح فى ضوء ما شهده المجتمع المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية — وفى سنواتها الأخيرة على وجـــه الخصوص — من اجتهادات راحت تحاول أن تتصور مخرجاً لما تعانيه البلاد من مشاكل اجتماعية ترتبت على بروز التناقضات فى المجتمع المصرى بصورة جادة نتيجة لعلو كعب البرجوازية المصرية بسبب ظروف الحرب التى هيأت لها فرصـة النمو والازدهار والوصول إلى ما يقرب من المرحلة الاحتـكارية. وتنوعت تلك الاجتهادات ما بين دعوات إصلاحية تحاول أن تستر عورات النظام القائم دون أن تسعى إلى تغييره ودعوات يسارية تمثلت فى الجماعات الماركسية أخذت تنادى بضرورة تصفية البرجوازية المصرية وإقامة نظام اشتراكى وقامت بين الاثنين دعوات أخرى هدفها التوفيق بين وجهتى النظر بقصد كبح جماح اليسار المتطرف وإرضاء دعاة الإصلاح والتغيير مع ضمان مصالح البرجوازية المصرية بالعمل على إجهاض الثـــورة . وكان ما طرأ على حزب الفلاح من تطور — فى رأينا — ينتمى إلى هذا الاتجاه .

ومهما كان الأمر فقد انقسم البرنامج الاشتراكى للحزب(٢) إلى قسمين : أولهما القسم العام : وهو ما يمكن أن نطلق عليه (البرنامج السياسى) للحزب وقد نص فيه على أن الملك رمز الوطن والدستور حصن الأمة : والديموقراطية حياة الشعب ومصر والسودان وطن واحد والأمة فوق الحـكومة التى ما هى إلا أداة لتحقيق رغبات الشعب وعدم قبول أى تدخل أجنبى أو بقاء جندى أجنبى واحد على أرض الوطن

---

(١) وثائق الحزب : ملف الاحتفال بمرور سبع سنوات على تأسيس الحزب وإعلان البرنامج الاشتراكى .

(٢) حزب الفلاح الاشتراكى : البرنامج الاشتراكى ، مطبـوع فى أربع صفحات من القطع المتوسط : ٢٨/١٢/١٩٤٥ .

خيانة عظمى لانه يعرقل النهوض الاقتصادى والاصلاح الاجتماعى ويجرح الكرامة الوطنية فى الصميم ويهدم دعائم الحرية وصرح الاستقلال ونص على عدم الاعتراف بأى امتيازات لأى دولة أجنبية وعدم السماح للاجانب بتملك الأراضى فى مصر وحماية المؤسسات والمنتجات القومية ومناهضة النزاعات الاستبدادية وتمكين كل فرد أو جماعة من التمكن بحرية الرأى كاملة فى حدود الدستور وتخفيض تأمين الترشيح لعضوية مجلس النواب وجعله خمسين جنيها فقط ومنح المرأة والشبان الذين بلغوا سن الثامنة عشرة حق الانتخاب ومساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق السياسية وتدعيم الحياة النيابية بجعل الإقتناع وحرية الفرد أساس التمثيل النيابى الصحيح وتوطيد دعائم الجيش وتزويده بأحدث المعدات وجعل الخدمة العسكرية اجبارية ولمدة سنة ليتسنى له تدعيم السلام العالمى والدفاع عن قناة السويس واستغلال جهوده فى القيام بالإصلاحات الداخلية ابان السلم وأن تكون الصحافة منارا للرأى العام بجميع اتجاهاته بعيدة عن أى تحيز كما نص على توثيق الروابط بين شعوب الدول العربية وعدم الاقتصار فى ذلك على الحكومات .

أما القسم الثانى من البرنامج فهو القسم الخاص وهو ما يمكن أن نسميه (البرنامج الاجتماعى الاقتصادى) وقد نص فيه على أن الدولة ملزمة باستصدار التشريعات التى تكفل تحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف الطبقات الفقيرة والنهوض بها بحيث يحظى كل فرد بمستوى مناسب للمعيشة والرقى الاجتماعى يتفق مع آدميته ومصريته كما أنها ملزمة بإصدار قوانين التأمين الاجتماعى ضد المرض والشيخوخة والعجز والبطالة وحماية الأسرة وكفالة الأولاد وضمان التعليم بالمجان فى جميع مراحله وتقريب الفوارق بين الطبقات بتخفيض مرتبات كبار الموظفين ورفع مرتبات صغارهم وتحديد حد أقصى للملكية وتوزيع الأراضى البور على الفلاحين وتدعيم نظام التعاون وتوحيد الزى وتعميم اللامركزية فى الحكم والقضاء على مظاهر البذخ والترف فى الدولة .
كما نص على أن كل فرد ملزم بالعمل والدولة ملزمة بتهيئة الفرص لتوفير العمل

وإعادة تشييد القرى والأحياء الوطنية من جديد لتوفير المسكن الصحى للفلاحين والعمال وغيرهم من الطبقات الفقيرة واستصدار التشريعات لتنظيم علاقاتهم بأصحاب رؤوس الأموال وإنصافهم وضمان حقوقهم وتحديد أجورهم وساعات عملهم واشراكهم بحصة محددة فى الأرباح والمساواة فى معاملة الأفراد مهما كانت طبقاتهم والقضاء على كل تصرف أساسه الانانية والمحسوبية واستغلال النفوذ والحد من « الاستقراطية المتعجرفة والرأسمالية المتضخمة» مع احترام الملكية الفردية وذلك بنشر روح الديمقراطية الصحية وبادارة الدولة لجميع المرافق العامة وشركات الاحتكار لحساب الامة وتنمية الثروة القومية وفرض الضرائب التصاعدية واستغلال رؤوس الاموال لانهاض الصناعات الثقيلة والخفيفة واستخدام الأيدى العاملة وتعويم المصانع القروية وحماية المستهلك بتحديد سعر السلعة وحماية الصناعة والتجارة المصرية وتحقيق الاستقلال الاقتصادى وتنسيق السياسة الزراعية والصناعية طبقا للاساليب الحديثة وتحويل الايدى العاملة الفائضة فى الزراعة إلى الصناعة وزيادة القوى الانتاجية بما يواجه اطراد زيادة السكان ويكفل الاكتفاء الذاتى وتنظيم الاستهلاك .

وختم البرنامج بالآية القرآنية « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» كما ذيله بحاشية تفيد أن خطة الحزب فى تنفيذ البرنامج هى « اتباع الوسائل الديموقراطية المشروعة بإيجاد مرشح فى كل دائرة انتخابية من دوائر القطر لتحقيق مبادئه عن طريق التشريع » .

ولم يدخل البرنامج الجديد أى تعديل على هيئات الحزب إذا لم يتبع تعديل البرنامج تعديل فى القانون الأساسى للحزب أى أن الحزب ظل يعتمد على المثقفين من العناصر البرجوازية الصغيرة وظل الفلاحون خارج إطاره التنظيمى .

ويختلف هذا البرنامج اختلافاً بيناً عن البرنامج الأول الذى أعلن عند بداية

تأسيس الحزب فى ديسمبر ١٩٣٨ فقد تضمن البرنامج الجديد قسما أبرز فيه الحزب خطه السياسى رغم أنه كان قد أعلن عند بداية تأسيسه أنه لا يعتزم الدخول فى معترك الحياة السياسية ولذلك جاء برنامجه الأول خلواً من الجانب السياسى مشتملا — فقط — على خطة لإصلاح المجتمع الريفى .

ويكشف الخط السياسى للحزب — كما حدده البرنامج الجديد — عن تأصل الروح — الليبرالية فى قادته فهو يحرص على التمسك بالدستور (دستور ١٩٢٣) بالنظام الملكى بقدر ما يحرص على أن يقرن الاستقلال السياسى بالتخلص من المنافسه الاقتصادية الأجنبية واطلاق طاقات الرأسمالية الوطنية وهو ما يعبر أصدق تعبير عن مصالح البرجوازية الوطنية فى ذلك الحين .

كذلك دعم الحزب صفته الإصلاحية بالنص على أنه سيسلك السبل الدستورية لتحقيق مبادئه عن طريق التشريع ولذلك ركز على ضرورة توسيع حقوق الناخبين وتبسيط شروط الترشيح وتوفير ضمانات سلامة الانتخابات كما حرص على أن ينص على تقريب الفوارق بين الطبقات بصورة تعرقل نشوب الصراع الطبقى فهو رغم نصه على ضرورة وضع حد أقصى للملكية و « الحد من الارستقراطية المتعجرفة والرأسمالية المتضخمة و إدارة الدولة لجميع المرافق العامة وشركات الاحتكار لحساب الأمة » و فرض الضرائب التصاعدية إلا أنه لم يعن بتحديد مايقصده بوضع حد أقصى للملكية فلم يوضح ما إذا كان يقصد الملكية الزراعية أو الملكية بمفهومها المطلق كما لم يعن ببيان الحد الأقصى للملكية فى تصوره ورغم أخذه بمبدأ التأميم بالنسبة للمرافق العامة والشركات الاحتكارية فقد كان ذلك صعب التحقيق من الناحية العملية فى ظل دستور ١٩٢٣ — الليبرالى وفى ظل المجتمع الذى كان قائماً يومئذ بكل تناقضاته .

* * *

وبعد إعلان البرنامج (الاشتراكى) للحزب نشطت قيادته(١) فى تكوين اللجان والفروع الجديدة بالأقاليم وإعادة نشاط ما كان موجودا منها من قبل وتمطينا وثائق حزب الفلاح صورة تعوزها الوضوح عن تلك اللجان والفروع ولذلك لانستطيع أن نقدم حصراً دقيقاً لنشاط الحزب فى الريف من حيث اتساع العضوية أو انكماشها والانتماء الاجتماعى للأعضاء ومدى حركتهم بين الفلاحين ولكننا سنحاول معالجة ذلك باستقراء ماعثرنا عليه من وثائق الحزب.

كانت هناك لجان عديدة للحزب فى الوجه البحرى تركز الجانب الاكبر منها فى قرى مديريات القليوبية والمنوفية والغربية بالإضافه إلى بعض اللجان المتفرقة فى سائر مديريات الوجة البحرى والكثير من تلك اللجان صاحب نشوء الحزب فى ١٩٣٨ وكانت تقوم أساسا على جهود من أيدوا الحزب وانضموا إليه من أعضاء جمعية نهضة القرى.

أما فى الوجه القبلى فقد كان ثمة فروع متفرقة للحزب فى مديرياته المختلفة ويبدو أن — ظروف الحرب العالمية الثانية قطعت أسباب الصلات بينها وبين مركزالحزب فى القاهرة ولكن بمجرد انتهاء الحرب وتطوير الحزب لبرنامجه ومن ثم تطويره لنشاطه: أخذ يرنو إلى تأسيس اللجان والفروع فى الوجه القبلى معتمداً فى ذلك على نشاط أحد دعاته ويدعى محمد بيومى عفيفى الذى كان يعمل بوظيفة معاون زراعة وكان دائم التنقل — بحكم عمله — بين أسيوط وبنى سويف والفيوم: وقد أقام

---

(١) كان الأستاذ أحمد كامل قطب الشخصيه المحركة لنشاط الحزب السياسى فى شتى المجالات وخاصة فى مجال مساهمة الحزب فى الحركة الوطنية كما سنرى.

(٢) هذه الوثائق عبارة عن سجل المجاهدين والفلاح ودفتر الخطابات الصادرة: ودفتر الاشتراكات وملفات الشعب والفروع وجميعها محفوظة لدى الأستاذ أحمد كامل قطب المحامى وقد سمح لنا مشكورا بالاطلاع عليها.

فى كل مديرية منها فرعاً للحزب وعـدداً من اللجان بالقرى التابعة لـكل مديرية منها : كما قامت فروع أخرى بالمياط وقنا وقوص وأبو تيج بفضل جهود ذاتية لأفراد من تلك الجهات كاتبوا المركز الرئيسى للحزب فى القاهرة وانضموا إليـه وتحمس بعضهم لدعوته .

أما عـــدد الأعضاء فى كل لجنة من تلك اللجان فقد كان يتراوح بين عشرة أعضاء وثمانين عضواً : وليست هناك قوائم ثابتة تمدنا بعدد الأعضاء فى كل سنة اللهم إلا ما نستخلصه من « سجل المجاهدين والفلاحين » الذى يبين أن عـدد الأعضاء المنتمين إلى الحزب فى عام ١٩٣٩ بلغ ٤٧١ عضواً وفى عام ١٩٥١ بلغ عددهم ١٤٠٣ أعضاء .

ومهما يكن الأمر فقد كانت العناصر ذات الفعالية فى لجان القرى تتمثل فى الموظفين والطلبة وبعض الأعيان ممن يندرجون ضمن أصحاب الملكيات الزراعية المتوسطة بالإضافة إلى المزارعين من صغار الملاك أما الفروع التى كانت فى المدن فكانت العناصر الفعالة فيها تتمثل فى المثقفين الشبان وبصفة خاصة المحامين والمدرسين والموظفين والطلبة وكانوا هم الفئة التى يعتمد عليها الحزب فى تأسيس الفروع ويبدو ذلك واضحاً من رسالة كتبها عبد المنعم عفيفى سكرتير عام الحزب إلى شخص يدعى إسماعيل الشعار بقوص مركز الأقصر يدعوه فيها إلى تأليف فرع للحزب « يكون أعضاؤه من الشباب المثقف الذى يستطيع أن يقوم بما يطلب إليه فى سبيل نشر دعوة الحزب(١) » وإلى جانب هؤلاء اشتملت فروع المدن على بعض الحرفيين والمزارعين ولـكنهم يأتون فى المرتبة الثانية بعد المثقفين .

ولم تـكن فروع الحزب ولجانه بالأقاليم على درجة كبيرة من النشاط ولعل ذلك

(١) ملف الأقصر ـ شعبة قوص : رسالة مؤرخة فى ١٩/٤/١٩٤٧ .

يرجع إلى عزوف العصبيات القوية في الريف وخاصة كبار الملاك عن تأييده بل إن دعوة الحزب لقيت عزوفاً من الفلاحين أنفسهم فيذكر رئيس شعبة البربا مركز أبو تيج أن « الفلاحين عندنا جميعهم ناقمين على جميع الأحزاب السياسية ويعتقدوا بأنهم لم ينشئوا هذه الأحزاب إلا لخدمة مصالحهم الخاصة والارتقاء إلى منصة الحكم عن طريق الفلاح وعندما يصلون إلى مآربهم ينسون هذا المسكين(١) » كما أن تعديل الحزب لاسمه إلى « حزب الفلاح الاشتراكي » خلق صعوبة أخرى أمام نشر دعوته في الريف فقد بادر خصوم الحزب إلى رمى رجاله بالإلحاد والشيوعية بصورة دفعت فرع الحزب بأسيوط إلى المطالبة بالعودة إلى التسمية الأولى للحزب وهى «حزب الفلاح » كما لاقى رجال الحزب بالصعيد أيضاً صعوبات جمة في نشر الدعوة بسبب ما ورد في برنامجه من المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق السياسية لدرجة أن فرع أسيوط طالب المركز الرئيسى للحزب(٢) بغض النظر عن ذلك المبدأ مؤقتاً .

ولكن هذه الصعوبات لم تحل بين بعض لجان الحزب وبين التعبير عن مطالب الفلاحين والمناداة بحل مشاكلهم ولكن أعضاء تلك اللجان كانوا يقدمون تلك المطالب بصفتهم الشخصية لا الحزبية ويبدو أن الدافع لذلك خشية قادة الحزب من الاصطدام بالسلطات : ومن الأمثلة على ذلك لجنة السماحية الكبرى مركز بلقاس التي رفعت مطالب الفلاحين إلى الديوان الملكي(٣) لوضع حد لمظالم عائلة البدراوى عاشور الذين اشتروا معظم زمام القرية الذي كان يملكه بعض الأجانب — وراحت أسرة البدراوى عاشور تسوم الفلاحين سوء العذاب ويملون عليهم شروطاً مجحفة

---

(١) ملف البربا — أبو تيج : رسالة من محمد سيد حسين إلى أحمد كامل قطب ٩/٣/١٩٣٩
(٢) ملف أسيوط من كمال أدهم رئيس الفرع إلى أحمد كامل قطب في ١٨/٢/١٩٤٦ .
(٣) ملف بلقاس — شعبة السماحية الكبرى : صورة عريضة مطبوعة بدون تاريخ وعليها إشارة تفيد إلى أنها ترجع إلى عام ١٩٤٨

للزراعة ونازعوا الفلاحين ملكية بيوتهم واستخدموا رجال الإدارة لإيقاف بدء ما كان يبنيه الفلاحون منها.

على أن لجنة طوخ القراموص — شرقية(١) كانت أنشط اللجان فى تبنى مطالب الفلاحين إذا أن تلك القرية كانت ضمن تفتيش الملك فاروق بأبو كبير ويستأجر الفلاحون الأرض بإيجار عينى مقابل تقديم قدر معين من المحصول للتفتيش مما كان مجحفاً بالفلاحين وخاصة فى السنوات التى يتعرض فيها المحصول للخطر نتيجة سوء الأحوال الجوية أو تعرضه للآفات الزراعية كما أن المساحة المؤجرة للفلاحين كانت تقدر على أساس الفدان ٢٠ قيراطاً وليس ٢٤ قيراطاً هذا بالإضافة إلى بعض الالتزامات المالية المرهقة كالزام الفلاح بتحمل مصاريف الحراسة وثمن الآلات الزراعية بل ومصاريف إدارة التفتيش وضيافة موظفيه ورفع الفلاحون عدة عرائض إلى الخاصة الملكية طالبين رفع تلك المظالم ولكنهم لم يلقوا إجابة شافية سوى بعض الوعود التى لم تنفذ لذلك وجهوا إلى الخاصة الملكية إنذاراً على يد محضر (١٧ فبراير ١٩٥١) ضمنوه مطالبهم وطلبوا رفع الجور عن كواهلهم وقد عقدت بسراى عابدين جلسات بين ناظر الخاصة الملكية وممثلى الفلاحين (وكانوا أعضاء لجنة حزب الفلاح بالقرية) تلقوا فى ختامها وعوداً بحل مشاكلهم ولبثوا يترقبون تنفيذ تلك الوعود وحين أدركوا أن الخاصة الملكية لاتنوى حل تلك المشاكل وجهوا إليها إنذاراً ثانياً (٢٩ أغسطس ١٩٥١) هددوا فيه بإخلاء الأرض والامتناع عن زراعتها بعد انتهاء السنة ما لم تلغ عقود الإيجار العينى وتبرم بدلا منها عقود بإيجار نقدى وترفع سائر المظالم عن الفلاحين. أى أن الفلاحين هددوا بإضراب عن الزراعة وهو أمر يخرج عن حدود طاقتهم لأنه لم تكن لهم نقابات منظمة كنقابات العمال تنظم الإضراب وتقدم المعونات المادية

(٤) وإليها ينتمى مؤسس الحزب الأستاذ أحمد كامل قطب المحامى.

للمضربين طوال فترة الإضراب ولأن ما طبع عليه الفلاح المصرى من ارتباط بالأرض يجعل تركه لقريته بشكل جماعى أمراً مستبعداً . على أن التهديد بالامتناع عن الزراعة فى حد ذاته ظاهرة جديرة بالاهتمام لدلالتها على مقدرة أعضاء لجنة حزب الفلاح بالقرية على توحيد صفوف الفلاحين حول قرار خطير كهذا ولكن نتيجة هذا النزاع أسفرت عن اعتراف الخاصة الملكية بملكية الفلاحين للآلات الزراعية وأدوات الرى وعدم تحميلهم مصاريف ضيافة موظفى التفتيش أما نظام الإيجار -وهو أساس النزاع- فقد بقى على ما كان عليه .

ولكن المشاكل الاقتصادية التى كان يعانى منها الفلاحون أخذت تزداد تفاقماً كما أن سخط الفلاحين على مظالم الاقطاع بلغ ذروته فى تلك الفترة متمثلا فى انتفاضات الفلاحين فى تفانيش الأمير محمد على بكفور نجم ومزارع عائلة البدراوى فى بهوب . وانتهز قادة الحزب تلك الظروف فأخذوا يطوفون القرى ويدعون إلى عقد «مؤتمر الفلاحين» وحدد يوم ١٦ سبتمبر ١٩٥١ . لعقد المؤتمر واختيرت حديقة الأزبكية مكاناً له وكان من المقرر أن يدور البحث حول المطالب الآتية(١) :

١ — تخفيض إيجارات الأطيان والمحصول (الإيجار العينى) بنسبة ٤٠ ٪ وتحديد الإيجارات وإلغاء المحصول .

٢ — عدم إخلاء المستأجر من الأطيان ما دام مسدداً للايجار .

٣ — رفع أجرة الفلاح « العامل الزراعى » إلى ٢٠ قرشاً يوما كحد أدنى .

٤ — الشكوى من سوء توزيع مياه الرى ومن الدودة مما أتلف الزراعة .

٥ — رفع سعر قمح الحيازة إلى ستة جنيهات وتخفيض سعر السماد وتسعيره .

---

(١) منشور مطبوع بعنوان « مطالب الفلاحين » فى شكل خطاب موجه إلى عمد القرى كدعوة للمؤتمر .

٦ — توزيع الذرة على الفلاحين بنصف الثمن المحدد على أن تتحمل الحكومة النصف الآخر لتيسير الخبز لهم .

٧ — عدم تحصيل الأموال الأميرية من صغار الملاك لغاية خمسة أفدنة وجعلها تصاعدية فيما زاد على ذلك بنسبة جدية .

٨ — تحديد الملكية الزراعية بحيث لا تقل عن فدان لكل فلاح للاستهلاك الشخصى للأسرة ولا تزيد عن خمسين فداناً .

٩ — الشكوى من إهمال وعدم تعميم المشروعات الصحية العامة كتوفير مياه الشرب الصالحة والمساكن الصحية والضمان الاجتماعى ... الخ .

١٠ — الاحتجاج الصارخ على الاعتداءات والمظالم التى وقعت أخيراً على الفلاحين فى حوادث كفور نجم وبهوت .

ولكن الحكومة حالت دون عقد المؤتمر بمنع قادة حزب الفلاح من استكمال الطواف بالقرى واعتقال رئيس الحزب..مما يلفت النظر فى المطالب التى كان من المقرر عرضها على المؤتمر اشتمالها على مبدأ تحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا وهو خطوة تقدمية فى مفهوم الحزب لتحديد الملكية التى كان برنامج الحزب الذى أعلن فى ١٩٤٥ قد تركها دون تحديد وقد تدعم هذا المبدأ فى البرنامج الذى قدمه الحزب إلى وزارة الداخلية فى ديسمبر ١٩٥٢ بعد صدور القرار الخاص بتسجيل الأحزاب السياسية (١) فقد نص فيه على تحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا وبضرورة تأميم قناة السويس والتوسع فى تأميم أدوات الإنتاج مع إحترام الملكية الفردية .

---

(١) نص ذلك القرار على ضرورة تقدم الهيئات السياسية بطلبات التسجيل الى وزارة الداخلية مرفقاً بها نسخة من برامجها على أن يوضح بهـا مصادر تمويلها : وذلك حتى يسمح لها بمزاولة نشاطها .

وفى تقديرنا أن اتجاه الحزب إلى الأخذ بمبـدأ القضاء على سيطرة رأس المال بشقى — استثماراته سواء فى الزراعة أو الصناعة يعنى إدراكه ضرورة الأخذ بالحل الاشتراكى كعلاج لمشاكل المجتمع المصرى وهى النتيجة التى وصل إليها الحزب بعد أربعة عشر عاما من تأسيسه .

ولما كانت وسيلة الحـزب لتحقيق أغراضه هى النضال البرلمانى من استصدار تشريعات تؤدى إلى تحقيق التغيير المنشود تدريجيا : فقد حرص الحزب على خوض غمار المعارك الانتخابية سعيا لكسب مقاعد داخل مجلس النواب وكانت انتخابات مارس ١٩٤٢ — التى أجرتها حكومة الوفد فى ظل الأحكام العرفية وظروف الحرب — هى أولى المعارك الانتخابية التى ساهم فيها الحزب بنصيب فرشح عددا من قادته غير أن أحدا من مرشحيه لم ينجح فى تلك الانتخابات .

وحين أقيلت حكومة الوفد (أكتوبر ١٩٤٤) وشكل أحمد ماهر باشا وزارة ائتلافية من السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى :أقدمت تلك الوزارة على حل مجلس النواب الوفدى وإجراء انتخابات جديدة فى يناير ١٩٤٥ واتفقت الأحزاب المشتركة فى الحكم على تقسيم الدوائر الانتخابية فيما بينها وقاطع الوفد تلك الانتخابات .(١)

ووسط هذه الظروف قرر حزب الفلاح أن يخوض تلك المعركة الانتخابية ورأى أن يكون ضمن مرشحيه أحد الفلاحين من صغار الملاك ووقع الاختيار على الشيخ عبد اللطيف يوسف سلامه عضو لجنة الحزب بقرية كفر منصور مركز طوخ قليوبية فرشحه عن دائرة جزيرة الاعجام التى تقع بها بلدته . وأعلن الحزب أن « القصد

---

(١) محمد زكى عبد القادر : أقدام على الطريق ، دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧ ص ٤١٥ وما بعدها .

من ترشيح فلاح أن يـــكون رمزا للفلاحين في مجلس النواب بعد أن نفذ صبره في رجاء الخير من الآخرين »(١) . لذلك لقيت حملة الاكتتاب التي قادها أعضاء الحـــزب بطوخ قليوبية لجميع تأمين الترشيح من الأهالي (وقدره ١٥٠ جنيها) نجاحا كبيرا .

وأقبل الفلاحون على تأييد هذا المرشح والدعاية له مما دفع خصومه إلى بث الدعاية ضده وارتكزت تلك الدعاية على أساس أن المرشح الفلاح لن يبلغ من الكفاية والمركز الاجتماعي ما يؤهله لتمثيل الدائرة كالمرشحين الآخرين من البكوات والباشوات وأن المرشح السعدي هو الذي سينجح لأن الحكومة تسانده وأن من ينتخب غيره سيكون حسابه عسيرا هذا بالإضافة إلى مساندة العصبيات والعمد للمرشحين الآخرين وخاصة مرشح الحكومة وكان لهذه الدعاية أثرها على الناخبين مما جعل أعضاء لجنة الحزب بطوخ يطلبون من قيادة الحزب في اجتماع عقده بالقاهرة (٢٧ ديسمبر ١٩٤٤) أن توفد واحـــدا من أعضاء مجلس الإدارة كل يوم بالتناوب لتنشيط الدعاية لمرشح الحزب ووافقوا على ذلك غير أن أحدا منهم لم ينفذ ذلك القرار مما جعل المرشح نفسه يتأثر بدعاية خصومـــه ويخشى بطش الحكومة فينصرف عن رجال الحزب الذين أيدوه(٣) . وربما كان إحساس قادة الحزب بتصميم الحكومة على انجاح

---

(١) ملف الانتخابات رسالة من أحمد كامل قطب الى رئيس تحرير الأهرام ٣/١٢/١٩٤٤

(٢) المرجع السابق تقرير من ابراهيم فهمي عضو لجنة طوخ عن دائرة جزيرة الأعجام الانتخابية بدون تاريخ .

(٣) المصدر السابق سورة لنص البيان تقع في أربعة صفحات (حجم الفولوســكاب) بدون تاريخ .

مرشحيها هو الذى دفعهم إلى التخلى عن مرشحهم فى اللحظة الحاسمة وإن كنا نعتقد أنه كان باستطاعتهم أن يستغلوا تلك المعركة الانتخابية لخلق تربة صالحة لنشر مبادىء الحزب — على أقل تقدير — لو خاضو تلك المعركة حتى النهاية .

وقد أسفرت تلك الانتخابات عن سقوط جميع مرشحى الحزب فى الدوائر الأخرى بما فيهم رئيس الحزب نفسه. ولكن هذه النتيجة لم تثن قادة الحزب عن الاشتراك فى المعركة الانتخابات التالية .

فحين شكل حسين سرى باشا وزارة ائتلافية (يوليو ١٩٤٩) وأصبح من المقرر أن تجرى تلك الوزارة الانتخابية التى توقع الكثيرون — وخاصة الأحزاب التى لم تكن مشتركة فى الحكم — أنها تأتى فى صالح مرشحى الأحزاب الثلاثة المؤتلفة (الوفد — الأحرار الدستوريون — السعديون) أصدر حزب الفلاح الاشتراكى بيانا سجل فيه اعتراضه على تقسيم الدوائر بين الأحزاب المشتركة فى الحكم وطالب رئيس الوزراء أن يخص الأحزاب التى لم تشترك فى الوزارة بنصيب من تلك الدوائر كما طالب بتأليف جبهة من الأحزاب غير المشتركة فى الوزارة لمعارضة قرار الحكومة الخاص بإعادة تقسيم الدوائر الانتخابية ونادى بضرورة قيام وزارة محايدة لتقوم بإجراء الانتخابات(١) .

ثم حدث أن استقالت الوزارة الإئتلافية وأعاد حسين سرى باشا تشكيل وزارة وزارة محايدة من جديد ولم يكن ذلك استجابة لرغبة الأحزاب الصغيرة التى عارضت وزارة الائتلاف بقدر ما كان استجابة من القصر للانجليز الذين رأوا أن يدخلوا

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية : ج ٢ القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٤٩ .

فى مفاوضات حول القضية الوطنية مع وزارة وفدية بعدما فشلت المفاوضات بينهم وبين الوزارات المؤتلفة من الاحزاب الآخرى (١) .

وقد أجرت الوزارة المحايدة الانتخابات (ديسمبر ١٩٤٩) وخاض حزب الفلاح الاشتراكى غمارها فرشح أحمد كامل قطب نفسه عن دائرة أبى كبير شرقية وقد حرص فى منشوراته الانتخابية على أن لايستخدم عبارة الاشتراكى «فقدم نفسه لناخبيه على أنه مرشح «حزب الفلاح» ولم يشأ أن يعرض للبرنامج الاقتصادى للحزب واكتفى بالتركيز على مابذله من جهود فى القضية الوطنية ويبدو أنه كان يحاول الاستفادة من دروس المعارك الانتخابية السابقة فلم يشأ أن يثير معارضة كبار الملاك له فى دائرته الانتخابية ورغم ذلك فقد جاءت نتيجة الانتخابات مخيبة لآمال الحزب فلم ينجح رئيسه فى الفوز بمقعد له فى البرلمان .

ولعل فشل الحزب فى تحقيق أمله فى الوصول إلى مقاعد البرلمان يرجع إلى عدم استناده إلى العصبيات الريفية القوية التى كانت تتحكم فى سيرالمعارك الانتخابية وتوجهها لمصلحتها بقدر ما يرجع إلى عدم انتشار الوعى بين صفوف الفلاحين الذين كانوا لايملكون فكاكا من سطوة عمد القرى وأعيانها الذين كانوا يوجهون أصواتهم لمصلحة من يشاءون . هذا بالإضافة إلى تدخل السلطات الإدارية لتزييف الانتخابات تلك الافة الخطيرة التى عانت منها الحياة السياسية فى مصر منذ دأب القصر على العبث بالدستور .

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية : جـ٢ القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٤٩ .

وكان حزب الفلاح ـ شأنه في ذلك شأن سائر الأحزاب الصغيرة ـ يحتاج إلى أن يلتمس عضداً بين الهيئات السياسية الأخرى ومن هذا المنطلق كانت مبادرة الحزب إلى إعلان تأييده(١) لعلى ماهر باشا واستجابته لدعوته التي وجهها في ١٩٤٥ إلى الأحزاب والهيئات السياسية والسياسيين المستقلين في شكل جبهة وطنية تحمل اسم « جبهة مصر » تلتف حول برنامج سياسي إصلاحي محدد .

وترجع صلة حزب الفلاح بعلي ماهر إلى عام ١٩٣٩ فربطت الصداقة بين أحمد كامل قطب وبين على ماهر منذ حادث إضراب أحمد كامل قطب عن الطعام. وحين تولى على ماهر رئاسة الوزارة (١٨ أغسطس ١٩٣٩ – ٢٧ يونيو ١٩٤٠) اعتمد على تأييد فرق القمصان الخضراء التي نظمتها جماعة مصر الفتاة . كما اعتمد على تأييد « فرق الشباب » التي شكلها حزب الفلاح في ربيع ١٩٤٠ لتتولى الدعاية في الريف والعمل على حشد الجماهير حول الوزارة .

وحين اعتقل على ماهر في ١٩٤٢ كان حزب الفلاح في مقدمة الأحزاب السياسية التي طالبت بالإفراج عنه ولذلك لم يكن من الغريب أن يسارع الحزب بالانضمام إلى « جبهة مصر » عندما أعلن على ماهر تأسيسها .

ونصب قادة حزب الفلاح أنفسهم دعاة للجبهة فكتبوا إلى لجان الحزب وفروعه في الريف بنشر الدعوة بين صفوف الفلاحين لتأييد الجبهة كما اهتم رئيس الحزب ببث الدعاية للجبهة وسط زملاءه المحامين بصفة خاصة لمحاولة تجنيدهم كدعاة للجبهة . وقد استمر حزب الفلاح في عضويته للجبهة حتى ١٩١٢ .

كذلك اشترك حزب الفلاح في تحالف مع حزب العمال المصرى والحزب النسائى

---

(١) ملف جبهة مصر : من أحمد كامل قطب إلى على ماهر باشا في ١٩٤٥/١١/١٥ .

الوطنى (١) . عقد فى ٣١ مارس ١٩٤٦ وأعلن المتحالفون أن غرضهم من ذلك ضرب المثل للاحزاب المتنازعة فى ضرورة توحيد الصفوف من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على « الجوع والجهل والمرض » فى شعب وادى النيل والعمل على تحقيق الجلاء السياسى والاقتصادى والعسكرى عن البلاد (٢) .

ثم مالبث أن انفرط عقد التحالف بعد فترة وجيزة من ابرامه ، فقد دب النزاع بين رئيسة الحزب النسائى وسكرتيرته حول من تتولى الكلام باسم الحزب ورئاسة الجلسة المشتركة حين تحل دورة الحزب النسائى فى الرئاسة وأدى هذا النزاع إلى انسحاب الحزب النسائى من التحالف (مايو ١٩٤٦) (٣) وتبعه حزب الفلاح الاشتراكى الذى ايد فريقا من العمال انشقوا عن حزب العمال المصرى وكونوا حزبا مستقلا بنفس الاسم ، وبتأييد حزب الفلاح لهؤلاء المنشقين انتهى ذلك التحالف الذى لم ينجح إلا فى ضرب المثل باستحالة توحيد صفوف الاحزاب السياسية المصرية حول برنامج معين لفترة طويلة من الزمن .

وبالاضافة إلى ذلك ، وثق حزب الفلاح الاشتراكى علاقاته مع حزب مصر الفتاة

---

(١) تأسس حزب العمال المصرى فى ١٩٣١ ثم أوقف نشاطه بعد أسبوعين من تاسيسه. وعاد إلى استئناف نشاطه فى سنة ١٩٤٤ وكان زعيمه عباس حليم معروفاً بميوله النازية (انظر/ رؤوف عباس ، الحركة العمالية فى مصر ، ص٢٠٩) أما الحزب النسائى الوطنى فقد أسسته بعض سيدات المجتمع المشتغلات بالخدمة الاجتماعية فى غضون عام ١٩٤٥ بقصد المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية وبحقوق المرأة السياسية وتولت رئاسته السيدة/فاطمة نعمت راشد (انظر/ منيرة حسنى ، أيام فى الهيئات النسائية ، القاهرة ١٩٥٥ ص ١٩) .

(٢) وثائق الحزب ، بيان مطبوع بعنوان « بيان هيئة تحالف حزب العمال المصرى وحزب الفلاح المصرى والحزب النسائى .

(٣) منيرة حسنى ، المرجع السابق ص٣٢ .

والجمعية الأخوان المسلمين ، فكان قادة تلك الهيئات يتبادلون الزيارات والتشاور حول المسائل السياسية فى المناسبات الهامة ويشاركون فى احتفالات بعضهم البعض . ومن ثم فان حزب الفلاح الاشتراكى كان مرتبطا بهيئات عرفت باتجاهاتها الفاشية .

ومنذ ١٩٤٧ أخذ حزب الفلاح يوطد صلاته بالكتلة الوفدية وبالوفد المصرى وأن كانت علاقاته بالأخير يشوبها الفتور وخاصة خلال المعارك الانتخابية وأثناء وجود الوفد فى الحكم .

* * *

وتعددت مواقف حزب الفلاح الاشتراكى بالنسبة للقضية الوطنية ، فاشترك فى الحركة التى قامت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانيه للمطالبة باعادة النظر فى العلاقات بين مصر وبريطانيا ، فقدم مذكرة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٥ إلى السفير البريطانى أشار فيها إلى مابذلته مصر من تضحيات وما قدمته من مساعدات الحلفاء من أجل تحقيق النصر فى الحرب مطالباً بضرروة صدور تصريح رسمى من بريطانيا تحدد فيه موعد الجلاء وموعد بدء المفاوضات لارساء العلاقات بين الدولتين على أسس جديدة . وقدم مذكرة أخرى بهذا المعنى للسفارة البريطانية فى ذكرى عيد الجهاد (١٣ نوفمبر سنة ١٩٤٥). (١)

والتزم الحزب جانب الصمت بالنسبة لتطورات القضية الوطنية التى تلت ذلك التاريخ . فلم يحدد موقفه فى مفاوضات صدقى — بيفن (١٩٤٧) ويمكن إرجاع

(١) ملف الاحتفال بمرور سبع سنوات على تأسيس الحزب ، خطبة أحمد كامل قطب ١٨/١٢/١٩٤١ .

ذلك إلى ارتباطه بجبهة مصر التى كانت تؤيد حكومة إسماعيل صدقى وتوافق على خطتها السياسية .

وحينما استأنف النقراشى المفاوضات مع الإنجليز فى عام ١٩٤٧ وأصبح واضحاً أن تلك المفاوضات تسير فى طريق مسدود وظهر اتجاه يرمى إلى عرض القضية على مجلس الأمن ، بدأ حزب الفلاح ينشط للعمل فى هذا المجال فسافر رئيسه إلى السودان فى مايو ١٩٤٧ فى محاولة للتوفيق بين الأحزاب السودانية التى تدعو للوحدة مع مصر وتلك التى تدعو إلى استقلال السودان ، وأخذ يعقد الاجتماعات ويخطب داعياً إلى وحدة وادي النيل ونبذ الخلافات ، ولكن السلطات الإنجليزية فى السودان ألقت القبض عليه وقدمته للمحاكمة ثم قامت بإبعاده عن السودان .

وبعد عودة قطب من السودان كان قد تقرر عرض القضية الوطنية على الأمم المتحدة ، فأعلن الحزب عن فتح باب الاكتتاب لجمع نفقات سفر قطب إلى أمريكا للدعاية للقضية الوطنية أثناء عرضها على مجلس الأمن . فسافر بالفعل فى أغسطس . كما سافر فى نفس الوقت مصطفى مؤمن ممثلا للاخوان المسلمين ، وأحمد حسين ممثلا لحزب مصر الفتاة لنفس الغرض .

وتمثل الأسلوب الدعائى الذى اتبعه ممثل حزب الفلاح وممثل الإخوان المسلمين فيما أثاره من صخب ومقاطعة لمناقشات الجمعية العمومية أثناء انعقاد الجلسات — من شرفة النظارة — بالخطابة والمطالبة بحرية وادى النيل . وهو أسلوب أثار سخط الأعضاء وأدى إلى إخراج الوفد المصرى الذى كان يرأسه رئيس الوزراء (محمود فهمى النقراشى) حتى أن الأخير تشاجر مع أحمد قطب فى ردهات المجلس وتبادل معه الشتائم على مرأى من وفود الدول كما أدى إلى استياء رجال الأمم المتحدة أنفسهم حتى أن ستونمان مساعد السكرتير العام قال لهما « أنتما تتصرفان تصرف

الأطفال ولا تكسبان شيئاً يفيد القضية » (١).

كما وزع أحمد كامل قطب على مندوبى الصحافة وأعضاء الوفد نص المذكرة التى قدمها لرئيس مجلس الأمن والتى طالب فيها بجلاء الانجليز عن وادى النيل وهدد بإن الشعب المصرى سوف يعمل على تهديد السلام العالمى فيما إذا — لم تتحقق رغبته فى الحرية والاستقلال ووحدة أرضى وادى النيل (١).

ونظم قطب مظاهرة بالاشتراك مع مصطفى مؤمن (٢٨ أغسطس) ضمت بعض العمال الأمريكيين العاطلين وبعض العرب. وحاول المتظاهرون اقتحام مقر مجلس الأمن هاتفين بسقوط الاستعمار مطالبين بجلاء الانجليز « النازيين الجدد » عن مصر والسودان (٢).

كذلك نظم قطب ومؤمن مظاهرة داخل إحدى دور السينما بنيويورك ضد فيلم دعائى عن السودان يخدم وجهة النظر البريطانية، فخطبا فى المتفرجين وألقوا عليهم منشورا يحمل ردا على ما جاء بالفيلم (٣).

لقد حققت الطريقة التى اتبعها ممثل حزب الفلاح للدعاية للقضية الوطنية لفت الأنظار إلى شخصه لا إلى القضية الوطنية. وان كانت قد أثارت اهتمام بعض الصحف الأمريكية فذلك لأنها المرة الأولى التى يحدث فيها مقاطعة أثناء انعقاد جلسات مجلس الأمن.

---

(١) The Newyork Herald Tribune, 27—8 1947.
(٢) نص المذكرة باللغة الإنجليزية بتاريخ ١٩٤٧/٨/٢.
(١) الأهرام ١٩٤٧/٨/٢٠
(٢) مصطفى مؤمن — صوت مصر. دار الكتاب العربى. القاهرة ١٩٥١، ص ٣٢١ — ٣٢٤.

ومهما يكن الأمر فقد استقر رأى مجلس الأمن على إبقاء القضية معلقة ودعوة الطرفين المعنيين إلى إعادة فتح باب المفاوضات بينهما . مع بقاء القضية معلقة أمام المجلس يعيد النظر فيها فى حالة طلب أحد الطرفين .

على أن النتيجة التى انتهت إليها تجربة عرض القضية على مجلس الأمن جعلت حزب الفلاح يعيد النظر فى الأسلوب التى اتبعته مصر فى المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن أراضيها فرأى أن سبب ما منيت به البلاد من فشل يرجع إلى اعتمادها على الدول الاستعمارية وحدها . فماذا إذا جربت الاستعانة بالدول الاشتراكية .

ومن هذا المنطلق قدم قطب مذكرة(١) إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٨ طالباً السماح له بالسفر إلى الاتحاد السوفييتى لدراسة أساليب الحياة الاجتماعية هناك لمدة ثلاثة شهور . وكان قد سبق ذلك بإعلان اعتزامه السفر إلى الاتحاد السوفييتى للسعى فى توثيق العلاقات بين مصر وروسيا سياسياً وتجارياً لضمان التخلص من الارتباط بعجلة الاستعمار ، وأن مصر لو اتجهت إلى الدول الاشتراكية فلا بد أن تتبعها بقية الشعوب العربية وبذلك يتعرض أمن الاستعمار للخطر .

ورغم أنه كان من المشكوك فيه أن تؤدى هذه الفكرة إلى نتيجة إيجابية فيما إذا سافر قطب إلى روسيا . فإن الحكومة سارعت بإصدار أمر يقضى بمنعه من مغادرة البلاد إلى أى جهة من الجهات . ولم يفكر الحزب فى معاودة الاتصال بالسوفييت مرة أخرى .

---

(١) وثائق الحزب : نص المذكرة باللغة الانجليزية . وقد تضمنت المذكرة معلومات عن الاتجاه السياسى ونبذة تاريخية عنه وزعمت المذكرة أن للحزب فروع ولجان فى ألف قرية مصرية وهى تشكل ٥٠٪ من القرى المصرية .

وحين قامت حكومة السودان بإنشاء جمعية تشريعية بالسودان ، وتصدت للمظاهرات التى قامت للاحتجاج على هذا العمل واعتقلت أعضاء مؤتمر الخريجين العام بالسودان . أرسل إسماعيل الأزهرى — رئيس المؤتمر — برقية احتجاج إلى جميع الأحزاب السياسية فى مصر يصف فيها الموقف فى السودان ويطالب كلا من تلك الأحزاب بالقيام بعمل إيجابى لإيقاف ما يعانيه الوحدويون من إرهاب .

واستجاب حزب الفلاح الاشتراكى لهذا النداء . فشكل وفدا من أربعة من أعضاء مجلس إدارته توجهوا إلى دار السفارة البريطانية بالقاهرة وقدموا احتجاجا على ما تقوم به السلطات البريطانية فى السودان ثم صمموا على احتلال دار السفارة حتى تجاب طلباتهم . ولما لم تجد محاولات رجال السفارة لإقناعهم بمغادرتها استدعت السفارة البوليس المصرى فقام بإجلائهم عن السفارة وأجرت النيابة تحقيقا معهم ثم أطلقت سراحهم(١) .

على أثر قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بادر حزب الفلاح الاشتراكى بتأييدها وقدم مذكرة إلى اللواء محمد نجيب (فى أول أغسطس) حذر فيها رجال الثورة من ألاعيب السياسة الاستعمارية التى لا تنظر إلى حركة الجيش بعين الارتياح كما حذرهم من السياسة الحزبية الرجعية التى مكنت الإستعمار والطغاة من البلاد(٢) .

---

(١) وثائق الحزب ، بيان مطبوع عن حادث السفارة مرفق به نص المذكرة التى قدمت إلى السفارة فى ١٩٤٨/١١/٢٩ .
(٢) الأهرام ١٩٥٢/٨/٢ .

وفى اليوم التالى قدم الحزب مذكرة إلى على ماهر رئيس الوزراء عرض فيها المطالب الآتية (١) :

(١) وضع دستور جديد للبلاد عن طريق تأليف جمعية وطنية تأسيسية من جميع عناصر الأمة وطوائفها .

(٢) حل جميع الأحزاب السياسية وإعادة تأسيسها من جديد على أسس وبرامج واضحة .

(٣) استمرار الحكم العسكرى حتى يتم وضع الدستور .

(٤) المبادرة بالقيام بالإصلاحات الاقتصادية العاجلة بتحديد الملكية وتخفيض الإيجارات وتقريب الفوارق بين الطبقات والقضاء على امتيازات الرأسمالية والارستقراطية ورفع مستوى المعيشة للطبقات الفقيرة وتوفير المساكن الشعبية .

(٥) تحقيق المطالب الوطنية بأن تقوم العلاقات بيننا وبين بريطانيا على أساس القواعد الدولية العامة وفى حدود ميثاق الأمم المتحدة .

كذلك توجه وفد من أعضاء الحزب (١٣ أغسطس) إلى قيادة الجيش وقدم مذكرة طالب فيها بتحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا وتأميم مايزيد على هذا القدر وتخفيض الإيجارات الزراعية بنسبة ٤٠ ٪ وإلغاء الإيجار العينى وعدم إخلاء المستأجرين الأطيان(٢) .

---

(١) وثائق الحزب نص المذكرة .
(٢) الأهرام ١٩٥٢/٨/١٣ .

وبعد صدور بيان رئيس الوزراء الخاص بالمباحثات التى دارت بين الحكومة وكبار الملاك بشأن تحديد الملكية الزراعية . أصدر حزب الفلاح بيانا أعلن فيه ضرورة تحديد الملكية بخمسين فدانا مع التصرف فى الزيادة عن طريق تكوين جمعيات تعاونية أو مزارع جماعية لإدارتها على أساس اشتراكى على أن تكون الأرض ملكا للدولة . مع ضرورة إصدار قانون بتحديد الحد الأقصى لإيجار الأراضى الزراعية(١) .

ويلاحظ أن موقف الحزب من الثورة كان موقف التأييد المطلق . وأن الأفكار التى طرحها لحل المشكلة الزراعية كانت أفكارا تقدمية . وإن كان اتخاذ رجال الحزب موقف الناصح الأمين لرجال الثورة وطعنهم فى الأحزاب السياسية الأخرى — رغم ما عرفوا به من الحرص على كسب ود جميع الأحزاب قبل الثورة يجعلنا نشك فى أن الدافع وراء هذا الموقف من جانب رجال حزب الفلاح هو ما كانوا يأملون فيه من إتاحة الفرصة لهم — فى ظل العهد الجديد — لتوسيع نشاطهم السياسى على حساب الأحزاب الأخرى .

لقد كان حزب الفلاح الاشتراكى يمثل اتجاه فريق من المثقفين — الذين ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة — الذين يدعون إلى الترويج لدعوة إصلاحية هدفها تحقيق « العدالة الاجتماعية » لجماهير الفلاحين دون المساس بالنظام الاجتماعى الذى كان قائما وقتئذ . ثم اتسعت آفاق رجال الحزب إلى الحد الذى جعلهم يؤمنون بالحل الاشتراكى كعلاج لتناقضات المجتمع

---

(١) المرجع السابق ١٩٥٢/٩/٦ .

المصرى من منطلق راديكالى وليس من منطلق ماركسى . ولعل ذلك يفسر عدم اهتمام الحزب بتنظيم الفلاحين للقيام بنضال جماعى لتحقيق مطالبهم الاقتصادية . وحرص رجال الحزب على عدم الاصطدام بالسلطة ومهادنة الأحزاب الأخرى فى الوقت الذى قامت فيه صلات قوية بينهم وبين شخصيات وأحزاب عرفت بميولها الفاشية . ورغم ذلك فقد ظل الحزب ملتزما خطه الأساسى من حركة إصلاح اجتماعى .

(المصادر)

* وثائق الحزب ، وهى عبارة عن مجموعة أوراق وسجلات يحتفظ بها الأستاذ أحمد كامل قطب المحامى .

* أحمد حسين ، أزهار ، قصة مصر فى الثلاثينيات ، دار القلم القاهرة ١٩٦٢

* رؤوف عباس ، الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ — ١٩٥٢ دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ .

* محمد حسين هيكل — مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ٢ القاهرة ١٩٥٣ .

* محمد زكى عبد القادر — أقدام على الطريق . دار الكاتب العربى — القاهرة ١٩٦٧ .

* مصطفى مؤمن — صوت مصر — دار الكتاب العربى — القاهرة ١٩٥١ .

* منيرة حسنى — أيام فى الهيئات النسائية — القاهرة ١٩٥٥ .

* الهلال — أكتوبر ١٩٦٤ .

* العصور — أكتوبر ١٩٢٩ .

* الامام — يناير ١٩٣٣ .

* النضال — ١٩٣٩ .

* مصر — ١٩٤٨ .

* الأهرام — ١٩٣٩ — ١٩٥٢ .

The Newyork Herald Tribune August 1947.

نصوص ووثائق

[illegible]

الترجمة العربية

لمخطوط يشوع العمودى

تاريخ أيام المحنة التى حلت
بالرها وآمد وجميع ما بين النهرين
فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى

* * *

للدكتورة زاكية محمد رشدى
الأستاذة المساعدة بكلية الآداب — جامعة القاهرة

مقدمة

كان الراهب يشوع العمودى — من أصحاب الطبيعة الواحدة — من أهم مؤرخى السريان . عاش فى أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل السادس . ولا نعرف عنه إلا أنه كان ينتمى إلى دير زيقونين بجوار آمد ، ثم أقام فى بداية القرن السادس فى الرها . وقد كان يسمى يشوع العمودى نظرا للمذهب الذى اتبعه فى مستهل حياته وهو الزهد والتقشف والبعد عن مباهج الدنيا والتعبد فوق عامود .

سجل يشوع تاريخه هذا سنة ٥٠٧ ميلادية أى بعد انتهاء الحروب التى دارت بين الفرس والروم مباشرة . وقد بدأ الكتاب باهداء طويل إلى رئيس الدير سرجيس نزولا على رغبته وتلبية لطلبه مع أنه لم يكن يعرف معرفة جيدة مع من يتراسل ولم يشاهده سوى مرة واحدة إلا أنه كان يكن له احتراما ويقدره كل التقدير ، وكان يعتبر مطالبه وكأنها أوامر ومن الجرأة ألا يخضع لها .

ثم اتبع الإهداء بتلخيص مقتضب للحوادث التى وقعت بعد وفاة يوليانوس أى فى أواخر القرن الرابع سنة ٣٦٣م والتى كانت أسبابا ومقدمات للأحداث والحروب التى وقعت بعد ذلك فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين . ثم تعرض الكاتب — بعد هذه التقدمة — بشكل أوسع لعهد فيروز (٤٥٧ — ٤٨٤م) وبلاش

(٤٨٤ — ٤٨٨ م) ملكى الفرس . ثم اتبع ذلك كله بموضوع الكتاب وهو عن تاريخ العلاقات المضطربة بين الأمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية من ٥٠٢ — ٥٠٦م . وهو فى هذا كله يصف ويوضح المصائب العديدة التى حلت ببلاده نتيجة لتلك الحروب .

يعتبر كتاب يشوع هذا واحدا من أعظم مصادر المعلومات عن هذه الحقبة من التاريخ الفارسى والبيزنطى ، ولعل مما يعطيه قيمة أكثر أنه لم يكن مجرد سرد حكاية عن الأحداث التى أرخها كل الكتاب الذين سبقوه بل أنه يقارب كثيرا تاريخ زكريا أسقف ملطية لأنه كتب بواسطة كاتب عاش على مسرح الحرب واستطاع أن يصور بقلمه الحوادث التى يتكلم عنها . فقد عاش يشوع وسط الجيوش الفارسية والرومانية وشاهد معاركهم وتابع عملياتهم ، وشاهد خسائرهم وتقاسم معهم آلامهم حتى ما لم يشاهده بنفسه استطاع أن يعثر عليه جيدا بواسطة الكتاب الذين شاهدوا هذه المآسى . وعلاوة على ذلك فإن أغلبية الحوادث التى وقعت كانت فى بلده ، وعلى الأرض التى كانت معروفة له جيدا ، والتى كان لديه بالنسبة لها اهتمام خاص من جانبه . والتفاصيل التى عرض لها تظهر جيدا أنه عاش وتحمل جميع المآسى والآلام التى كابدها وطنه فنجده يتحدث عن الأشخاص والأماكن والأشياء بدراية تامة . ومن هنا فإن أخباره عن العمليات الحربية تعطى تفصيلات وافية ذلك أن الكاتب كان أليفا للأماكن فقد كان يصاحب الجيوش ويصف خطواتها ولهذا فإن تاريخ يشوع له أهمية عظمى بالنسبة لهذا العصر ، وهو يكمل ويصحح جميع المصادر التاريخية الأخرى .

ونحن لن نجد تاريخا للأحداث التى مرت ببلاد ما بين النهرين أدق وأصدق من تاريخ هؤلاء السريان فتلك بلادهم ، وهم الذين اصطلوا بويلات الحروب وهم

الذين أرخوا لها ، وكل ما كتب العرب والفرنجة ما هو إلا ترجمة لمؤلفات هؤلاء السريان ومنهم مثلا الطبرى(١) وحمزة الأصفهانى(٢) .

إن عمل يشوع هذا لايبدو أنه عرف جيدا بين المسيحيين فى آسيا فإذا قارنا مختلف الروايات فيما بينها فإننا نجد أن المؤرخين اليونان :
كانوا هم أكثر المصادر مثل Evagre Zacharie .
شيوعا بين مؤرخى القرون الوسطى . وعلى سبيل المثال فان ابن العبرى قد اتبع زخارى أكثر من يشوع مع أن تاريخ يشوع يشتمل على صفحات أكثر قيمة من زخارى ، وسوف يجد القارىء أن بهذا الكتاب بعض التفصيلات القيمة للجغرافيا والتاريخ والسياسة واستراتيجية الفرس والروم. والصفحات الأخيرة لهذا الكتاب تشكل بلا شك واحداً من أحسن الأجزاء للمؤرخين السريان والمؤرخين الشرقيين .

وفى هذا المخطوط بعض الخصائص الجدرة بالاعتناء يمكن أن يقال أنها أهل لجذب الأنظار فمثلا علامات جمع المذكر والمؤنث غالبا محذوفة ، والانتقال من المذكر إلى المؤنث ومن المؤنث إلى المذكر فى الأفعال والضمائر والصفات غالب فيه . والضمائر غالبا ماتتحد بالفعل بعد حذف الحروف الضعيفة أو حروف المد . ونظام النقط وعلامات النبر منفذة بقليل من العناية . أما أخطاء الناسخ فقليلة ولكنها ليست خطيرة وليست من الكثرة بحيث تمنع الإفادة من المخطوط أن صححت .

---

(١) الطبرى : الجزء الثانى من الطبعة المصرية .
(٢) حمزة الأصفهانى فى الكتاب الناشر من تاريخه . بطرسبرج سنة ١٨٤٤ — ١٨٤٨ .

ولولا ديونيسيوس التلمحرى لضاع هذا التاريخ من الوجود إذ ضمه إلى مختصر تاريخه وعنه نشره رايت فى كتابة « تاريخ يشوع العمودى » كما نشره السمعانى فى مكتبته الشرقية المجلد الأول من ص٢٦٢ — ٢٨٣ ، ولم تظهر النسخة السريانية الكاملة لهـذا النص قبل سنة ١٨٧٦م حينما نشرها رئيس الديربول مارتن لجمعية النشريات الألمانية . وقد أحضر موسى النصيبينى هذا المخطوط إلى دير النطرون فى سنة ٩٣٢م بعد زيارته بغداد ورحلته فى العراق .

وقد قمت بترجمة هـذا المخطوط عن النص الذى نشره رايت(١) وتوخيت فى ترجمتى هذه الدقة فجاءت ترجمة حرفية إلى حد ما لالبس فيها ولا غموض ، واستعنت على ذلك بوضع بعض الـكلمات المفسرة للمعنى بين قوسين ، كما وضعت كل فقرة على حدة تحت رقمها الموجود فى الأصل حتى يسهل الرجوع إليه . ولاحظت فى المخطوط السريانى وجود بعض الأخطاء قمت باصلاحها ، وكنت أتمنى أن أقوم بنشر المخطوط الأصلى مبينة فى هوامشة هذه الإصلاحات وأصلهـا ، ولـكن عدم وجود حروف المطبعة السريانية فى الجمهورية العربية المتحـدة هو الذى قصر جهـدى عن نشره وربمـا يتسنى لى فى يوم ما أن أقوم بنشره ، وذكرت فى نهاية الترجمة الـكتب والمراجع التى تناولت الحديث عن يشوع العمودى وعن مخطوطه .

---

(1) W. wright, The chronicle of Joshua the stylite, cambridge 1882.

تاريخ ايام المحنة

التى حلت بالرها[1] وآمد[2] وجميع ما بين النهرين

I — استقبلت كتب قداستك يامحب الله ياسرجيس يا أفضل الرجال والقسس ورئيس الدير : تلك الكتب التى أمرتنى فيها أن أكتب لك كتذكرة ، أن متى جاء الجراد ، ومتى أظلمت الشمس ، ومتى حدث الزلزال والمجاعة والطاعون وحرب الروم (٣) والفرس . ومع هؤلاء كتبت مدائح كثيرة عن تلك التى جعلتنى فى حياء كثير بينى وبين نفسى ، بينما لا يوجد — فى الواقع — منها واحدة عندى . والآن اكتب تلك (المدائح) التى (تليق) بك ، ولكن لن تستطيع بصيرتى أن تختبر أو ترى ثوب المعجزة — كما هو على حقيقته — الذى نسجته لك والبستك إياه إرادتك النافذة لأنه قد ظهر بوضوح أن قلبك يغلى بحب العدالة ، وذلك لعنايتك ليس فقط بالاخوان الذين تحت إشرافك فى هذا الزمن ، ولكن أيضا بكل محبي التعاليم المستعدين للدخول إلى هيكلك المبارك . وبواسطة هذه الخطابات تريد بعنايتك أن (تخلد ذكرى) ، العقوبات التى حدثت فى ازمنتنا بسبب خطايانا . فعندما يقرأ (الناس) ويرون ما حدث لنا يتجنبون خطايانا ، ويتخلصون من عقوباتنا ،وليعجب الإنسان من غزارة حبك الذى يفيض على كل الناس فهو ليس بناقص ولا نهاية له ، ولا استطيع أن أصفه كما هو إذ لم ألمسه بنفسى ، وكذلك لا استطيع أن اقص عنه من تجربة واحدة معك .

(١) مدينه بالجزيرة بين الموصل والشام ويطلق عليها اليونان أودسيا وتدعى الآن إورفة.
(٢) وتدعى الآن ديار بكر .
(٣) وكان السريان والعرب يطلقون هذه التسمية وهى الروم على اليونان البيزنطيين .

II — وقد ارتبطت عندى بالحب مثل يوناثان المحب الصديق، ولم تكن تلك كبيرة مثل هذه . فتلك نفس يوناثان قد ارتبطت بنفس داود عندما رأى أن رجلا جباراً (جوليات) قتل بيديه وأن معسكرا انهزم ، فهو قد أحبه بسبب هذه الحسنات . ولكنك احببتنى أكثر من نفسك ، وأنت لم تر فى شيئاً جميلا . لم يكن عجباً إنقاذ يوناثان لداود من الموت على يدى شاؤل إذا قورن بإنقاذك لأنه كافأه بشىء كان (دينا) عليه . فقد خلصه أولا من الموت ووهب له الحياة هو وجميع بيت أبيه حتى لا يموتوا بيدى الفلسقى (جوليات) ولو أن مثل تلك الأعمال لم تعمل منى لك ، إلا أنك تقوم فى كل وقت شفيعا عند الله دونى ، لأتخلص من الشيطان حتى لا يقتلنى بالخطايا . ولكن هكذا يجب أن يقال ، أنك أحببتنى محبة داود لشاءول ، وهكذا أنت نشوان بكثرة محبتك حتى أنك من غليان حبك لست تعرف حتى أى هو مقدارى ولكنك تظن أن فى أشياء هى بعيدة عنى ففى الماضى كنت تمد نفسى بالتعليم الذى كانت تحتويه خطاباتك، وهكذا كنت مهتما بى على مثال الآباء الذين لا يتمتعون بشىء من أبنائهم ولكنهم يهتمون بالأشياء التى يطلبونها منهم . أما اليوم فأنك بحصافتك قد تواضعت ، وطلبت منى أن اكتب لك عن أشياء تفوق قدرتى ، وأنت تريد أن تعرفها منى ، وأنا لا أستطيع أن أعتذر عن رجائك وأنى مطيع لكل ما أمرت .

III — أما الآن فاعلم ، أنى عندما رأيت تلك العلامات التى حدثت والعقوبات التى وقعت بعدها ، فكرت أنها تستحق أن تقيد وأن تحفظ فى سجل وألا تترك للنسيان ، ولما رأيت ضعف ذاكرتى وجهالة نفسى تجنبت ذلك. أما الآن وقد أمرتنى أن أفعل هذا فانى فى خوف من ذلك كرجل لا يعرف العوم جيداً، وقد أمر أن ينزل إلى عمق المياه وأنى لمعتمد على صلواتك المعينة التى ترسلها دائما إلى الله عنى . وأنى

لموقن أن سيحفظنى من الغرق ، وسأنزل ألى اليم الذى القينى فيه ما دمت ساعوم فى ضحاله على قدر استطاعتى لأن أعماقه لا تكتشف . فمن الذى يستطيع أن يقص كما يجب عن تلك (الآيات) التى عملها الله بحكمته لإبطال الخطايا ومحو الآثام . فان حقيقية الفعل الإلهى قد خفيت حتى على الملائكة . وتستطيع أن تعرف هذا من مثال الزوان الموجود فى الإنجيل(١) فلما قال العبيد لرب البيت أتريد أن نذهب لنجمعه قال لهم العارف بالأشياء على حقيقتها أن لا لئلا تقلعوا الحنطة معه وأنتم تجمعون الزوان ، فنحن نقول هذا بالنسبة لعلمنا فإنه لكثرة خطايانا استمر تأديبنا ولولا أن عناية الله تحيط بالعالم كله حتى لا يفنى لكان من المحتمل أن تتلاشى حياة جميع الناس ولم يحدث بأى من الأيام كرب شديد الوطأة كهذا الذى حدث فى هذه الأيام التى نعيش فيها ، ولأن أسبابه لم تزل فإنه هو أيضا لم يزل . ومع ما رأينا بعيوننا وسمعنا بآذاننا وفيه نعيش ازعجتنا أخبار من قرب ومن بعد ، والفظائع التى حدثت هنا وهناك . زلازل قوية تقلب المدن ، ومجاعات ، وطاعون وحروب ، واضطرابات وسبي وإجلاء مقاطعات ، وتهديم كنائس واحراقها . ولما كانت هذه الأشياء ، قد أدهشتك بكثرتها فقد أرسلت إلى أن اكتبها فى كلمات حزن وألم يتعجب لها القارئون والسامعون . وأعلم أنك قلت هذا من غيرتك على الأشياء الجميلة حتى يندم الذين يسمعونها فيقتربون من التوبة .

٤ — ولكن أعلم أنه شيء واحد للرجل لكى يكتب بحزن وشيء آخر (ليكتب) بحق فان أى رجل منح الفصاحة يستطيع — إذا أراد — أن يكتب قصصاً حزينه كثيبة .

ولكننى رجل واضح فى الكلام . وأنا اسجل فى هذا الكتاب هذه الأشياء

(١) متى ١٣: ٢٤ — والزوان نوع من الحبوب

التى يقرر عنها جميـــع الناس فى أقليمنا أنها الحقيقة . وتـكون للذين يقرأون أو يسمعون إذا اختبروها ـ إذا أرادوا ـ أن يطلبوا الغفران . ولـكن ربما يقول إنسان ما الفائدة التى تعود على من يقرأ هذه الأشياء، إذا لم يختلط التحذير بهذه الـكلمات وأنا من جانبي كواحـد لا يستطيع أن يفعل هذا ، أقول أنه يكفي هذه العقوبات التى حلت بنا أن تـكون رادعة لنا ولمن بعدنا وتعلمنا بتذكرتها وقراءتها أنها حلت بنا بسبب خطايانا ، وإذا لم تعلمنا هذا فإنها تـكون عديمة القيمة، ولـكن هذا لا يقال لأن التعليم عادة يعلمنا النظام ومن أجل خطايانا حلت بنا (الـكوارث) ، وكل المؤمنين تحت السماء يشهدون (بذلك) طبقا لـكلام الطيب بولس الذى يقول(١): «ولـكن إذ قد حـكم علينا نؤدب من الرب لـكى لا ندان مع العالم» ، لأن كل أعمال الناس يعاقب عليها فى هذا العالم لـكى يبتعدوا عن خطاياهم وتـكون محتملة إذا حم القضاء ، وبالنسبة لهؤلاء الذين عوقبوا بسبب الخطاه ، ولو أنهم هم لم يكونوا خاطئين فسوف تزاد حسناتهم إلى الضعف . ولـكن هناك رحمة فى كل وقت حتى لهؤلاء الذين لا يستحقون، من أجل رحمة وعطف وتحمل الإله ـ الذى يريد أن يظل هذا العالم ـ يجب أن يبقى حتى ذلك الوقت المحدد فى علمه بدون خطأ . وأن هـــذه الأشياء واضحة من شـواهد الـكتب المقدسة ومن تلك (الأشياء) التى تجمعت لدينا والتى نعزم على كتابتها .

٥ ـــ ها قد قاسينا شدة المجاعة والطاعون فى زمن الجراد حتى أوشكنا على الدمار ولـكن رحمنا الله ، بينما نحن لا نستحق ، ووهبنا قليلا من الراحة من المصائب التى كتبت علينا ، وهذا كما قلت من أجل طيبته ، ولـكنه قد بدل عذابنا من

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثه اصحاح ١١ آية ٣٥

بعدأن تنفسنا وضربنا بيدى الاثورى (١)الذى دعى سوط الغضب ، وأنا لاأستطيع أن أنفى أرادةالفرس المطلقة (علينا) عندما أقول أن الله قد ضربنا بايديهم ، حتى ولا بعد الله ـ (استطيع) أن أقدم أى لوم على وقاحتهم ، بل على عكس ذلك ،فمن أجل خطايانا ـ لم يفرض عليهم (الفرس) أية عقوبة ـ قد سجلت أنه ضربنا بايديهم فارادة الشعب السيء تظهر بوضوح . ولهذا فهم لم يرحموا هؤلاء الذين خضعوا لهم لأنهم قد اعتادوا أن يفرضوا سلطانهم فرحين بالشر الذى يحيق بالناس . وقد عنفهم النبي على هذا وقال — لأنه قد تنبأ بخراب بابل — حسب قول الرب(٢) : « غضبت على شعبي الذى دنس وصيق وقد سلمتهم لك فى يدك ، وأنت لم تريهم أية رحمة » . وكذلك أسيء إلينا — بلا رحمة — كما تعودنا ، ولو أن سوط العذاب لم يصل أجسامنا . كما لم يستطيعوا أن يتسلطوا على مدينتنا ، لأنه من غير المستطاع أن يبطل وعد المسيح الذى وعد الملك المؤمن ابجر قائلا « سوف نبارك مدينتك ولن يتسلط عليها عدو أبدا » وذلك بسبب المؤمنين الذين سلبوا واسروا وقتلوا وابيدوا فى المدن الأخرى التى احتلت ، والذين كانوا كوحل الطرقات وذاقوا المآليس القليل . كل هؤلاء الذين تعلموا كيف يتألمون مع الذين تالموا ، أما الذين كانوا بعيدين عن هؤلاء فقد تعذبوا بالخوف على حياتهم لعدم ايمانهم ، إذ تصوروا أن العدو قد يسيطر على الرها كما (فعل) فى المدن الآخرى التى سوف اكتب لك عنها فيما بعد .

٦ — فمن أجل كلمة سليمان الحكيم (٣) «نشبت الحرب بسبب السيد ط»فأأنت

---

(١) أشعيا : أصحاح ١٠ آية ٥ .
(٢) أشعيا : ٤٧ : ٦
(٣) الأمثال ٢٤ : ٦

تريد أن تعرف ماهى أسباب السخط ، واريد أن أعرفك باختصار من اين جاءت الأسباب مع أنه قد يظن انى اتكلم عن أشياء قد مضى زمنها . فبعد قليل سوف أخبرك منذ متى قويت هذه الأسباب . فبالرغم من أن الحرب قد شنت علينا بسبب خطايانا إلا أنه من أجل أشياء واضحة نشأ السبب . تلك هى التى اريد أن اقصها عليك ، لكى تستطيع أن تكون على علم بهذا الموضوع ولا تنساق وراء الاغبياء فتلوم صاحب السلطان الملك المؤمن انستاس لأنه لم يكن هو السبب فى الحرب ، ولكن منذ زمن بعيد كان السخط عليه كما ستجد أنت من الايضاحات التى سا كتبها لك .

٧ — فى سنة ٦٠٩ (٢٩٧/٨ م) (١) استولى الروم على مدينة نصيبين (٢) وكانت تحت سلطانهم خمسا وستين سنة . وبعد موت يوليانوس — الذى مات بفارس فى سنة ٦٧٤ — ملك على الروم يوفينيانوس الذى وقر السلام على كل شىء ، ولهذا جعل الفرس يتسلطون على نصيبين مدة مائة وعشرين سنة ، ثم يعيدونها إلى اصحابها بعد ذلك . وانتهت هذه (السنوات) فى أيام زينون (٣) ملك الروم . ولم يقبل الفرس إعادة المدينة فأثار هذا الامر النزاع .

---

(١) يبدأ تاريخ الاسكندر أو تاريخ اليونان با كتوبر سنة ٣١٢ ميلادية .

(٢) نصيبين : بفتح النون وكسر الصاد المهمله وسكون المثناه من تحتها ثم باء موحده وياء ثانيه ونون وهى مدينة من ديار ربيعه من الجزيرة على طرق القوافل من الموصل إلى الشام وفى شماليها جبل عظيم يقال أنه الجودى الذى أستقرت عليه سفينة نوح عليه السلام منه ينزل نهرها حتى يمر على سورها وعليه بساتينها ، ونهرها يسمى الهرماس .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص٣٢٢) و (ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٧٨٧)

(٣) ملك على الروم بعد لاون الكبير ثمانى عشرة سنة .

٨ — وقامت معاهدة بين الروم والفرس على أنه إذا احتاج أحدهما إلى صاحبه ـ إذا نشبت الحرب بينهما وبين واحدة من الأمم ـ أن يساعد أحدهما الآخر بأن يعطيه ثلاثمائه رجل قوى مع سلاحهم وخيلهم أو أن (يعطيه) ثلاثمائة شاقل بدل كل رجل وذلك تبعا لرغبة الجانب المحتاج . ولم يحتج الروم بعون الله سيد الكل إلى مساعدة الفرس وقام الملوك المؤمنون بالملك منذ هذا الزمان حتى الآن . وتقوى سلطانهم بعون من السماء أما الفرس فارسلوا رسلا لياخذوا ذهبا من أجل حاجتهم ، ولم ياخذوها بحسبانها جزيه كما توهم الكثيرون .

٩ — وفى أيامنا حمل فيروز (١) ملك الفرس ذهبا من الروم مرات كثيرة من أجل الحرب التى وقعت بينه وبين الكوشيين وهم الهونيون . ولم يكن اطلب الضريبة ولكن أثارة لحميتهم لكى يقوموا بالحرب بدلا عنهم حتى لايعبروا إلى بلادكم . والذى أظهر صدق طلبه هو الخراب والسبى الذى عمله الهونيون بين الروم سنة ٧٠٧ أيام الملوك انوريس وأرقديس ابناء تاودوسيوس الكبير (٢) . وقد سلمت لهم كل سوريا بواسطة خداع روفينا الحاكم وضعف أدى القائد .

---

(١) عن فيروز: أنظر تاريخ الفرس والعرب عن تاريخ الساسانيين وهو مترجم عن الطبرى ص ١١٧ والهامش رقم ٢ . وهو فيروز بن يزدجرد ملك بعد أخيه هرمز سبعا وعشرين سنة .

(٢) تاودوسيوس ويقال إنه «طودوشيوس» ملك سنة ٦٩٠ من ملك الاسكندر فأقام سبع عشرة سنة ، وفى الخامسة عشرة من ملكة ظهر أهل الكهف وأفاقوا من نومهم ، فأرسل فى طلبهم فوجدهم قد ماتوا فأمر أن تبنى عليهم كنيسة ويتخذ يوم ظهورهم عيدا . وفى أيامه كان المجمع بقسطنطينيه لمائتين وخمسين سنة من مجمع نيقية (القلقشندى : صبح الأعشى ج١ ص ٣٩٣)

١٠ — وبمساعدة الذهب الذي قبله فيروز من الروم استعبد الهونيين واستولى على أماكن كثيرة من بلادهم ووسع بها ملكه ، ولكنهم أسروه فى آخر الأمر ، ولما سمع زيتون ملك الروم ذلك أرسل ذهبا من عنده وخلصه وصالحه معهم ، وأقام فيروز للهونيين معاهدة ألا يعبر عليهم بعد ذلك حدود مملكتهم للحرب . ثم عاد فنقض معاهدته على مثال صدقيا إذ ذهب للقتال فوقع مثله فى ايدى اعدائه . وابيد كل جيشه وشتت واخذ حيا ، ووعد — بخيلاء — أن يعطى بدل خلاص حياته ثلاثين بغلا محملة زوازيا . وارسل إلى مكان سلطانه فجمعوا بالقوة عشرين حملا ولما كان قد اتفق كل كنز الملك الذى قبله فى الحروب الأولى فقد وضع عندهم بدل هذه الاحمال العشرة الأخرى ابنه قباذ ضمانا ورهينة حتى يرسل لهم (الاحمال) وأقام معهم معاهدة للمرة الثانية ألا يحارب مرة أخرى .

١١ — ولما عاد إلى ملكه فرض ضريبة (١) على كل أرضه وأرسل عشرة احمال زوازيا (٢) وخلص ابنه ثم جمع له جيشا وذهب للحرب . وقد تحققت فيه بالفعل كلمة النبي الذى قال (٣) «قد رأيت الشرير عاتيا وارفا مثل شجرة شارقة ناضره ، عبر فاذا هو ليس بموجود والتمسته فلم يوجد » فحينما وقعت الحرب والتحم الجيشان ابيدت كل قوته وبحث عنه ولم يوجد ، ولا يعرف ماذا كان من امره حتى يومنا هذا أن كان قد طمر تحت اشلاء القتلى أو أن كان قد قذف بنفسه (فى اليم) أو أن كان قد كمن فى تراب الأرض وهلك جوعا ، أو أن كان قد اختبأ فى الغابة واكلته الحيوانات .

---

(١) ضريبة النفوس والأعناق .
(٢) دراهم أو دراخمات .
(٣) المزامير ٣٧ : ٣٥ ، ٣٦

١٢ — وفي أيام فيروز اضطرب أيضاً ملك الروم ، وكان رجال البلاط يكرهون الملك زينون لأنه كان في جنسه اشوريا . وتمرد عليه بسيليقوس وملك بدله . وبعد ذلك تقوى زينون واستقر على ملكه . ولأنه جرب بغض الكثيرين نحوه أقام في بلده حصناً منيعاً حتى إذا حدث له شيء من الشر يكون له ملجأ . وكان له في هذا السر شريك وهو قائد أنطاكية (٢) الذي كان يسمى الوس وكان اسوريا . وقد اعتاد (الملك زينون) أن يعطى كل واحد من أبناء شعبه مراتب الشرف والسلطان . ومن أجل هذا اعتقد بغض الروم له .

١٣ — فلما أنجز الحصن بكل ما أراده ووضع به الوس ذهباً كثيراً بغير حساب، جاء إلى عاصمته لكى يخبر زينون أن قد أنجز رغبته . ولما كان زينون يعلم أنه خائن ويطمع في الملك أمر أحد أتباعه بأن يقتله . ومرت أيام كثيرة يتطلع فيها الذى صدر اليه الأمر إلى فرصة لقتله في الخفاء ولكنه لم يستطع ، ثم التقى بالوس داخل القصر فاستل سيفه ورفعه ليضربه وفي الحال ضربه أحد أتباع الوس المقربين بسكين في ذراعه فسقط السيف من يده فقطع أذن الوس . وفي الحال أمر زينون — حتى

---

(٢) مدينة عظيمة غربي حلب بشمال يسير على نحو مرحلتين منها . وهى قاعدة بلاد العواصم وهى على ساحل بحر الروم بناها بطليموس الثانى من ملوك اليونان ، وقيل بناها ملك يقال له أنطاكين فعرفت به . ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير في الدنيا مساحة دوره اثنا عشر ميلا ، عدد شرفاته أربع وعشرون ألفاً وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون برجاً ، وهى أنزه بلاد الشام بعد دمشق . وهى أحد كراسى بطاركة النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم . وقد قيل في قوله تعالى « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين » انها أنطاكية وأن ذلك الرجل « حبيب النجار » وقبره بها مشهور يزار .

(المرجع السابق : ج ٤ ص ١٢٩) .

لاتشيع خيانته تجاه الوس — بهذا التابع فقطعت رأسه بغير سؤال. وقد جعل ذلك الوس يعتقد كثيراً أن زينون هو الذى أمره . فقام ورحل من هناك و نزل أنطاكية . وقد قرر فى ذلك الوقت أن تكون له مكانا يأخذ فيه بالثأر .

١٤ — ولما كان زينون يخاف من الوس لعلمه بشره أرسل اليه رجالا مهرة إلى أنطاكية وأرسل له أن يصمد اليه ليؤكد له أن هذه الخيانة ليست من عنده وأنه لايريد قتله ، ولكنه لم يستطع إلا أنه عقل ألوس الجامد الذى احتقره ولم يرد أن يسمع لأمره ويذهب اليه وأخيراً أرسل زينون اليه قائدا آخر اسمه لونطيوس مع جيش تحت امرته وأمره بأن يصمده اليه بالقوة ، فان قام ضـده فليقتله فلما أتى (لونطيوس) أنطاكية تغير بذهب من الوس ، وأظهره على أمر القتل الذى أعطى له . فلما رأى الوس أنه لم يخف عنه شيئاً أطلعه على الذهب الكثير الذى تحت يده والذى من أجله يريد زينون أن يقتله . وحرص لونطيوس على أن يتشبه به ويتمرد معه . كما اطلعه على كره الروم لزينون . فلما اقتنع هذا استطاع الوس أن يكشف عن رغبته فهو لايستطيع أن يتمرد وحده كما (لايستطيع) أن يملك نفسه لأن الروم يكرهونه أيضاً من أجل أسرته ومن أجل عقله الجامد .

١٥ — عندئذ ملك لونطيوس بانطاكيه اسمـا إذ كان الوس هو مدبر الأمور — كما قال بعضهم — كما دبر قتل لونطيوس إذا تغلبوا على زينون . وكان يصاحبهم رجل داهية غير مخاص اسمه فنفرفيس وهو الذى أفسد كل أمورهم ثم عاد بالخداع. ولكى يستقر لهم الملك أرسلوا رسلا إلى الفرس مع ذهب كثير لكى يقيموا معهم معاهدة صداقة : إن طلبوا جيشاً للمساعدة يرسل لهم . ولما سمع زينون بما حدث فى أنطاكيه أرسل إلى هناك أحد قواده واسمه يوحنان مع جيش كبير .

١٦ — فلما سمع أنصار الوس ولونطيوس بالجيش الكبير الذى جاء عليهم هلعت قلوبهم وخاف الانطاكيون كذلك ألا يستطيعوا تحمل الحصار وصرخوا عليهم أن يخرجوا لهم من المدينة إذا استطاعوا ملاقاة الحرب . وقد أزعج هذا أنصار الوس

كثيراً وفكروا أن يخرجوا لهم من أنطاكية وأن يعبروا نهر الفرات إلى الشرق . وأرسلوا رجلا من عندهم اسمه مطرونينا(١) مع خمسمائة فارس ليمهد لهم إنشاء ملك في الرها. ولكن الرهاويين قاموا ضده وأغلقوا أبواب المدينة وحرسوا السور بأسلوب الحرب ، ولم يمكنوه من الدخول .

١٧ — ولما سمع أنصار الوس هذا اضطروا إلى ملاقاة يوحنان في الحرب ، ولم يستطيعوا (أن يتغلبوا) بهذا الجيش لأن يوحنان سقط عليهم بقوة وأفنى أكثر الجيش الذى معهم وأخيراً تفرق الباقون كل إلى بلده . ولأن هؤلاء لم يستطيعوا تحمل بطشه ساقوا من بقى عندهم والتجأوا إلى هذا الحصن الذى قلت عنه قبلا أنه كان منيعاً ومزودا بكل شىء . وتبعهم يوحنان ولم يدركهم . وعسكر حول الحصن وراقبهم ، فلما وثق هؤلاء من مناعته سمحوا لجيشهم بالانصراف تاركين عندهم المختارين والشجعان فقط . أما يوحنان فقد أطفأ غضبه بهؤلاء الذين نزلوا من الحصن . ولكنه لم يستطع أن يؤذى أنصار الووس بشىء بسبب صعوبة طبيعة مكان الحصن ولأنه كان محصنا بفعل الأيدى العجيبة ، ولم يكن له إلا طريق واحد للصعود اليه . ذلك الطريق الذى لا يمكن لاثنين أن يصعدا عليه معا لضيقه . وبعد زمن طويل لما استنفذ يوحنان كل حيله ، حدثت خديعة ضد أنصار الوس من الذين معهم فقيدوا وهم نائمون . وقتل الاثنان بأمر زينون مع هؤلاء الذين تبعوهم وقطعت أيدى كل من معهم . وهكذا كان الاضطراب في بلاد الروم أيام فيروز .

---

(١) أنظر المكتبة الشرقية ج ١ ص ٢٦٦ ع ١٠ ، حيث يكتبها السمانى ويكتبها رايت .

١٨ — وبعد أن بعد أن طلب فيروز ولم يوجد — كما كتبت لك من قبل — ملك أخوه بلاش(١) على الفرس. وكان رجلا متواضعا ومحباً للسلام. ولم يجد شيئاً فى خزينة الفرس فقد خربت بلده من سبي الهونيين. فلا يغيب عن حكمتك كم من المصروفات والنفقات يتكلف الملوك فى الحرب، حتى وأن كانوا منتصرين، وكم هى وهم مغلوبون. ولم يعط معونة من الروم من أى نوع كما أعطى أخوه. عندئذ أرسل رسلا إلى زينون يطلب منه مالا ولكن بسبب انشغاله فى الحرب ضد الوس ولونطيوس. ومن أجل أنه تذكر المال الذى أرسل منهم عند بدء ثورتهم تلك الثورة التى مازالت مستمرة فى فارس لم يرد أن يرسل له شيئاً ولكنه أرسل له: أن ضرائب نصيبين التى تسلمتها كافية لك وقد كانت منذ سنين بعيدة حقاً للروم.

١٩ — ولما لم يكن لدى بلاش مال ليحتفظ بفرسانه حقر فى اعينهم، كذلك كرهه المجوس لانه حاول أن يبطل قوانينهم، وأراد أن يبنى حمامات فى المدن للاستحمام، وحينما رأوا أنه لايساوى شيئاً فى نظر فرسانه اخذوه وفقأوا عينيه وملكوا مكانه (٢) قباذ أبن أخى فيروز الذى ذكرنا أسمه من قبل والذى ترك كرهينه عند الهونيين، والذى كان السبب فى قيام الحرب مع الروم لأنهم لم يعطوه ذهباً. ولقد أرسل رسلا وفيلا كبيراً كهديه للملك حتى يرسل له ذهبا، وعندما وصل الرسول إلى أنطاكية فى سوريا مات زينون وملك بعده انستاس وحينما أخبر سفير الفرس سيده قباذ بهذا التغيير فى ملك الرومان أرسل إليه أن يذهب بسرعة ويطلب الذهب المعتاد أو أن يقول للملك أن يستعد للحرب.

٢٠ — وهكذا بدلا من الكلام عن السلام والتحيات — كما كان يجب أن يفعل — وعن الابتهاج معه على رياسة الدولة التى منحها له الله أثار حفيظة الملك

---

(١) بلاش بن فيروز ملك على الفرس أربع سنين ومات.
(٢) قباذ بن فيروز أخى بلاش ملك ثلاثا وأربعين سنه وفى أيامه ظهر مزدك الزنديق وأدعى النبوه ثم خلع (القلقشندى: صبح الاعشى حـ ٤ ص ٤١٦)

المؤمن انستاس بكلمات التهديد فلما سمع (انستاس) لهنته المتبجحة وعلم عن سلوكه السيء ، وأنه أعاد تكوين الطائفة البغيضة المجوسية التى تدعى الزرادشتيه (١) ـ التى تدعو إلى أن تكون المرأة مشاعة وأن كل واحد يستطيع أن يصادق من تعجبه — وأنه أساء إلى الارمينيين الذين كانوا تحت أمرته لأنهم لم يعبدوا النار (فلما سمع ذلك) احتقره ولم يرسل له ذهبا ولكن أرسل له قائلا . كما أن زينون الذى كان يحكم قبلى ـ لم يرسل كذلك أنا لن أرسل حتى تعيد الى نصيبين ، لان الحروب ليست بسيطة تلك التى سوف اشنها مع البوابرة الذين يدعون الالان ومع هؤلاء الذين يدعون بليميون (٢) ، ومع كثيرين آخرين ، ولن أهمل جيوش اليونانيين وأمدادى لك بالميره .

---

(١) كانت ديانه الفرس القدماء فى العصور السابقة على ظهور الأخمينيين واحدة من ديانات الهنود الأوربيين الوثنية الذين يعبدون قوى الطبيعة المختلفة مثل الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح وأعتبروا كلا منها إلها وكانوا يقدمون لها القرابين والأضاحى ويقوم بذلك طبقة من الكهنه وهؤلاء هم المجوس (Magi) الذين كانوا يحتلون مكانه كبيرة فى المجتمع وكانوا يقومون بتفسير الأحلام للناس ويؤمن بهم العامة وبقوتهم الخارقة فى عمل السحر وإخراج الشياطين . وفى القرن السادس الميلادى ظهر نبى أيرانى يسمى « زرادوشترا Zrathushatna أو زرادشت الذى ورد فى كتابات اليونان باسم Zaro-Aster . ونادى زارادشت بالتوحيد وهاجم الآلهة المتعددة هجوما عنيفا وكان اسم الهه الذى بشر به هو « أموراً مازدا » وترجمتها الحرفية السيد العاقل .

ومن المرجح أن الموطن الاصلى لزرادشت كان فى أرض الميديين ولكن دعوته لم تنجح فى بلده فهاجر منه بحثا عن أمير أو حاكم يؤمن بما يدعواليه ووجد ما أراده فى جهات إيران الشرقية كما يرجح أيضا أن يكون أبو الملك داراً الاول هو الأمير الذى أمن بالنبى الجديد وديانته وأصبح متحمسا لها وذلك عندما كان واليا على بلاد الفرسيين .

(٢) عنصر حبشى أو نيجيرى أعتاد الهجوم على مصر

٢١ — وحينما سمع الأرمينيون — الذين تحت حكم قباذ — أنه لم يتسلم (رداً) مسالما من الروم تشجعوا وقووا أنفسهم وهدموا معابد النار التى بناها الفرس فى بلدهم ، وقتلوا المجوس الذين كانوا بينهم . فارسل عليهم قباذ أحد المرازبة مع جيش ليعذبهم ويعيدهم إلى عبادة النار ولكنهم حاربوه وأبادوه هو وجيشه وأرسلوا ارسلا إلى مملكتنا يطلبون أن يكونوا تحت حكمنا ، ولم نكن راغبين حتى لا يظن أننا نريد أشمال الحرب مع الفرس . فهؤلاء الذين يلومونه لأنه لم يعط الذهب عليهم أن يلوموا ذلك الذى يطلب بالعنف ماليس له لأنه لو طلبها سلميا أو بالاقناع لارسلت له ، ولكنه حجر فكره كفرعون وهدد بالحرب ولكنا نضع ثقتنا فى عدالة الله الذى سوف يصب عليه عقابا أكثر من الاخر بسبب القوانين النجسة لأنه أراد أن يدنس قانون الطبيعة ويبطل طريق مخافة الله .

٢٢ — وقد تمرد عليه بعد ذلك القادشيون (١) الذين كانوا تحت حكمه وأرادوا أن يدخلوا نصيبين ويملكون عليها ملكا من بينهم وحاربوها زمنا غير قصير. وقد تمرد عليه كذلك الطموريون الذين كانوا يسكنون أرض الفرس حينما رأوا أنهم لم ينالوا منه شيئاً واستقر هؤلاء على الجبال العالية التى يسكنون بها وكانوا ينزلون وينهبون ويسلبون القرى التى تحيط بهم، والتجار والأجانب والمواطنين ثم يصعدون ثانية كذلك كرهه نبلاء مملكته لأنه سمح لزوجاتهم بالزنا . وقدأقدم العرب (٢) — الذين كانوا تحت حكمه — على السلب كيفما سمحت لهم قوتهم بكل بلاد الفرس حينما رأوا فساد مملكته .

---

(١) كانوا يقطنون بجوار سنجار أو دارا . أنظر نولدكه فى المجلة الألمانية بودلين ص ١٥٧

(٢) فى النص « طى » وهى تشير إلى عرب قبيلة طىء وهى من أقوى القبائل فى شمال الجزيرة العربية .

٢٣ — وفى ذلك الوقت نشـأت كذلك مشكلة أخـرى بين الروم إذ ثار الأشوريون بعد موت زينون ضـد الامبراطور أنستاس ، وأرادوا أن يولوا عليهم ملـكا محبوباً لديهم ، وحينما سمع قباذ هـذا توهم أن الفرصة مواتية له فأرسل رسلا إلى مملـكة الروم متوهما أنهم سيخافون ويرسلون له ذهباً ، لأن الأشوريين قدتمردوا عليهم . وقد أرسل إليه الملك أنستاس : ان كنت تريدها كسلفة سأرسلها لك ولـكن إذا اعتبرتها أمراً معتاداً فلن أتجاهل قوات الرومان التى تتقوى بحرب الأشوريين وأعطى مساعدة للفرس . بهذه الـكلمات تواضعت نفس قباذ لأن حطته لم تنجح . وقد هزم الأشوريون وأبيدوا وقتلوا وهدمت وأحرقت كل مدنهم وقد دبر عظماء الفرس فى الخفاء لقتل قباذ بسبب أعماله الشريرة وقوانينه الفاسدة ،وحينما علم بذلك تنـازل عن مملـكته وهرب إلى الهونيين حيث الملك الذى تربى فى بلاطه حينما كان أسيراً .

٢٤ — وملك بعده على الفرس أخوه زمشف وتزوج قبـاذ إمرأة من بين الهونيين هى إبنة أخته وكانت أخته قد سبيت فى الحرب التى قتل فيهـا أبوه ولأنها إبنة ملك أصبحت من زوجات ملك الهونيين وأنجب منها إبنة . وحينما فر قباذ إلى هناك أعطوها له زوجة ولـكونه زوج إبنة الملك كان يبـكى أمامه كل يوم متوسلا إليه كى يعطيه جيشاً لمساعدته حتى يستطيع أن يذهب ويقتل العظماء ويستقر فى عرشه فأعطاه حموه جيشاً غـير قليل تلبية لرغبته . وحينما وصل إلى أرض الفرس وسمـع أخوه بذلك هرب من أمامه . أما هو فقـــد حقق رغبته وقتل العظماء ، وأرسل إلى الطموريين مهدداً إن لم يخضعوا له من تلقاء أنفسهم فسوف يهزمون فى الحرب ، أما إذا كانوا مساعدين له فسوف يدخلون معه بلاد الروم ، ومن السلب هناك يقسم عليهم كل شىء ليعوضهم ما أخـذ منهم غشاً . فخـاف هؤلاء من جيش الهونيين وخضعوا له . وحينما سمع القادشيون الذين كانوا معسكرين فى نصيبين خضعوا له كذلك . وقد تجمع العرب حوله بفرح عظيم عندما علموا أنه سوف يشن الحرب

ضد الروم . أما الأرمينيون — الذين كانوا خائفين من أن ينتقم منهم من أجل معابد النار التى خربوها فى الزمان الماضى — فلم يريدوا الاستماع له ، عندئذ جمع جيشاً وحاربهم ، وبالرغم من أنه كان أقوى منهم إلا أنه لم يبدهم ولكنه وعدهم بأنه لن يجبرهم على عبادة النار إذا عاونوه فى الحرب ضد الروم . وقد وافقوا مجبرين لأنهم كانوا خائفين . وسوف أخبرك بما فعله قباذ بعد ما تخطى تخوم الروم فى الوقت المناسب ولكن الآن كما أمرتني سأكتب عن العلامات والعقوبات التى حدثت فى أيامها وعن الجراد والمجاعة والفقر . أما تلك الأشياء المتقدمة فسوف أعود إلى مناقشتها فى الوقت المناسب ولكيلا تكون الرواية غامضة سأتكلم عن السنوات منفصلة واحدة بعد الاخرى وتحت كل سنة سوف أذكر ماحدث بها وليكن الله عوناً لى بمساعدة صلواتك .

٢٥ — فى سنة ٨٠٦ (٤/٥٩٤ م) للاسكندر فيما يتعلق بسبب الحرب وكيف اشتملت لقد أخبرتك عنها يا أبانا — على ما أظن — بما فيه الكفاية على الرغم من أننى كتبت هذه الروايات فى فصول مقتضبة لأننى كنت مهتما بأن أتحاشى الأسباب . وقد وجدت بعضها فى كتب قديمة والبعض الآخر علمته من مقابلتى لأناس كانوا سفراء لكلا الملكين ، ومن هؤلاء الذين كانوا حاضرين هذه الأحداث . ولكن الآن أريد أن أعرفك الأشياء التى حدثت عندنا لأنه مع تلك السنة بدأت الاضطهادات العنيفة والعلامات التى حدثت فى أيامنا .

٢٦ — فى هذا الوقت كانت أجسادنا سليمة ولكن الآلام والأمراض الروحية كانت كثيرة . أما الله — الذى يريد من الخاطئين أن يندموا على خطاياهم ويعيشوا — جعل أجسادنا وكأنها مرآة لنا تملأ أجسامنا كلها بالأحزان ، أى أنه أراد أن يظهر داخليتنا من مظهرنا الخارجى فربما نتعلم من جروح أجسادنا كيف هى بشاعة جروح أرواحنا ولما كان الناس كلهم قد أخطأوا فقد ابتلوا كلهم بهذه الضربة لأنه

كانت هناك انتفاخات وأورام(١) فى كل سكان بلدنا . وتجمدت وجوه الكثيرين وامتلأت صديدا ومثلت منظرا بشعا وهناك آخرون امتلأت أجسامهم كلها بالدمامل والبثور حتى أذرعهم وأخمص أقدامهم بينما امتلأت أعضاء الآخرين بثقوب كبيرة . ولكن بلطف الله الذى حماهم لم يستمر الألم عند أحد وقتاً طويلا ، ولم يترك أثراً أو جرحاً فى الجسم . ولكن على الرغم من أن أضرار الأحزان كانت واضحة بعد الشفاء فإن الأعضاء حفظت فى حالة كى تؤدي واجباتها فى الجسم . وكانت تباع فى الرها فى ذلك الوقت ثلاثون مدا(٢) من الحنطة بدينار وخمسون للشعير.

٢٧ — فى سنة ٨٠٧ (٤٩٥/٦ م) فى السابع عشر من شهر أيار (مايو) من هـذه السنة حينما أرسلت البركات بغزارة من السماء على جميع الناس وزاد المحصـول ونزل المطر وكبرت فاكهة الأرض فى أوقاتها ، قطع معظم المواطنين الأمل فى نجاة أرواحهم لسيئاتهم الجلية ، ولانغماسهم فى جميع أنواع الملذات لم يقدموا حتى الشكر من أجل منح الرب . وفسدوا بأمراض الخطايا . ولما لم تكن الخطايا العلنية والسرية التى انغمسوا فيها كافية لهم فقد حضروا فى ذلك اليوم الذى يفوق الوصف — أعنى يوم الجمعة ليلة السبت ، حيث كان الراقص الذي كان يدعى تريميريوس(٣) يرقص — وأشعلوا المشاعل بغير عدد احتفالا بهذا العيد . وهي عادة لم تكن شائعة فى هـذا البلد من قبل ورتبوها على الأرض بجانب النهر (ديصان)(٤) من باب

---

(١) الكلمة السريانية تشير إلى المعنى خراجات .

(٢) المد ويقابله فى اللاتينية modius والدينار وهو عملة بيزنطية .

(٣) انظر كتالوج المخطوطات السريانية فى المتحف البريطانى ص٣٣٥ عمودا .

(٤) نهر ديصان أو قرة قريون وهو يجرى حول الجزء الشمالى من المدينة ولكن فى الزمن القديم كان يخترقها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقى متوازياً مع عين الخليل أو عين إبراهيم الجديدة .

المسرح(١) حتى باب الأقبية . ووضعوا على شاطئه مشاعل مضاءة وعلقوها على أكنة الأبواب ، وفى بهو المدينة وفى الأسواق العليا وفى أماكن أخرى كثيرة . ومن أجل ذلك الشر جاءت علامة عجيبة من الله لزجرهم ، فإن شارة الصليب التى كان يحملها تمثال الملك الطيب قونسطنطين فى يده بعدت عن يد التمثال حوالى ذراع . وظل هكذا طوال يوم الجمعة ويوم السبت حتى المساء . وفى يوم الأحد جاءت الشارة واقتربت من مكانها الأصلى بمحض إرادتها وأخذها التمثال فى يده كما كان يمسكها من قبل . من أجل هذه العلامة أدرك الحصيف أن ما عمله بعيد عن إرادة الله .

٢٨ — سنة ٨٠٨ (٧ / ٤٩٦ م) لم تكن لنا هذه العلامة التى ذكرناها قبلا لتمنعنا عن اقتراف الآثام ، بل على العكس جعلتنا أكثر وقاحة وانغمسنا فى الخطايا — فان الصغار افتروا على جيرانهم ، والكبار امتلئوا غروراً . وتسلط الحسد والخداع علينا جميعاً وكثر الزنا والفسق وانتشر طاعون الدمامل بكثرة بين الناس وفقئت أعين الكثيرين فى كل من المدينة والقرية . وقد حدثت غيرة كبيرة لمارقورس الأسقف . فحث أبناء المدينة على عمل محفة من فضة تعظيما لآنية القرابين التى سوف توضع به حينما يذهبون إلى الاحتفال بذكرى أحد الشهداء ، لذلك قدم كل واحد ما استطاعت يداه . أما أوطوخيانوس زوج أوريانا فقد كان أول من أظهر إرادة حسنة وأعطى من عنده مائة دينار .

٢٩ — وفى نهاية هذه السنة أبعد الحاكم أنستاس وحل مكانه الاسكندر ، فطهر أسواق المدينة من القذارة ، وأزال الأكشاك(٢) التى كانت قد بنيت للعمال فى

---

(١) وكان هذا المسرح على مايبدو فى الجانب الشرقى من المدينة عند منابع ديصان .
(٢) وتؤدى هذه الكلمة فى العربية معنى مصطبة .

الأروقة والأسواق ووضع صندوقاً أمام قصره وجعل في بابه فتحة وكتب فوقه: كل من أراد أن يخبر بشيء وليس من السهل عليه أن يفعل ذلك صراحة يمكنه كتابته ثم يلقيه في الصندوق بغير خوف . وبذلك علم أشياء كثيرة كتبها أناس كثيرون وألقوا بها فيه (الصندوق) وقد عتاد أن يجلس كل يوم جمعة في كنيسة الشهداء(١) ماريوحنا المعمدان ومارأدى الرسول ، ويقضي في الدعاوى بدون أتعاب . فكان يتشجع المظلومون ضد ظالميهم – والمنهوبون ضد ناهبيهم ويقدمون له قضاياهم فيحكم بينهم وقد أحضرت أمامه بعض القضايا التي ظلت أكثر من خمسين عاما ولم يبت فيها فحكم فيها . وبنى المشى المغطى بجوار بوابة الاقبية . وبدأ كذلك في بناء الحمام العام الذي كان قد خطط لبنائه من سنوات مضت إلى جانب شونة الحبوب . وأصدر أوامر بأن يعلق الصناع على حوانيتهم في ليلة الأحد صلبانا ويوقدوا بها خمسة مصابيح .

(٣٠) سنة ٨٠٩. (٨ / ٤٩٧ م) وبينما كانت تقام هذه الأشياء اقبل ثانية العيد الذي فيه يتغنى بأقاصيص الوثنية . وازدادت عناية أبناء المدينة به أكثر من المعتاد . وكانوا قبل ذلك يذهبون لفترة سبعة أيام جماعات إلى المسرح في وقت المساء مرتدين ثياباً بيضاء ، ويلبسون عمائم كاشفين عن ظهورهم , والقناديل مضيئة أمامهم ، يحرقون بخوراً ويسهرون الليل كله يطوفون المدينة يشجعون الراقصين حتى الصباح بالغناء والصياح باخلاق منحطة . ومن أجل هذه الاسباب أهملوا الذهاب للصلاة ، ولم يحاول واحد منهم التفكير في واجبة ، ولكن في غرورهم سخروا بتواضع أبائهم وقالوا : لم يعرفوا كيف يعملون هذه الأشياء مثلنا . وظلوا يقولون أن سكان المدينة في الازمان القديمة كانوا بلهاء وأغبياء . بهذه الطريقة تجرءوا في الحادهم ، ولم يكن هناك من يحذر أو يزجر أو ينذر .

---

(١) وهي الكنيسة التي حفظت بها مخلفات هؤلاء القديسين

وعلى الرغم من أن اكسنايا أسقف منبج (١) كان فى ذلك الوقت فى الرها . الذى ظن أنه أخذ على عاتقة أن يشتغل بالتعليم لم يتكلم معهم فى هذا الشأن أكثر من يوم واحد ولكن الله برحمته أظهر لهم بوضوح عنايته بهم حتى يحيدوا عن شرهم فقد وقع العمودان والحمام الذى يستحمون فيه بالصيف ولكن برحمة الله لم يصب أحد بسوء على الرغم من أن أناسا كثيرين كانوا فى عملهم فى الداخل والخارج ولم يمت إلا أثنان تحطما وهما يهربان من صوت السقوط عند باب الحمام أذ كانا متعلقين بمن الجانبين ليدور حول محورة وقد تأخرا فى محاولة من منهم يخرج أولا فوقعت الحجارة عليهما وماتا . وقد شكر الله كل العقلاء أنه حمى المدينه من الحزن الكثير لأن هذا الحمام كان يجب أن يفتح بعد أيام قليلة . وهكذا وقع با كمله حتى أن صف الحجارة الاسفل الذى كان موضوعاً على سطح الأرض قد خلع عن مكانه.

(٣١) وفى نفس السنة صدر أمر من الملك انستاس بانه سيتنازل عن الذهب الذى كان يدفعه العمال مرة كل أربع سنوات ويعفون من الضرائب . وقد نفذ هذا الفرمان ليس فى الرها وحدها بل كذلك فى جميع المدن والمقاطعات الرومانية. وكانت عادة الرهاويين أن يدفعوا كل أربع سنوات مائه وأربعين رطلا (٢) ففرحت كل المدينة ولبسوا جميعاً ملابس بيضاء من الصغير إلى الكبير وحملوا شموعاً مضيئة ومباخر مملوءة بخور أموقداً. فتقدموا بالمزامير والابتهال — حامدين الله وشاكرين الملك —

---

(١) بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحده وفى أخرها جيم ، وهى بلده من جند قنسرين شرقى حلب على نحو مرحلتين منها بناها بعض الأكاسرة الذين غلبوا على الشام وسماها منبه فعربت منبج وكان بها بيت نار للفرس وهى كثيرة الغنى القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص١٢٧

(٢) الكلمة فى المخطوط السريانى تشير إلى العملة التى كان يتداولها فينيقيو سردينية فى القرن الثانى الميلادى ، ومازالت مستخدمة عند العرب بمعنى رطل .

إلى كنيسة الشهداء مار سرجيوس ومار سمعان حيث قدموا القرابين . ودخلوا المدينة وظلوا محتفلين بعيد كله فرح ومرح طوال الاسبوع ، وتعاهدوا على أن يحتفلوا بهذا العيد كل عام . وكان العمال كلهم يمرحون ويتمتعون ويستحمون ويأكلون فى أروقة الكنيسة(١) وفى كل طرقات المدينة .

(٣٢) فى هذه السنة فى الخامس من حزيران (يونيو) توفى مار قرة الأسقف وخلفه بطرس فأضاف إلى أعياد السنة عيد الشعانين ، كما ابتدع العادة التى تقدس الماء فى الليل بعد عيد الغطاس مباشرة ، وصلى على زيت المسوح يوم الخميس أمام الناس أجمعين الى آخره من الأعياد الأخرى . وقد عزل الاسكندر الحاكم وخلفه ديموستين ونظفت جميع أورقة مدينتنا تبعا لأوامره . وقد تضايق الكثيرون من هذا وقالوا انها كانت علامة نذير بقرب الشرور التى سوف تصيب المدينة .

(٣٣) سنة ٨١٠ (٤٩٨/٩ م) وقد ظهر لنا فى ذلك الوقت برهان عن عدالة الله لابطال أعمالنا الشريرة . ففى شهر ايار مايو من هذه السنة حينما جاء اليوم للاحتفال بهذا العيد الوثنى الشرير جاءت من الجنوب كمية كبيرة من الجراد على مقاطعتنا ، ولكنها لم تدمر أو تؤذى شيئا فى هذه السنة بل وضعت بيضها فقط فى مكان ليس بصغير ، وبعد أن أودعت بيضها الأرض حدثت زلازل مفزعة ، وكان من الواضح أن ذلك حدث لإيقاظ الناس من الانغماس فى الخطايا حتى لا يعذبوا بالجوع والطاعون .

(٣٤) وأما فى شهر آب (أغسطس) صدر أمر من الملك انستاس بأن

---

(١) وهى كنيسة القديس (توماس) توما الحوارى . أنظر السمعانى المكتبة الشرقية جـ١ ص ٣٩٩ .

تبطل مصارعة الوحوش فى كل مدن الامبراطورية الرومانية . وفى شهر أيلول (سيتمبر حدث زلزال مدمر وصوت عظيم سمع من السماء على الأرض ، وقد اهتزت الأرض من أساسها من ذلك الصوت وجميع المدن والقرى سمعت وشعرت بصوت الزلزال وانبهرت . وجاءت الينا أصوات قوية كثيرة مزعجة من كل جهة . وقد قال بعضهم ان علامة مذهلة شوهدت فى نهر الفرات وعند النبع الحار لإيران (١) حيث جف فى ذلك اليوم الماء الذى كان يخرج من نافوراتها ولم تظهر لى كأنها خداع ، فإنه عندما تشققت الأرض من الزلزال توقف الماء الجارى ــ فى الأماكن التى تشققت ــ عن الجريان ، وفى تلك الأثناء تحولت إلى اتجاه آخر كداود المبارك حينما قص فى المزمور الثامن عشر (٢) عن العقوبات التى أنزلها الله على أعدائه بزلزلة الأرض وتشقق الجبال ، وغير هذا مما ذكره حدث كذلك لأنه قال(٣) :

« فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يارب » كذلك جاء فى أثناء هذا الشهر خطاب قرىء فى الكنيسة أمام جميع المصلين يذكر أن نيكوبولوس(٤) قد فاض على الأرض فجأة فى منتصف الليل وأغرق كل سكانه ، وقد دفن بعض الأجانب الذين كانوا هناك وبعض الأخوان من مدارسنا الذين كانوا مسافرين هناك فى هذه المنطقه ، وقد أخبرنا بهذا زملاؤهم الذين جاءوا (من

---

(١) إيران موضع فى منتصف الطريق بين الدجلة والفرات بالقرب من اليرموك .

(٢) المزامير إصحاح : ١٨ آية ٧ .

(٣) المزامير إصحاح ١٨ آية ١٥ .

(٣) اسم آخر لنهر عمواس فى فلسطين فى منتصف الطريق بين يافا والقدس .

هناك) . وقد هدم كل سور المدينة الذى كان يحوطها ، وانقلب بالليل كل شىء كان بداخل المدينة ، ولم يبق إنسان حيـا إلا أسقف المدينة واثنـان آخران كانا نائمين وراء قبة مذبح الـكنيسة إذ عندما سقط سقف البيت الذى كانا ينامان به استند طرف أحد أخشابها على حائط المذبح وهـكذا لم تدفنهما وقد أخبرنى شخص يمكن الاعتماد على صدقه بما يأتى : فى المشية من هـذا اليوم حينما فاض (نيـكوبولس) كنت أنا وصديق لى نرقد داخل المدينة وكان هو قلقا فقال لى : هيا نقوم ونمضى الليل خارج المدينة فى كوخ هناك كعادتنا لأنى لا أستطيع الراحة هنـا فإن الهواء رطب ولا أستطيع النوم . وهـكذا قمنا أنا وهو وخرجنا من المدينة وأمضيت الليل فى الـكوخ كعادتنا ، وحينما جاء الفجر أيقظت صديق الذى كان معى وقلت له : قم لأن النهار طلع وهيا ندخل المدينة ونقوم بعملنا . وقمنـا أنا وهو وأتينا المدينـة ووجدنا كل أبنيتها مقلوبة ، ودفن فيهـا الناس والقطيع والثيران والجمال وصوت أنينهم كان يصعد من جوف الأرض . هؤلاء الذين تجمعوا هناك أخرجوا القسيس من تحت هذه الأخشاب التى كان يستظل بها وطلب خبزا وخمرا ليـكرم بها القربان المقدس، فلم يجد لأن المدينة بأ كملهـا قد انقلبت ولم يبق فيها شىء قائم . وجاء عبر الطريق رجل طيب فاعطاه قطعا صغيرة (من الخـبز) وقليلا من الخمر فقرب القربان وصلى وأشرك هؤلاء الذين كانوا هناك فى معجزة الحياة . وهو يشبه – فى ذلك الوقت – كما أعتقد لوطا الطيب حينما هرب من سدوم(١) . وهذا يسكنى حتى الآن .

(٣٥) ومرة أخرى فى الشمال كان هناك بيت للشهداء يدعى شمشاط(٢)، وكان مبنيا

---

(١) من أرض فلسطين سكنها قوم لوط .
(٢) ويكتب فى السريانية ارشمشاط ويقع فى ناحية خربوط فى الطرف الشرقى منها أنظر كتالوج رايت ص ٤٣٢ع ٢٠ .

بناء قويا ومزينا زينة جميلة . وفى يوم محدد من كل سنة وهو يوم الاحتفال بذكرى الشهداء الذين دفنوا هناك تجمع الكثيرون من كل صوب للصلاة والتجارة ، وكانت الاستعدادات كبيرة للناس الذين تجمعوا فيه . وبينما كان يوجد هذا الجمع الكبير المحتشد من الرجال والسيدات والأطفال من جميع الاعمار والاوساط حدث برق ساطع مرعب ، واصوات رعد مدوية وخيفة فهرب كل الناس إلى بيت الشهداء هذا يبحثون عن مأوى مع عظام القديسين ، وبينما هم فى خوف شديد مشغولين فى الصلاة والعبادة فى منتصف الليل سقط بيت الشهداء هذا وتحطم تحته السواد الاعظم من الناس الذين كانوا هناك ، وقد حدث هذا فى نفس اليوم الذى قاض فيه نيكوبولس .

(٣٦) سنة ٨١١ (٥٠/٤٤٩ م .) وبالرغم من كل هذه الزلازل والكوارث لم يحد أى رجل منا عن طريق الشر لذلك فان قريتنا ومدينتنا ظلت بدون صفح، ولاننا قد نجينا من العقاب الذى حل بغيرنا ، والشائمات التى جاءت الينا من بعيد لم تنذرنا ابتلينا بضربة لم يكن لها برء فلنؤمن اذن بعدالة الله ونقول : الحق هو الله وأحكامه جد عادلة . لانه هوذا — فى تحمله الطويل — كان يستطيع بالرغم من الآيات والمعجزات أن يمنعنا من عمل الشر . وفى شهر تشرين الاول (أكتوبر) من هذه السنة فى يوم السبت ٢٣ عند طلوع الشمس ذهب عن ذلك اليوم ضياؤه وظهرت دائرة الضوء كالفضة ، ولم يكن له اشعة محسوسة ، وكانت اعيننا تستطيع الحملقة فيه بدون شىء يعترضها لانه لم يكن هناك أشعة أو ضوء يعترضها عند النظر . كذلك كان من السهل علينا أن نرى القمر وظل كذلك لمدة ثمانى ساعات . او الضوء القليل الذى ظهر فوق الأرض كان وكأنه رماد أو كبريت قد رش فوقها . وظهر فى ذلك اليوم على سور المدينة علامة أخرى مرعبة ومفزعة . فهذه المدينة — التى من أجل اخلاص ملكها وعدالة سكانها فى الزمان القديم — استحقت أن تستقبل البركات من سيدنا ، كانت على وشك

أن تغرق سكانها في هذه الايام بسبب كثرة خطاياهم ، وكان هناك كسر في السور من الجنوب حتى البوابة (١) الكبيرة فتطايرت بعض الاحجار منها الى بعيد في أماكن غير قليله ، فاقيمت صلوات عامة بأمر من ابينا الاسقف مار بطرس وطلب كل واحد الرحمة من الله ، وأخذ الاسقف كل خدمة الكنيسة وجميع الأعضاء من الرجال والنساء وكل أبناء الكنيسة المقدسة الاغنياء منهم والفقراء رجالا ونساء وأطفالا وطافوا بجميع شوارع المدينة حاملين صلبانا يزمرون ويسبحون لابسين ملابس السواد خشوعا وظلت كل أديرة مقاطعتنا قائمة على الخدمات بعناية كبيرة . وهكذا بصلوات جميع القديسين ثبت نور الشمس فى مكانه وعمنا قليل من الفرح .

(٣٧) وفى تشرين الثانى رأينا ثلاث علامات فى السماء فى منتصف النهار أحداها كانت فى وسط السماء ناحية الجنوب ، وكانت تشبه فى لونها القوس الذى فى السحاب وهى توجة الناحية المجوفه إلى أعلى . أى أن وجهها المحدب إلى اسفل وأطرافها إلى أعلى . وكانت هناك واحدة فى الشرق وأخرى فى الغرب ، ومرة أخرى فى كانون الثانى « يناير » رأينا علامة أخرى فى نفس الركن الجنوبى الغربى وكانت تشبه الرمح . وقال بعض الناس أنها مكنسة الخراب والبعض قال أنها رمح الحرب

(٣٨) وحتى ذلك الوقت كنا نعاقب بالاشاعات والعلامات ، ولكن من الآن فصاعدا من الذى يستطيع أن يخبرنا بالشدائد التى سوف تحيط ببلدنا من جميع الجهات . وفى شهر آذار « مارس» من هذه السنة خرج الجراد علينا من الارض حتى أن من كثرته تخلينا أنه ليس البيض الذى كان فى الارض فقط هو الذى افرخ لايذائنا ولكن الهواء قذف به الينا وأنه نزل من السماء علينا ، وحينما استطاعوا الزحف فقط التهموا وافنوا كل مقاطعة العرب وكل رأس العين وتلا (٢) والرها ثم بعد أن استطاعوا الطيران كان امتداد نصف قطرهم من تخوم اشور حتى البحر الغربى (البحر الأبيض المتوسط)

(١) تقع البوابة الكبرى فى الجنوب الشرقى من المدينة وتؤدي إلى حران

(٢) وتدعى فى السريانيه تل موزن وفى اليونانيه constantina or constanti) بين ماردين والرها عند المكان المعروف باسم وران شهر أى مدينة وران.

والجهوا ناحية الشمال حتى حدود هنزيط (١) (شمال ارمينية). واكلت وخربت هذه النـواحى والتهمت كل شىء كان بها . لذلك حتى قبل أن تنشب الحرب كنـا نرى باعيننا هذا الذى قيل عن بابل البلد (٢) : كجنة عدن قبلة وبرية مقفرة بعده . ولما لم تردعهم عناية الله التهمت النــاس والقطيع ، كما سمعنا أنها عملت ذلك تماما فى واحدة من القرى ، فقد وضع الناس طفلا صغيراً فى حقـل وهم يعملون ، وقبل أن يذهبوا من أحد جوانب الحقل إلى الجانب الاخـر حط الجـراد عليه ونزع منه الحياه .

وبعد ذلك مباشرة فى شهر نيسان (أبريل) بدأ قحط فى المحاصيل وفى كل شىء فــكان يباع أربعة مدود من الحنطة بدينار .

وفى شهر حزيران (يونيو) وتمـوز (يوليو) خضع سـكان هذه الأحيـاء لـكل أنواع التحايل لـكى يعيشوا فزرعوا الذرة لاستعمالهم الخاص ولـكنها لم تـكن

---

(١) المخطوط Ortaye وهى مقاطعة هنزيط أو أنزيط فى جنوب أرمينيه أنظر نولدكه المجله الالمانية بودلين ص ١٦٣ .

(٢) بابل بفتح الباء الموحده ثم الف وباء موحده ثانيه مكسوره ولام فى الاخر وهى مدينه واقعة فى الأقليم الثالث وهى أقدم أبنيه العراق واليها ينسب أقليم بابل لقدمها وكان ملوك الـكنعانيين وغيرهم يقيمون بها ، وبها أثار أبنيه أحسبها أن تكون فى قديم الأيام قصراً عظيما ويقال أنها من بناء الضحاك آخر ملوك الفرس الذى ملك الأقاليم السبعه وفيها التى إبراهيم الخليل عليه السلام فى النار وقد أخبر الله تعالى فى كتاب العزيز : أن بهـــا هاروت وماروت الملـكين اللذين يعلمان الناس السحر ويقال أنهما بها فى بئر وأن البئر ظاهره بها إلى الان

(القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٣٢٨ — ٣٢٩)

كافية لهم لأنها لم تفلح . وقبل أن تنتهى السنة احوجت شدة الجوع الناس إلى التسول حتى أنهم باعوا حاجياتهم بنصف ثمنها كالبعير والثيران والضأن والخنازير . ولأن الجراد قد التهم كل المحصول ، ولم يترك مرعى أو مأكلا لا للناس ولا للحيوان هجر الكثيرون أماكنهم وانتقلوا إلى أماكن أخرى إلى الشمال والغرب . وقد دخل المدن المرضى الذين كانوا فى القرى ، والشيوخ والأطفال والنساء والمولودون وكذلك الذين عذبوا بالجوع ، دخلوا المدن يطلبون الحياة بالتسول لأنهم لم يستطيعوا المشى أو الذهاب لمسافة بعيدة . وهكذا خلت قرى كثيرة وكفور من الناس ، وهم على أى حال لم يفروا من العقاب حتى هؤلاء الذين ذهبوا إلى أماكن بعيدة . ولكن كما كتب عن شعب أسرائيل (١) « حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر » هكذا حدث لهم لأن الطاعون دهمهم فى الأماكن التى ذهبوا اليها كما دهم هؤلاء الذين ذهبوا إلى الرها . وما سوف اقصه عليك بعد قليل — على قدر استطاعتى — لايستطيع أحد — كما اعتقد — أن يصفه كما حدث .

(٣٩) والآن ساكتب لك عن المجاعة كما طلبت منى ، ولم اكن ارغب حقيقة أن اسجل شيئا عن هذا ولكنى اجبرت نفسى حتى لا تظن اننى احتقر أوامرك . فقد بيع القمح وقتذاك فى حدود أربعة مدود بدينار والشعير بستة . وكان قاب الحمص بخمسمائة نوميا وقاب الفول باربعمائة نوميا وقاب العدس بثلاثمائة وستين نوميا . أما اللحم فلم يكن متعذرا بعد . ومع مرور الزمن اشتدت المجاعة واشتد الم الجوع على الناس . وكان كل ما هو غير صالح للاكل رخيصا مثل الملابس ومتطلبات المنازل فكانت تباع الأشياء بنصف أو بثلث ثمنها . ولم تكن لتكف حاجة أصحابها بسبب النقص الكبير فى الخبز . وفى ذلك الوقت

---

(١) القضاة : ٢ : ١٥

ذهب أبونا مار بطرس إلى الملك ليطلب منه التنازل عن الضريبة وكان الحاكم قد ألقى القبض على ملاك الأراضى واضطهدهم اضطهادا كبيراً وسلبها منهم . وحتى يستطيع الأسقف أن يقنع الملك أرسل الذهب من الحاكم إلى العاصمة . وحينما رأى الملك أن الذهب قد وصل إليه لم يعفأ أن يتنازل عنه ، وحتى لا يرجـــع أبانا خاوى الوفاض أعاد إلى الفلاحين قاسين والجمل الذى كانوا يـدفعونه ، وأعفى المواطنين من توصيل المياه للرومان .

(٤٠) ثم سافر الحاكم إلى الملك متمنطقا سيفه ، وترك أوسابيوس ليحل مكانه ويحكم المدينة . وحينما رأى أوسابيوس هـذا أن الخبازين غير كافيين لتمون السوق بالخبز بسبب كثرة النساء القرويات اللاتى ملأن المدينة ، و بسبب الفقراء الذين ليس لديهم خبز فى بيوتهم ـــ أمر بأن كل واحد يعمل الخبز عليه أن يبيعه فى السوق وجاءت نساء يهوديات فاعطاهن قمحاً من شونة عامة وعملوا خبزا للسوق . ولـكن على الرغم من هذا فإن الفقراء كانوا فى عسر لعدم وجود الثمن معهم ليشتروا به الخبز ، وتجولوا فى الأسواق والأسوقة والاديرة يستجدون لقمة العيش ، ولم يكن فى بيت واحد خبز زيادة عن حاجته ، وعندما كان يستجدى أحدهم بعض النقود ـــ ولا يستطيع شراء الخبز بها ـــ يشترى بها لفتا أو كرنبا أو خبيزة ويأكلها فجة . ولهذا كان هناك نقص فى الخضر واتسع نقص فى كل شىء فى المدينة وفى القرى وهكذا تجرأ الناس ودخلوا الأماكن المقدسة ، ومن شدة جوعهم أكلوا الخبز المقدس وكأنه خبز عادى . وآخرون قطعوا جثث الموتى ـــ التى لا تؤكل ـــ وطبخوها وأكلوها .

(٤١) سنة ٨١٢ (١/٥٠٠م) فى هذه السنة ـــ بعد القطاف ـــ بيعت الخمر ستة أكيال بدينار والقاب من الزبيب بثلاثمائة نوميا . وإزداد الجوع فى القرى وفى المدينة

ومن تركوا في القرى كانوا يأكلون الـكشني (نبات) وآخرون يجمعون الحشف (١) ويأكلونه ولو أنه لم توجد الكفاية منه للشبع . وهؤلاء الذين كانوا بالمدينة كانوا يجوبون الأسواق يلتقطون سيقان النباتات وأوراقها وهي ملوثة بالوحل ويأكلونها. وينامون في الأروقة والأسواق ويولولون طوال الليل والنهار من شدة الجوع فذابت أجسامهم وحزنوا وأصبحوا مثل ابن آوى بسبب هزال أجسادهم ، وكانت المدينة ملأى بهم . وبدأوا يموتون في الأروقة والأسواق .

(٤٢) وعندما صعد الحاكم ديموستين إلى الملك أطلعه على هذه الشدة فأعطاه الملك ذهبا كثيرا ليوزعه على الفقراء. وعندما عاد إلى الرها ختم منهم رجالا كثيرين على رقبتهم بختم من الرصاص . وكان يعطي كل واحد منهم رطلا من الخبز يوميا. وظلوا كذلك لا يستطيعون العيش لأنهم كانوا مثقلين بآلام الجوع التي أهلكتهم . وإزداد الطاعون سواء في هذه الايام اعني في تشرين الثاني (نوفمبر). واشتدت في كانون الاول - (ديسمبر) حينما بدأ الثلج والجليد لانهم كانوا يبيتون بالاروقة والاسواق ، وادركتهم المنية وهم نائمون . وكان يبكي الاولاد والاطفال في كل الاسواق فمنهم من ماتت امهاتهم ومنهم من تركتهم وهربن حينما طلبوا منهن المأكل وليس عندهن ما يقدمنه لهم . وكانت الاشلاء ملقاه في كل الاسـواق ولم يستطع المواطنون دفنها إذ بينما كانوا يحملون الجثة الاولى لدفنها يجدون كثيرا غيرها وبعناية مار نونا كسندكرا (٢) اعتاد الاخوان بعد ذلك أن يجوبوا المدينة ويجمعوا هذه الاشلاء. كما اعتاد جميع سكان المدينة أن يجتمعوا عند باب كسندوكيان ويذهبوا بعيداً ويدفنوهم كل صباح . وقد أسس القس مار توثائيل ومار ستراتونيكوس

---

(١) ما يسقط من العنب والكروم ويجف .

(٢) كسندوكيان : كلمة يونانية بمعنى فندق للغرباء ، كسندكرا : غريب.

ـ الذى استحق بعدفترة مرتبة الاسقف بمدينة حران(٢) ـ ملجأ فى احدمبانى كنيسة الرها فدخل بها المرضى وعاشوا هناك. وقدوجدت حثث كثيرة فى الملجأ مع الاكسندوخين

(٤٣) وسد الحاكم بوابات الأعمده المجاورة للحمام الشتوى ووضع به قشا وحصيراً فكانوا ينامون هناك ، وبالرغم من هذا لم تكفهم ، وحينما رأى أعيان المدينة ذلك أسسوا هم أيضاً ملاجىء ودخلها الكثيرون واحتموا بها، كذلك انشأ الروم أماكن ونام بها المرض على نفقتهم الخاصة ، وكانوا يموتون موتا قاسيا وجنونا . وبينما كان يدفن الكثيرون منهم كل يوم ـ وكان العدد مازال متزايدا ـ وردت شائعة بكورة المدينة وهى أن الرهاويين يعتنون بذوى الحاجة ولهذا السبب دخل المدينة عدد من الناس لا يحصى. كذلك كان الحمام الذى تحت بيت الرسل جانب البوابة الكبيرة ملىء بالمرضى وبكثير من الاشلاء التى كانت تخرج منه كل يوم ، وكان سكان المدينة يعتنون باقامة جناز لاولئك الذين كانوا يحملون من الاكسندخين بالمزامير والتراتيل والاغانى الروحية المليئة بامل البعث . وكانت السيدات يشيعنهم ببكاء مرير ونواح عال . وعلى رأسهم كان يمشى راعى الكنيسة النشيط ماربطرس ومعهم كذلك الحاكم وكل النبلاء وعندما يدفن هؤلاء كان يعود كل واحد ليشيع جنازة الذين ماتوا فى حيه. وحينما امتلأت قبور الاكسندوخين والكنيسة خرج الحاكم وفتح المقابر القديمة التى كانت بجانب كنيسة مارقونا (٢) التى شيدها القدماء بعناية ـ وملئوها . ثم فتحوا

---

(١) بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفى آخرها نون بعد الألف وهى مدينة من ديار مضر من الجزيرة وكانت حران مدينة عظيمة وهى مدينة الصابئين وبها سدنتهم السبعة عشر وبها تل عليه مصلى للصابئين يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم عليه السلام .

« القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٩ »

(٢) أسقف الرها الذى توفى حوالى ٣١٢/٣م ؟ أنظر السمعانى المكتبية الشرقية ج ١ ص ٢٧١ ع ٢٠

أخربات ولم تـكفيهم أيضاً . وفى النهاية فتحوا كل مقبرة قديمةوملئوها — وكانت تحمل أكثر من مائة جثه يومياً من الاكسندوخين وفى أيام كثيرة كانت تبلغ مائة وعشرين ، وقد وصلت إلى مائة وثلاثين من بداية تشرين الآخر (نوفمبر) وحتى نهاية آذار (مارس) ولم يكن يسمع فى ذلك الوقت فى جميع أسواق المدينة إلا أصوات العويل على الأطفال او البكاء للفجع لهؤلاء الذين يتألمون .ومات الكثيرون بساحات الكنيسة وساحات المدينة وفى الحانات(١) ، كما كانوا يموتون فى الطرقات بينما هم يدخلون المدينة .

وفى شهر شباط (فبراير) اشتد القحط وكثر الطاعون وبيع القمح ثلاثة عشرة قابا بدينار والشعير ثمانية عشرة قابا بدينار ، وكان رطل اللحم بمائة نوميا والرطل من الدجاج بثلاثمائة نوميا والبيضة بأربعين نوميا . وباختصار كان هناك قحط فى كل شىء يؤكل .

(٤٤) وقامت صلاة عامة فى شهر آذار (مارس) حتى ينزاح الطاعون عن الغرباء وكان سكان المدينة وهم يتضرعون من أجلهم مثل الطيب داود حينما قال للملاك الذى أهلك شعبه(١) : « ها أنا أخطأت وأنا أذنبت . وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا فلتكن يدك على وعلى بيت آبائى » .

وفى شهر نيسان (أبريل) بدأ الطاعون بين سكان المدينة وخرجت نعوش كثيرة فى يوم واحد لم يستطع أحد أن يحصيها . ولم يكن سيف الطاعون مسلط فقط فى الرها ولكن كذلك من أنطاكيا حتى نصيبين فكان الناس يهلكون ويعذبون بالمجاعة

---

(١) بالسريانية Photka وهى مأخوذة عن اليونانية وهى فى العربية فندق وفى الأسبانية وفى الإيطالية Fondaco .

(٢) صموئيل الثانى ٢٤ ، ١٧ .

والطاعون ، وماتت كثير من الأغنياء ولم يكونوا جائعين ، كما مات كثير من الطلبة في هذه السنة .

وفي أشهر حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) بعد المحصول ظننا أن قد تخلصنا من المجاعة ولكن لم يتحقق توقعنا كما ظننا فقمح المحصول الجديد بيع غالياً إذ كانت الخمسة مدود بدينار .

(٤٥) سنة ٧١٣ (٥٠١/٢ م) من بعد شدة الجراد والجوع والطاعون — التي كتبت لك عنها — منحنا قليلا من الراحة — برحمة الله — حتى نستطيع أن نتحمل ما سوف يجيء في المستقبل كما علمنا بعد ذلك. وكان هناك قطاف كثير وخمر من المعصرة بيع الخمسة وعشرين كيلا بدينار . وأعطى الفقراء بسخاء من محصول الحشف — هكذا قال الأجراء والمزارعون — لأن محصول الحشف كان أكثر بكثير من محصول القمح لأن الرياح كانت شديدة عندما نضج العنب وجف الجزء الأكبر منه، وقال الحكماء لقد حدث هذا بعناية الله — رب الكل — وكان ذلك خليطاً من الرحمة والعقاب حتى يستطيع الفلاحون أن يعيشوا بهذا الإمداد من الحشف ولا يموتون جوعا كما حدث في العام الماضي . حيث كان يباع القمح في ذلك الوقت أربعة مدود بدينار واحد والشعير ستة مدود.

وفي أثناء التشرينين (أكتوبر ونوفمبر) حدثت الرحمة الآتية : فشتاء هذه السنة كان مطره شديداً أكثر من أن يوصف والبذرة التي زرعت كبرت هنا وهناك وكانت أطول من قامة الإنسان ، وذلك قبل أن يأتي شهر نيسان (أبريل) حتى الأراضي القاحلة أنتجت قليلا من ذلك الذي زرع . وهكذا أنتجت أسطح المنازل حشيشاً كثيراً ، حصده الناس وباعوه وكأنه حشيش الحقول ، ولم يعرفه المشترون لطوله ولوجود السنابل به ، وكنا نتشمم أن يكون المحصول رخيصاً في هذه السنة عن

السنوات السابقة ولكن خاب رجاؤنا لأنه فى شهر آيار (مايو) هبت ريح حارة لمدة ثلاثة أيام فتلفت كل محصول بلدنا إلا من أماكن قليلة .

(٤٦) وفى ذلك الشهر حينما حل اليوم الذى كان يحتفل فيه بالعيد السيء لقصص اليونان التى علمناه من قبل ، صدر أمر من الملك انستاس ألا يرقص الراقصون فى أى من المدن فى مملكته . ومن يرى عاقبة الأمور لن يلومنا على قولنا هذا . فبسبب الوقاحة التى كان يقترفها سكان المدينة فى هذا العيد انتابتنا عقوبات الجوع والطاعون على التوالى فبعد أن انتهت ثلاثون يوماً من نهاية العيد بيع القمح بحوالى دينار لأربعة مدود وكان يباع فى حدود اثنى عشر ، والشعير ما بيع فى حدود ستة بيع فى حدود اثنتين وعشرين وكان واضحاً لكل فرد أن قوة الله قادرة على أن تبارك محصولا صغيراً ويعطى شبعاً لهؤلاء الذين تابوا عن خطاياهم . ولكن جف المحصول الطيب — كما ذكرت — ومع ذلك فمن البقية القليلة التى بقيت جاءت النجدة خلال ثلاثين يوما . وربما يقول أحد أنى لا أحكم بالحق، ولكن الحق أن هذه التوبة لم تكن طواعية، ولكن نكون رحماء — أنقول — أن الملك أبطل العيد بالقوة وأمر الراقصين بألا يرقصوا أبداً وعندئذ نقول إن الله — من أجل حسناته المتعددة — كان يبحث عن فرصة ليظهر رحمة حتى على هؤلاء الذين لا يستحقون. وكان لنا من هذا برهان إذ رحم أحاب حينما خزى بعزل إيليا ولم يوجد فى أيامه هذا الشر ولم يقدر على بيته من قديم(١). أما أنا فلا أقول هكذا إذ لم تكن هذه الأخطاء هى الوحيدة التى حلت بمدينتنا وإنما كثيرة هى الأخطاء التى ارتكبت سراً وعلانية ومن أجل أن الحكام شاركوا فيها فأنا لا أريد أن أعدد هذه الأخطاء حتى لا أعطى فرصة لهؤلاء الذين يحبون اللوم أن يقولوا عنى أننى أتكلم ضد الرؤساء . ولكن على أى حال فلن أترك الأمر فى خفاء لأنى وعد من قبل أن أعرفك (بكل شيء) منذ

(١) ملوك أول ٢١ : ٢٩ .

أن اشتعلت الحرب ضــدنا . ولا يجب أن أذكر شيئا عن المذنبين ولــكن أسطر كلمات النبي التي يمكن أن يفهم منها ذلك الذي حينما يرى أبناء شعبه يقترفون أعمالا تشبه هذه التي تقترف في مدينتنا ـ وكثيرة هي عندكم وفي جميع أنحاء القاطعة ـ يقول عنهم وكأنه من فم الرب(١) «ويل لمن يقول للأب لماذا تلد وللمرأة لماذا تحملين» . أما عن الأشياء الأخرى فمن الأحسن السكوت لأنه من الأفضل الأصغاء إلى عبارات الـكتاب التي تقول(٢) «لذا يصمت العاقل في ذلك الزمان لأنه زمان رديء» ولـكن إذا منح الرب ورأيناك في صحة فسوف نخبرك بهذه الأشياء على قدر استطاعتنا .

(٤٧) والآن أستمع إلى الـكوارث التي حلت في هذه السنة والعلامة التي شوهدت في الذي حدثت به لأنك قد طلبت ذلك مني .

في يوم ٢٢ آب (أغسطس) من هذه السنه في ليلة الجمعة شاهدنا نارا عظيمة متوهجة في الركن الشمالي طوال الليل وظننا أن الأرض كلها في هذا الليل ستنمحي من أمواج النار التي شبت ، ولـكن رحمة الله حفظتنا حتى لا نؤذى . وقد وصلتنا رسالة من أناس ذوى مكانة مسافرين إلى القدس(٣) (كتب) فيها هكذا : أنه في ـــ نفس الليلة التي شوهدت فيها النار مشتعلة جدا انقلبت مدينة البطالمة التي هي عكا(٤

---

(١) أشعيا ١٤ : ١٠ .

(٢) عاموس ٥ : ١٣ .

(٣) القدس لفظ غلب على مدينة بيت المقدس وهو المسجد الأقصى وهي مدينة من جند فلسطين والمسجد الأقصى هو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال وهي القبلة الأولى « القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠٠ .

(٤) مدينة من سواحل الشام بناها عبد الملك بن مروان ثم غلبت عليها الفرنج ثم انتزعها منهم السلطان صلاح الدين يوسف عن أيوب ثم غلبوا عليها ثانيا ثم استرجعت وقد خرجت بعد استرجاعها المسلمون من الفرنج في سنة ٦٩٠ هـ في الدولة الأشرفية (خليل بن قلاوون) وبها مسجد ينسب لصالح عليه السلام وكانت قاعدة الساحل قبل صفد؟ فلمــا خربت أقيمت صفد مقامها (القلقشندى أصبح الأعشى ج٤ ص ١٥٢) .

ولم يبق فيها شيء قائم . وبعد أيام قلائل جاءنا أناس من صور(١) وصيدا(٢)وقالوا لنا : أنه فى نفس اليوم الذى شوهدت فيه النار وانقلبت دولة البطالمة سقطت نصف مدنهم أعنى نصف صور ونصف صيدا . وفى بيروت(٣) سقط مجمع السبت لليهود فى نفس اليوم الذى انقلبت فيه عكا وأهالى بيكوميديا استسلموا للشيطان ليعاقبوا والكثيرون منهم عذبوا بالشياطين حتى يتذكروا كلمات الرب ويؤمنوا بالصوم والصلاة ويتقبلوا الشفاء .

(٤٨) أما عن قباذ بن فيروز ملك الفرس ففى نفس اليوم الذى شوهدت فيه النار

---

(١) بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر وهى مدينة قديمة بساحل دمشق وبناؤها من أعظم أبنيه الدنيا وكانت من أحصن الحصون التى على ساحل البحر فلما فتحها المسلمون فى سنة ٦٩٠ هـ مع عكا خربوها خوفا أن يتحصن بها العدو ويقال أنها أقدم بلد بالساحل وأن عامة حكماء اليونان منها . قال الشريف الأدريسى : وكان بها مرسى يدخل إليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول . قال فى التعريف : وبسور كنيسة يقصدها ملوك البحر عند تمليكهم فيملكون ملوكهم بها إذ لا يصح تمليكهم إلا منها. قال وشرطهم أن يدخلوها عنوة ولذلك لايزال عليها القرده ومع ذلك يأتونها مباغتة فيقضون أربهم منها ثم ينصرفون وسكانها رافضة لا يشهدون جمعه ولا جماعة « القلقشندى . صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥٢ .

(٢) بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة تحت وفتح الدال المهملة وألف مقصورة فى الآخر وهى مدينة بساحل البحر الرومى ذات حصن حصين قال ابن القطامى سميت صيدون بن صدقا بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وهو أول من عمرها وسكنها قال فى الروض المعطار سميت بأمراة وشرب أهلها من ماء يجرى اليهم من قناه (القلقشندى صبح الأعشى ج ٤ ص ١١١)

(٣) مدينة جليلة على ضفة البحر الرومى عليها سوران من حجارة وفيه كان ينزل الأوزاعى الفقية المشهور وبها جبل فيه معدن حديد ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها أثنى عشر ميلا فى التكسير تتصل إلى تحت لبنان وهى غوطه دمشق ولها ميناء جليلة وفى شماليها على الساحل مدينة جبيل «القلقشندى» صبح الأعشى ج٤ ص١١١

جمع كل جيش الفرس وصعد ناحية الشمال . ودخل حدود الروم مع جيش الهونيين الذين كانوا عنده وعسكروا عند تيود وسيوبولس(١) من ارمينيا، واستولوا عليها فى أيام قليلة ، عندئذ ثار حاكم المكان ـ الذى يدعى قونسطنطين(٢) ـ ضد الروم وسلمها له بسبب عدواته للملك . ومن ثم نهب قباذ المدينة وهدمها واحرقها وخرب ـ كل القرى فى المنطقة الشمالية وأسر الباقين . وترك قونسطنطين واحدا من قواده كما ترك حامية فى تيود وسيوبولس ثم رجع من هناك .

(٤٩) سنة ٨١٤ (٥٠٢/٣م) أما عن أرض مابين النهرين ـ حيث نعيش ـ فقد حلت أحزان كثيرة فى تلك السنة حتى أن هذه الأشياء التى ذكرها سيدنا المسيح فى الانجيل عن اورشليم «القدس» قد حدثت كذلك ، والاشياء التى تحدث عنها بالنسبه لنهاية هذا العالم تناسب تماما تلك التى حدثت لنا فى هذه الايام فمن بعد أن حدثت الزلازل فى كل مكان كما كتبت لك ، ومن بعد المجاعات والطاعون والخوف والانذارات وعلامات كثيرة شوهدت فى السماء ، قام الشعب ضد الشعب والملك ضد الملك ووقعنا بحد السيف وأسرنا فى كل مكان وديست بلدنا من شعوب غريبة لذلك لم تكن كما ذكر سيدنا (٣) الذى قال «وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب انظروا لا ترتاعوا لانه لابد أن تكون هذه كلها ولكن ليس المنتهى بعد» وقد نتجرأ ونقول أن نهاية العالم حلت لان الكثيرين هكذا فكروا وقالوا ولكننا نأمل الا تمتد هذه الحرب على العالم كله الى

---

(١) وهى مدينة أرزروم الحالية .

(٢) أقام الامبراطور قسطنطين المسيحيه دينا رسميا للدولة الرومانية وأعاد تنظيمها والعامل المسيطر على حياة الامبراطور قسطنطين هو اعتقاده فى أنه موكول اليه برسالة شخصية من رب المسيحية وأنه ربط لذلك نفسه نهائيا بالمسيحية وكنيستها وعقيدتها وأنه أعتقد أن رفاهية الامبراطورية مرتبطة بالكنيسة وعلى ذلك فإن المثالية البيزنطية المستندة إلى قيام امبراطورية رومانية مؤسسة على العقيدة المسيحية ومتحدة مع الكنيسة يرجع أصلها إلى وجهة نظر قسطنطين .

(٣) متى ٢٤ : ٦

جانب اننا نتذكر أيضا كلمات القديس بولس (١) الذى حذر بها تسالونيقا بسبب مجىء المسيح قائلا (٢)» ان لا تتزعزعوا سريعا عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة خادعة وكأنها منا فانه لم يأت يوم المسيح واعلم أنه لا يمكن أن تكون نهاية حتى يظهر المسيح الدجال» من هذه الكلمات التى لسيدنا ولمسيحة نفهم أن هذه الأشياء لم تصبنا لانها كانت النهاية . ولكن حل بنا ذلك كعقاب لازدياد خطايانا .

(٥٠) عندئذ جاء قباذ ملك الفرس من الشمال فى الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) يوم السبت وعسكر هو وكل جيشه على مدينة آمد ٣) التى عندنا فيما بين النهرين . أما انستاس ملك الروم فحينما سمع أن قباذ جمع جيشه لم يرد أن يشتبك معه فى حرب حتى لا تراق الدماء فى كلا الجانبين وأرسل له ذهبا مع روفينوس (٤) وأمره بأنه إن وجد قباذ عند الحدود ولم يدخل لمقاطعة الروم بعد فليعطه الذهب ويرده . ولكن حينما جاء روفينوس إلى قيصرية قبادوقيا وسمع أن قباذ قد خرب

---

(١) هو صاحب الهرطقة البوليصية التى ظهرت ـ أول ما ظهرت فى أرمينيا البيزنطية حوالى منتصف القرن السابع ، وهو القائل : أليس المسيح صورة الله الذى لا تدركه الأبصار . وقوله : ثم أليس حلول الكلمة الإلهية فى صورة بشرية تدركها الأبصار مؤديا إلى تقديس الأشياء المادية وإلى تمثيل الحقائق الروحية فى صور أشكال يمكن رؤيتها . (المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٢) الرسالة الثانية لبولس الرسول إلى أهل سالونيقا ٢ : ٢ ، ٣ .

(٣) أعظم مدينة بديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها ذكرا (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦١) .

(٤) روفينيوس أسقف أكويليا وهو الذى أدخل علم اللاهوت اليونانى إلى بلاد المغرب .

أجيل(١) وصوف وارمينيا وعرب (أىعرب مابين النهرين) ترك الذهب فى قيصرية وذهب إليه وطلب منه أن يخرج من الحدود ويأخذ الذهب ولـكنه لم يوافق وقبض على روفينا وأمر بحراسته . وحارب ضد آمد هو وكل جيشه بكل خطط الحرب ليلا ونهارا . وبنى عليها منجنيقا . أما الآمديون فقد زادوا على ارتفاع السور ، وعندما ارفع المنجنيق استعمل الفرس راس الدكر(٢) وبعد أن ضربوا السور بشدة تصدع ذلك البناء الجديد — لأنه لم يكن قد استقر بعد — وسقط . أما الآمديون فقد حفروا حفرة فى السور تحت المنجنيق وجروا داخل المدينة سرا التراب الذى كان مكوما بها رافعين إياه للعمل برافعات فانهار المنجنيق ووقع .

(٥١) ولما لم يستطع قباذ التغلب على جيش المدينة أرسل النعمان(٣) ملك العرب (من الحيرة) مع كل جيشه لينزلوا إلى جنوب مقاطعة حران ، كما تقدم أمامهم جيش من الفرس حتى مدينة قسطنطينة التى هى تلا ناهبين وسالبين ومخربين كل البلاد .

وفى اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) خرج الومفيس قائد تلا واوجينوس قائد ملطية — الذى نزل بها فى ذلك الوقت — وهم وجيوشهم وأبادوا الفرس الذين وجدوا فى القرى حول تلا . وعندما استداروا ليعودا إلى المدينة أخبرهم واحد أن هناك خمسمائة رجل فى واد ليس يبعيد . فاستمدوا ليخرجوا عليهم وتفرق جيش الروم الذى كان معهم ليسلب القتلى ،وبسبب الليل أمر الومفيس

(١) وتدعى أجيل أو أنجل وهى شمال ديار بكر .
(٢) آلة تستعمل لهدم الأسوار .
(٣) وهو النعمان الثالث بن الأسود الذى تولى الحكم من ٤٩٨ إلى ٥٠٣م .

بأن تشعل نار فوق قمة الربوة ، وينفخ فى الأبواق حتى يتجمع عندهم هؤلاء الذين تفرقوا أما مرازبة الفرس المعسكرون عند قرية تل بشماى(١) فحينما رأوا ضوء النار وسمعوا أصوات الأبواق سلحوا كل جيشهم وجاءوا عليهم . وعندما رأى فرسان الروم أن الفرس أكثر منهم عادوا ، أما الراجلون منهم فقد أكرهوا على الحرب لأنهم لم يستطيعوا الهرب ، وتجمعوا واصطفوا للحرب مكونين تلك التى تدعى سلحفاة وحاربوا مدة طويلة فلما تكاثر عليهم جيش الفرس وانضم إليهم الهونيون والعرب تصدعت صفوفهم واختلطوا ببعضهم واختلطوا بالفرسان وديسوا وسحقوا تحت حوافر أفراس العرب . وهكذا أبيد الكثير من الروم وأسر الباقون .

(٥٢) وفى السادس والعشرين من هذا الشهر جاء النعمان من الجنوب ودخل بلاد الحرانيين وخرب ونهب وأسر الناس والقطيع وممتلكات جميع بلاد الحرانيين. وجاء حتى الرها مخربا وناهبا سابيا كل القرى . وبلغ عدد الذين سيقوا فى الأسر ١٨٫٥٠٠ خلا هؤلاء الذين قتلوا وخلا البعير والممتلكات . وكان النهب من كل نوع . وكان السبب فى وجود كل هؤلاء الناس فى القرى أنه كان زمن الحصاد إذ لم يخرج القرويون وحدهم للحصاد بل خرج كذلك كثير من الحرانيين والرهاويين فأسروا . ولهذا أخذت الرها ووضعت تحت الحراسة وحفرت الخنادق وأصلح السور وأقيمت بوابات المدينة بكتل من الحجارة لأنها تآكلت واردوا تجديدها وعملت قضبان لقناطر النهر حتى لا يستطيع أحد الدخول ، ولكنهم لم يجدوا حديدا كافيا للعمل . فصدر أمر بأن يقدم كل منزل فى الرها عشرة أرطال من الحديد . فلما

---

(١) أوتل بسمة غرب ماردين .

حدث هذا تم العمل . وعندما رأى أوجينوس أنه لايستطيع أن يتقابل مع كل الفرس قاد مابقى له من الجند ونزل على معسكرهم فى تيود وسيويولوس وخرب كل ما كان بها واسترد المدينة .

(٥٣) أما قباذ فكان لايزال يحارب ضد آمد ويجاهد ويعمل ليرتفع بالذى سقط وأمر الفرس بأن يملؤه بالحجارة والأخشاب ويحضروا ملابس من الشعر والصوف والكتان ويعملوها على هيئة حقائب أو زكائب (١) ويملئوها ترابا ويبنوا فوق هذا المنجنيق الذى عمل أمام السور قليلا . عندئذ ركب الآمديون آله — التى سماها الفرس الكسارة — لأنها احبطت كل عملهم واهلكتهم وقد قذف الامديون بهذه الالة حجارة كثيرة كل واحدة منها تزن أكثر من ثلاثمائة رطل . وهكذا تمزقت مظلة القطن التى كان الفرس يستظلون تحتها وشحن الذين كانوا يقفون تحتها كذلك كسر رأس الذكر من الانهيار الدائم للحجارة التى كانت تلقى بغير توقف . ولم يستطع الامديون أن يحطموا الفرس بأى وسيلة أخرى غير الحجارة الكثيرة بسبب مظلة القطن التى ضوعفت مرات كثيرة فوق السد . وصب عليها الفرس ماء ولم تتحطم بالرماح بسبب سمكها أو بالنار لبلولتها . ولكن تحطمت المظلة والرجال ومعدات الأسلحة بهذه الحجارة الكبيرة التى القيت عليها من الكسارة . وهكذا هزم الفرس وكفوا عن العمل فى المنجنيق وانتصحوا وعادوا إلى بلادهم لأنه خلال الثلاثة اشهر التى مكثوا بها هلك ٥٠٫٠٠٠ منهم فى الحرب التى كانت تدور كل يوم ليلا ونهاراً . أما الامديون فقد اعتمدوا على نصرهم واغتروا بهذا الايمان ، ولم يحرسوا السور بعناية كما فعلوا قبلا .

---

(١) الكلمة فى السريانية Shlief وأعتقد أن كلمة شليف المستعملة فى ريف مصر مأخوذة عن هذه الكلمة السريانية .

وفى العاشر من شهر كانون الاخر (يناير) شرب حراس السور كمية كبيرة من الخمر بسبب البرد ، فلما جاء المساء ناموا وراحو فى سبات عميق ، وترك آخــرون حراستهم بسبب سقوط المطر ، ونزلوا ليختبئوا فى بيوتهم . وفى أثناء ذلك الاهمال ـ كما نعتقد ـــ أو بسبب الخيانة ـــ كما يقول للناس ـــ أو كعقاب من الله استولى الفرس على سور آمد بواسطة سلالم بدون أن تفتح الأبـــواب أو يحطم السور . وخربوا المدينة وسلبوا ممتلكاتها فى ودلسوا الخبز المقدس وسخروا بقد اسها وجردوا هيا كلها ، واسروا سكانها ماعدا المسنين والمشوهين والذين اختبأوا . وتركوا هناك حامية من ٣٠٠٠ رجل ونزلوا كلهم إلى جبال شيجار (١) . وحتى لايتضايق الفرس الذين كانوا هناك من رائحة جثث الادميين اخرجوهم ووضموهم فى كومتين خارج البوابة الشمالية وكان عدد هؤلاء الذين اخرجوهم خارج البــوابة الشمالية يربوعلى ٨٠٫٠٠٠ عدا هؤلاء الذين اخرجوهم احياء ، ورجموهم خارج المدينة ، وخـلا هؤلاء الذين طعنوا من فوق هذا المنجنيق الذى اقاموه وخلا هؤلاء الذين القوا فى النجلة والذين ماتوا بشتى أنواع الموت ولا نستطيع أن نقص عن موتهم .

(٥٤) عندئذ أرسل قباذ روفينوس أن يذهب ويخبر الملك عما حدث . أما هو فقد تحدث عن هذه الفظائع فى كل مــكان . من هــذه الأشاعات خافت المدن التى فى شرق الفرات واستعد (ســكانها) للهرب إلى الغرب . أما يعقوب البريودوتى (٢) الموقر ـــ الذى عمل فصولا كثيرة على اجزاء من الكتاب المقدس ، وعمل اشعارا

(١) وهى فى الفارسية والتركية ستجار .

(٢) قسيس زائر ثم أصبــح بعد ذلك اسقفا لبطنان فى سروج وكان ذا إنتاج وفير بين الـكتاب السريان (ت٥٢١م) انظر السمعانى المكتبية الشرقية جا ص٢٨٣ وما بعدها .

وتراتيل عن زمن الجراد — فلم يكن مقصراً في ذلك الوقت في واجبه بل كتب رسائل تحذير لكل المدن لكي يثقوا في الخلاص الالهى ، وينصحهم بعدم الهرب. وحينما سمع ذلك الملك انستاس ارسل جيشا كبيرا من الروم ليقضوا الشتاء في هذه المدن ويحرسوها . ولم يقنع قباذ بكل الاسلاب التي اخذها والاسرى الذين قادهم، ولم يرتو من الدماء الكثيرة التي اراقها بل ارسل سفراء للملك أن : ابعث إلى بالذهب والا توقع الحرب وكان ذلك في شهر نيسان (أبريل) عندئذ لم يرسل الملك الذهب بل استعد لينتقم ويفرض تعويضا عمن هلكوا .

وفي شهر ابار (مايو) ارسل عليه ثلاثة قواد :اريوبيندوس ، فطريقيوس ، — وهيباتيوس ومعهم قواد كثيرون ونزل اريوبيندوس وعسكر على الحدود بجانب دارا وعمودين (١) تجاه مدينة نصيبين ، وكان معه ١٢٠٠٠ رجل . أما بطريقيوس وهيباتيوس فعسكرا على آمد ليطردوا من هناك الحامية الفارسية وكان معهم ٤٠٠٠٠ رجل . ونزل أيضا في ذلك الوقت مأمور التعيينات ابيون ومكث في الرها ليزود جيش الروم الذي معهم بزاده . ولما كان الخبازون لايستطيعون عمل الخبز أمر بأن يوزع القمح على جميع بيوت الرها ليعملوا خبزا على نفقتهم . وقد انتج الرهاويون في الفترة الأولى ٦٣٠٠٠٠ مد .

(٥٥) وحينما رأى قباذ ان اتباع اريوبيندوس قليلو العدد ارسل عليهم الجيش الذي كان معه في شيجار وعدته ٢٠٠٠٠ فارس. فطاردهم اريوبيندوس مرتين حتى وصلوا إلى بوابة نصيبين — وهم مهلكون وأختنق كثير من الهاربين عند البوابة وهم يتزاحمون على الدخول .

وانضم في شهر تموز (يوليو) الهون والعرب مع الفرس لينقضوا عليه، وكان

---

(٣) في الجنوب الغربي من دارا .

قسطنطين على رأسهم . فلما علم بذلك من الجواسيس أرسل كاليبو الحابي إلى فطريقيوس وهيباتيوس قائلا : تعالوا وساعدوني لان جندا كثيرين يستمدون للمجيء علينا ، ولكنهم لم يسمعوا له وظلوا في اماكنهم بجوار آمد . وحينما جاء الفرس على مواقع اريوبندوس لم يستطيع أن يحاربهم فترك معسكرهم وهرب إلى تلا والرها، وسلبت امتعتهم ونهبت .

(٥٦) أما أتباع فطريقوس وهيباتيوس فكانوا يركبون ثلاثة أبراج من الخشب ليتسلقوا أسوار آمد . وعندما تم بناء الابراج بنفقات كثيرة وتقوت بالحديد حتى لايتلفها شيء عندئذ أكتشفوا ماحدث على الحدود فاحرقوا الابراج ورحلوا من هناك وجاءوا وراء الفرس ولكنهم لم يدركون . وتربص أحد القواد واسمه فارزمان وآخر وأسمه تيودور ومعهم جيوشهم في كمين . ثم أرسلا كخدعة قطيعا ليمر عند آمد فلما رأى الفرس القطيع من داخل آمد خرج منهم حوالى ٤٠٠ رجل مختار ليخطفوها فخرج الروم المتربصون بالكمين واهلكوهم وأخذوا قائدهم حيا فوعدهم بان يسلمهم آمد لذلك عاد فطريقيوس وهيباتيوس الى هناك . ولما لم يستطيع هذا القائد الوفاء بوعده — لانه لم يستمع له هؤلاء الذين بداخل المدينة — أمر القائد بصلبه .

(٥٧) عندئذ جاء عرب الفرس حتى خابور فخرج عليهم تيموسطرطا قائد الرقة واباده . كما ذهب عرب الروم والذين يدعون الثعلبيين (١) — إلى حيرة النعمان فوجدوا قافلة صاعده اليه وجمالا محمولة له، فانقضوا عليها وابادوها وسبوا الجمال ، ولكنهم لم يقيموا بالحيرة لان سكانها دخلوا إلى أعماق الصحراء .

وفي شهر آب (أغسطس) تجمع ثانية جيش الفرس مع الهون والقادشيين والارمينيين وجاءوا حتى الفدين (٢) فسمع اتباع فطريقيوس بذلك وهبوا للخروج عليهم ولما

---

(١) بنو ثعلبة الفرع الرئيسي من قبيلة بكر بن وائل وكانت تشغل حيزا كبيرا في الصحراء السريانية بين مملكة الحيرة في الشرق والغساسنة في الغرب وكان يحكمهم ملوك كندة وكان ملكهم انذاك هو الحارث بن عمرو .

(٢) قرية على نهر خابور بين مكسين وقرقسيا . انظر معجم البلدين لياقوت .

كان الروم فى الطريق — ولم ينتظموا للحرب بعد — هاجم الفرس المقدمة وأهلكوها ولما ولى الادبار هؤلاء الذين هزموا ورأى بقية جيش الروم أن المقدمة قد ابيدت حل بهم الخوف ولم يصمدوا للحرب وعاد فطريقوس أولا وتبعه الجيش كله، وعبر نهر الفرات واجتمعوا فى مدينة سميساط (١). وقد جرح فى هذه الحرب النعمان ملك عرب فارس. أما أحد قواد الروم ويدعى بطرس فقد هرب إلى قلعة اشبارين، فلما أحاط الفرس بالقلعة خاف منهم ابناء الحصن وسلموه لهم وقاده الفرس اسيرا وقتلوا الروم الذين معه، ولم يمسوا ابناء الحصن باذى.

(٥٨) عندئذ فكر قباذ ملك الفرس أن يأتى الى اريوبندوس فى الرها، وكان النعمان ملك العرب يحرضه بسبب الذى حدث لحاميته. وقد اجاب أحد رؤساء قبيله من حيرة النعمان — وكان مسيحيا — قائلا: لاتتعب ملكك فى الذهاب الى الرها للحرب لانه وفقا لكلمة المسيح — المعصومة من الخطأ والتى نقدسها — لن يتسلط عليها عدو إلى الابد فلما سمع النعمان هذا اقسم بانه سوف يلحق الاذى بالرها أكثر من الأذى الذى حل بمن فى آمد وتفوه بالفاظ الكفر. وقد أظهر به المسيح علامة واضحة لانه فى نفس الوقت الذى كفر فيه تورم هذا الجرح الذى كان فى رأسه، وتورمت كل رأسه فقام وذهب إلى مسكنه، وظل فى هذا الالم يومين ثم مات. ولجرأة قباذ لم تثنه هذه العلامة عن مقصده السيء فعين ملكا بدل النعمان ثم ذهب إلى الحرب، ولما مضى إلى تلا عسكر عليها. عندئذ فكر اليهود الذين كانوا هناك أن يسلموا له المدينة. فحفروا حفرة فى مجمعهم الذى وكانت دراسته إليهم واخبروا الفرس لكى ينقبوا ويدخلوا منه. فاكتشف ذلك القائد بطرس الذى كان ماسورا وأغرى حراسة لكى يقترب من السور بحجة أن له ملابس

« ١ » مدينة بالقرب من تل بسمه.

وأدوات من أنواع شتى موجودة له فى المدينة ، ويريد من التلاويين (أهل تلا) ردها إليه . فاستجاب له الحراس وقربوه . أما هو فطلب من العاملين القائمين على السور أن ينادوا له القائد لونطيوس ـ الذى كان يحرس المدينة فى ذلك الوقت ـ فنادوه هو والقواد فتكلم معهم بطرس بالرومانية وأوضح لهم خيانة اليهود . وطلب منهم أن يعطوه زوجا من الملابس(١) حتى لاينجلى شيء للفرس . وقد أدعوا فى بادئ الأمر بأنهم غاضبون عليه ثم رموا له بعد ذلك زوجا من الملابس ، وقد كان فى الحقيقة فى حاجة إلى ملابس يلبسها . ثم نزل من السور وكأنهم لم يعرفوا شيئا عن خيانة اليهود . ولما لم يكونوا على علم بالمكان لفوا حول أساس السور كله واختبروه كأنهم أرادوا رؤية ما إذا كان فى حاجة إلى تقوية . وقد فعلوا هذا من أجل بطرس حتى لايعلم الفرس بأنه كشف الموضوع ويضطهدونه . وفى النهاية جاءوا إلى هذا المكان الذى كان يحرسه اليهود . فوجدوا حفرة كبيرة محفورة ومعدة داخل المجمع كما قيل لهم . فلما رأى الروم ما كان هناك هجموا عليهم بغضب كبير وداروا حول المدينة كلها وأبادوا جميع اليهود الذين وجدوهم رجالا ونساء ، وشيوخا وأطفالا . وقد فعلوا ذلك أياما . وقليلا ما كانوا يتوقفون عن إبادتهم بأمر من لونطيوس القائد وبتوسلات ابن حداد الأسقف الطيب ، وحرسوا المدينة جيداً ليلا ونهارا . بينما القديس ابن حداد كان يدور كل يوم يزورهم ويصد من أجلهم ويباركهم ويمدح عنايتهم ويشجعهم وينثر عليهم وعلى سور المدينة ماء المعمودية . وكان يحمل معه فى تجولاته الخبز المقدس ليتقبلوا السر وهم فى أماكنهم حتى لايترك أحد منهم حراسته وينزل من فوق السور لهذا السبب . وذهب هو بنفسه إلى ملك الفرس وتكلم

---

(١) يقصد بها زوجا من النعال أو السراويل .

معه وطيب خاطره . فلما رأى قباذ وقار الرجل وشعر بتيقظ الروم تبين له أنه ليس من الفائدة أن يظل عاطلا أمام تلا بكل ذلك الجيش الذى كان معه أولا : لأنه لم يجد زادا له فى ذلك المكان الخرب . ثانيا : لأنه كان خائفا أن تجتمع قواد جيش الروم مع بعضهم البعض ويهجمون عليه جميعا.لهذا ارتحل بعد قليل إلى الرها وعسكر بجوار نهر جلاب(١) — الذى يدعى ميديا — حوالى عشرين يوما .

(٥٩) وقد حاصر الآقوياء من جيشه القاطمة وخربوها . وفى السادس من أيلول (سبتمبر) هدم الرهاويون كل الأديرة والخانات القريبة من السور وأحرقوا قرية كفرصلم التى تدعى النقب وقطعوا سياج الحدائق والمتنزهات التى حولها وقطعوا الأشجار التى بداخلها . وادخلوا اعظام جميع الشهداء التى كانت حول المدينة ووضعوا أسلحة فوق السور وربطوا اغطية من الشعر فوق الشرافات .

وفى التاسع من هذا الشهر ارسل قباذ لاريوبيندوس : أما أن يستقبل فى المدينة قائده أو يخرج إليه فى السهل لأنه يرغب فى عقد معاهدة سلام معه . وأمر جيشه فى الخفاء بأن يستديروا ويسيطروا على بوابة المدينة ومدخلها أن سمح لهم اريوبيندوس بدخول المدينة حتى يحضر ويدخل وراءهم ، أما أن خرج اليهم فليمكنوا ويخطفوه حيا ويحضروه عنده ، ولكن اريوبيندوس — لأنه كان خائفاً من السماح لهم بدخول المدينة — خرج اليهم بينما لم يبعد كثيراً عن المدينة الا حتى بيت مارسرجيوس وجاء اليه باوى (٢) الذى هو الاصطهبذ (٣) والذى يفسر بقائد الفرس ، وقال

(١) ويقع شرقى الرها ويجرى جنوب مدينة بلغ حتى يصل إلى ديصان(قراقورم) بالقرب من حران .

(٢) ربما تكون الكلمة الفارسية "بويه" وقد قامت دولة البويهيين بعد الفتح الإسلامى

(٣) كلمة فارسية بمعنى قائد الجند .

لاريوبيندوس : إذا اردت أن تقيم السلام اعطنا عشرة الاف رطل من الذهب وتبرم معنا عقداً بأن تسلم لنا هذا الذهب كل سنة كمادة . فوعد اريوبيندوس بتسليم سبعة الاف رطل ، ولكنهم رفضوا وظلوا يساومونه حتى الساعة التاسعة فى الصباح. ولما لم يجدوا الفرصة لخيانته بسبب حراسة الروم له وخوفا من محاربة الرها مرة ثانية بسبب ما حدث للنعمان تركوا اريوبيندوس فى الرها وذهبوا لمحاربة حران بينما ارسلوا جميع العرب إلى سروج . أما الريفى الذى كان موجوداً فى حران فقد خرج سراً من المدينة وانقض عليهم وقتل منهم ستين رجلا وأخذ قائد الهون حيا . ولما كان الرجل معروفا وعزيزاً عليه فقد وعد ملك الفرس الحرانيين بانه لن يشن الحرب عليهم إذا سلموه له حيا . أما هؤلاء فقد خافوا من الحرب وسلموا ذلك الهونى بينما ارسلوا معه — تعظيما له — الف وخمسائة كبش مع اشياء اخرى .

(٦٠) أما عرب فارس الذين ارسلوا إلى سروج فقد ذهبوا حتى نهر الفرات مخربين وسابين وناهبين كل ما وجدوه . وقد جاء فى ذلك الوقت من الغرب فطريقيوس وهو احد الضباط الرومان مع ابنه فيتالينوس لينزلا للحرب . وكان فطريقيوس واثقا من نفسه وغير خائف لأنه لم يكن حتى ذلك الوقت على علم بهذه الاشياء التى حدثت من قبل . فلما عبر النهر قابل احد قواد الفرس وحاربه واهلك كل من معه من الفرس . ثم اتجه ناحية الرها ، وسمع من الهاربين أن قباذ حاصر المدينة ، فعاد وعبر النهر وانتظر فى سميساط .

وفى السابع عشر من هذا الشهر يوم الأربعاء رأينا كلمات المسيح ووعوده لابجر قد تحققت اذا جمع قباذ كل قواته وارتحل من نهر الفرات وجاء وعسكر على الرها وقد امتد معسكره من بيت الشهداء مارقوزما وماردومينا — معسكرين — على جميع الحدائق وعلى بيت مار سرجيوس وقرية

بسكين (١) — حتى كنيسة المعترفين ، وكان عرضها حتى جـرف صيرين (٢) واحاط — فى يوم — بالرها هذا الجيش الذى بغير حصر وذلك خلاف الحراس الذين وضعوا له فوق الجبال والمرتفعات . وقد امتلأ بهم السهل وكانت بوابات المدينة كلها مفتوحة ، ولـكن لم يستطع الفرس دخولها من أجر بركة المسيح اذا حـل بهم الخوف وظلوا فى أماكنهم — بينما لم يقترب منهم احد — من الصباح وحتى الساعة التاسعة . ثم خرج البعض من المدينة وحاربوهم وقتلوا كثيراً من الفرس أما هم فلم يسقط منهم إلا واحـد . عندئذ كانت النسوة يحملن المياه ويخرجن من السور ليشرب المحاربون . أما الأولاد الصغار فـكانوا يقذفون الحجارة بالمقاليع . ولـكن القليلون من الناس الذين خرجوا من المدينة طردهم وأبعـدهم من جانب السور لأنهم لم يـكونوا بعيدين عنـه إلا بمقدار قاب قوس ، فذهبوا وعسكروا بجانب مدينة القباب(٣) .

(٦١) وفى اليوم التالى خرج آريوبندوس ثانية من البوابة الـكبيرة . وبينما كان واقفا تجاه جيش الفرس أرسل إلى قباذ . هاانت ترى بالخبرة أن المدينة ليست لك ولا لانستاس ولـكنها مدينة المسيح الذى باركها ووقف ضد جيوشك حتى لا يتسلطوا عليها

---

(١) ربما كانت هذه المدينة فى الجنوب أو الجنوب الشرقى لـكنيسة بيروج ويسميها السمعانى باكين ومارتن بوكين .

(٢) يـكتبها السمعانى صارين ومارتن يذكرها على أنها Tsarein أما هوفمان فيؤكد أنها صرين وهى على الشاطىء الشرقى لنهر Germishohai فى الطريق من البوابة الـكبيرة إلى تلا وماردين أما رايت فيحاول أن يذكرها على أنها صهين .
(٣) ربما تـكون مدينة القباب هى دير القباب وهى تقع فى الجنوب الشرقى من الرها تجاه حران حيث تراجع قباذ .

فارسل له قباذ:أن أعطى وعودا بانكم لن تخرجوا ورائى وأنامستعدللذهاب وأرسل إلى هؤلاء الرجال الذين قبضت عليهم والذهب الذى وعدت به وأنا سوف أذهب بعيدا عن المدينة فاعطاه اريوبندوس بازل القائدو الرجال الذين أخذهم منه وكان عددهم اربعة عشر رجلا ، وعقدوا معه معاهدة بان يعطوه الفى رطل من الذهب فى نهاية أثنى عشر يوما .ورفع قباذ معسكره وذهب وعسكر بدهبانا(١) ولم ينتظر حتى اليوم المحدد بل أرسل فى اليوم التالى واحداً من رجاله يدعى هورميزد وأمرة بان يحضر ثلاثمائة رطل من الذهب . فجمع اريوبندورس عظماء المدينة ليفكروا كيف يجمعون هذ المال ولما راوا أن هورميزد قد جاءهم على عجل قووا قلوبهم وقالوا لاريوبيندوس لن نرسل الذهب لهذا الرجل المخادع لانه عاد ونكث وعده ولم ينتظر اليوم المحدد له وهكذا سوف يعود ويخدع حينما يأخذ الذهب .ونحن نعتقد أنه إذا حارب معنا فسوف يخزى لان المسيح يقف أمام مدينته عندئذ تشجع أريوبيندوس وأرسل إلى قباذ لقد علمنا الآن أنك لست بملك فليس بملك من يعد ثم يعود ويخدع . وأن خدع فهو ليس بملك وبما أنه قد وضح نفاقك فاعد الى بازل القائد واصنع ما أنت بقادر عليـــه .

(٦٢) عندئذ اشتعل قباذ غضبا وسلح الأفيال التى معه ورحل هو وجميع جيشه وجاءوا ثانياً ليحاربوا الرها فى الرابع والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) فى يوم الاربعاء وحاصر المدينة من جميع الجهات (حصارا) اشد مما سبق ، وبينما كانت جميع البوابات مفتوحة أمر اريوبيندوس الروم بعدم محاربته حتى لايظهر خداعا من

---

(١) وتسمى الذهبانية أو الذهبانة وهى تقع جنوب الرها عبرحران فى الطريق إلى الرقة .

ناحيتـه ضده . وعندئذ خرج اليه بالمقاليع بعض القرويين الذين كانوا فى المدينـة وأسقطوا كثيرا من المدرعين الذين معه بينما لم يسقط منهم واحد . عندئذ أرادت ـــ فيالقة جريئة أن تدخل المدينة ، وما أن اقتربوا من البوابات حتى ثارت كانت أكمة عالية من التراب فخضعوا وذلوا ثم عادوا . وبسبب سرعة الذين تركوا خيولهم اختلط بهم القلاعون . وبينما الرماح تفرق الفرس والصولجانات يهزها الهـونيون والرماح يصوبها نحوهم العرب ليصيبوا واحدا منهم ولم يستطيعوا لم يكونوا ألا مثـل هؤلاء الفلستيين الذين خرجوا ضد شمشون فبالرغم من أنهم كانوا كثيرين ومسلحين لم يستطيعوا قتـله بينما هو ـــ وهو مجرد من السلاح ـــ قتـل ألفا منهم بفك الحمار . كذلك الفرس والهون والعرب بينما كانوا يسقطون بالحجارة التى كان يقذفها القلاعون لم يستطيعوا أن يقتلوا واحدا منهم ، وبعد أن رأوا أنهم لن يستطيعوا دخول المدينة أو إيذاء الناس العزل الذين كانوا مختلطين بهم أشعلوا النار فى كنيسة سانت سرجيوس وكنيسة الشهداء وجميع الأديرة القائمة وكنيسة النقب ولهذا تركها سكان المدينة .

(٦٣) وحينما رأى القـائد أريوبيندوس حمـاس القرويين وأنهم لم يخزوا وأن العناية (الإلهيـة) رافقتهم ، جمع فى اليوم التـالى القرويين كلهم الذين فى الرها فى الـكنيسة وأعطاهم ثلاثمـائة دينار هدية . وارتحل قباذ من الرها وذهب وعسكر على نهر الفرات ومن هناك أرسـل رسلا إلى الملك يخبره بمجيئه . أما العرب الذين كانوا معـه فقـد عبروا النهر إلى الغرب ونهبـوا وأهلـكوا وأسروا وأحرقوا كل ما وجدوا ، وذهب قليل من فرسان الفرس إلى بطنان ، ولما كان سورها مفتوحا لم يستطيعوا أن يقاوموهم بل استقبلوهم بدون حرب وسلموا لهم المدينة .

(٦٤) سنة ٨١٥ (٥٠٣/٤م) حينما علم ملك الروم بالذى حدث أرسل قائده كلير مع جيش كبير. وحينما سمع قباذ بهذا وجه مسيرتهم عبر نهر الفرات حتى يستطيع أن يذهب ويستقر فى بلده التى تدعى بيت الآراميين (١) . وحينما جاء بالقرب من الرقة أرسل إلى هناك قائدا ليحارب معهم . فخرج عليه القائد تيموسطرطا وأباد جيشه كله ، أما هو فقد أخذه حيا . وحينما وصل قباذ إلى المدينة جند قوته كلها ضده مهددا بإبادتها وإخراج كل شعبها بالسلاح وبالأسر إذا لم يسلموه له . فخاف القائد من كثرة جيش الفرس وسلمه .

(٦٥) وحينما وصل القائد كلير الى منبج التى على نهر الفرات ورأى أن قباذ قد ارتحل من أمامه وأن زمن الشتاء قد حل ثانية ولن يستطيع الذهاب وراءه ، دعا قواد الروم – لعدم اتفاقهم – وقسم لهم المدن لكى يقضوا الشتاء بها حتى يوم الحرب .

(٦٦) وفى الخامس والعشرين من كانون الأول (يناير) صدر أمر من الملك بأن ترفع الضرائب عن كل مابين النهرين . وحينما رأى الفرس الذين بآمد أن جيش الروم ابتعد عنهم فتحوا بوابات مدينة آمد وخرجوا . ثم دخلوا المكان الذى يريدونه وباعوا للتجار نحاسا وصفيحا وحديدا وملابس قديمة وكل شىء وجد بها وأقاموا بها معرضا عاما وحينما سمع فطريقيوس بذلك خرج من ملطية حيث كان يقضى الشتاء . وجاء وعسكر فى آمد . وقتل كل التجار الذين وجدهم وينزلون إلى هناك حبا وزيتا وكذلك من كانوا يشترون شيئاً من هناك . كذلك وجد الفرس الذين أرسلهم قباذ لكى يحضروا إلى هناك السلاح والحب والقطيع فأبادهم وأخذ

---

(١) وهى الجزء الشمالى من بابل ويطلق عليها سواد الكوفة حيث توجد سلوقيا وقاطيسفون وكوش وما حوزا .

كل مامعهم . وحينما علم قباذ أرسل إليه قائدا ليثأر منه فلما اقتربوا من بعضهم البعض للحرب نصح الروم فطريقيوس بالهرب خوفا من الهزيمة السابقة فاستمع لهم . وفى إسراعهم ـ ولا يعلمون إلى أين يذهبون ـ جاءوا والتقوا بنهر يدعى القلت ، ولأن الفصل شتاء ، والفيضان غزير لم يستطيعوا عبوره ، وكل من أسرع منهم فى عبور النهر غرق مع فرسه ، وحينما رأى فطريقيوس ذلك شجع الروم قائلا : يارجال الروم لا تخزوا شعبنا ومعتقداتنا ونهرب مع أعدائنا ولكن لنكر عليهم فربما نكون ندا لهم . وأن تقووا علينا فالأفضل أن نموت بحد السيف شجعانا من أن نهلك كالجبناء غرقا بالماء . عندئذ استمع الروم لنصيحته مكرهين من النهر ، واستداروا إلى الفرس بغضب وهزموهم وأخذوا قوادهم أحياء . وبعد ذلك عادوا وعسكروا فى آمد ، وأرسل فطريقيوس فجمع لديه عمالا من مدن أخرى ومن قرى كثيرة وأمرهم بأن يحفروا بالأرض حفرة تحت السور ليضعف ويسقط .

(٦٧) فى شهر آذار (مارس) حينما كان بقية الروم مجتمعين لينزلوا مع الحاكم جاءهم من الله ماشجعهم وجعلهم يثقون فى النصر . وقد علمنا هذا بكتاب من أبناء كنيسة زوجما(١) . وحتى لايظن أننى أقول شيئا من عندى أو أنى استمعت إلى إشاعة كاذبة وصدقتها اقتبست نفس كلمات الخطاب الذى جاء لنا وهى كالآتى : ـ

(٦٨) والآن استمع إلى مشهد عجيب مدهش لم يحدث من قبل لأن هذا يعنينى ويعنيك ويعنى جميع الروم . فهو عمل عجيب من الصعب على عقل الرجال فهمه ، فقد رأيناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا وقرأناه بشفاهنا . وبدون شك يجب أن تصدقوها .

ففى التاسع عشر من آذار (مارس) يوم الجمعة وهو اليوم الذى صلب فيه

---

(١) على نهر الفرات بالقرب من مدينة بيراوبيرجك

مخلصنا باضت أوزة بيضة ـ في قرية أجار(١) في ناحية زوجما ـ وكتبت عليها كتابات يونانية عدل، وصدق، واتخذت شكل البيضة وبرزت للنظر واللمس وكانت على هيئة الكتابات التي كان يكتبها سكان الأديرة على الأواني المقدسة للبركة ليستطيع أن يمس شكلها حتى المكفوفين وكانت هكذا : صليب مرسوم على جانب البيضة ويلتف تماما حول البيضة ومن هذا الطرف إلى الطرف الآخر كتب الروم . ثم رسم صليب آخر ومن هذا الطرف إلى الطرف الآخر كتب منتصرين . وقد رسمت الصلبان واحد فوق الآخر والكلمات كتبت واحدة فوق الأخرى ولم يكن هناك مسيحي أو يهودي رأى هذه المعجزة إلا وضم فمه من الدهشة أما الحروف التي رسمتها يمين الله داخل المربع فلا نجرؤ أن نقلدها لأنها جميلة جداً . وكل من يسمع عنها دعة يصدقها بدون تردد . تلك هي كلمات رسالة رب الأرباب . أما البيضة فقد أعطاها أصحاب القرية ـ التي وضعت فيها ـ إلى أريوبيندوس .

(٦٩) وبعد ذلك جمع الروم جيشاً كبيرا ونزلوا وعسكروا عند مدينة رأس العين(٢)، كما ارسل قباذ حوالى عشرة الاف رجل للهجوم على فطريقيوس، ودخلوا وعسكروا في نصيبين ليستريحوا هناك، وارسلوا مواشيهم لترعى في جبال شيجار وحينما سمع الحاكم ذلك ارسل تيموسطرطا قائد الرقة مع ستة الاف فارس فذهبوا وانقضوا على هؤلاء الذين يرعون الخيول وابادوهم وأخذوا من هناك خيولا وغنما واسلابا كثيرة وعادوا إلى جيوش الروم في رأس العين، ثم رحلوا كلهم مجتمعين وذهبوا وعسكروا على مدينة آمد بجانب فطريقيوس .

---

(١) هكذا في النص وربما لا تكون أجار بل أجاد وهي الاصح . انظر السمعاني المكتبية الشرقية جـ ١ ص ٢٧٨ ع ٢٠ .

(٢) رأس العين أو يقال : رأس عين مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين .

(٧٠) فى شهر آيار (مايو) أصبح كاليوا الحلبي قائدا ، وجاء واستقر فى الرها وأعطى الرهاويين قمحا ليصنعوا خبزا للجنود على نفقتهم . فخبزوا فى ذلك الوقت ٨٥٠٠٠ مد من القمح وذهب إبيون إلى الاسكندرية حتى يصنع خبزا للجنود ويرسله .

(٧١) وعندما وصل فطريقيوس إلى تلك الحفرة تحت سور آمد دعمها بخشب وأشعل فيها النار فتداعت الأوجه الخارجية للسور وسقطت ، ولكن ظل الجزء الداخلى ثابتا ثم فكر أن يحفر حفرة ويدخل المدينة . وحينما أتم الحفر وبدأ الروم يصعدون رآهم إمرأة آمدية ومن فرحتها صرخت فجأة :هاهم الروم يدخلون المدينة فيسمعها الفرس وأسرعوا إلى أول واحد صعد وطعنوه . ثم صعد غوطى اسمه ألد — كان محاميا فى حران — وطعن ثلاثة من هؤلاء الفرس ولم يخرج أحد من الروم بعده لأن الفرس شعروا بهم وحينما رأى ألد أنه لم يصعد أحد خاف وعاد وفكر أن ينزل معه جثة الرومى الذى سقط حتى لا يمثل بها الفرس . وبينما هو يسحب الجثة وينزل إلى فوهة الحفرة طعنه الفرس وجرحوه ووجهوا إلى هناك ماء من عين كبيرة كانت قريبة لها وغرق هناك أربعة من الروم المدرعين كانو يستعدون للصعود . وفر الباقون وخرجوا من هناك . فجمع الفرس حجارة من داخل المدينة وردموا الحفرة ، وأهالوا عليها ترابا كثيرا وحرسوا بعناية كل ماحولها مخافة أن تحفر من مكان آخر . وحفروا خنادق حول السور من الداخل وملأوها بالماء حتى إذا أراد الروم أن يعملوا حفرة أخرى يسيل الماء داخلها فتعرف فلما علم فطريقيوس ذلك — من هارب نزل إليه — أوقف الحفر .

(٧٢) وفى أحد الأيام بينما جيش الروم كله ساكن وهادئ اشتعلت الحرب هكذا كان صبي يرعى الجمال والحمير ، فذهب حمار — وهو يرعى — ودخل عند

السور فتخلف الصبي أن يدخل ويحضره فلما رآه أحد الفرس تنزل بحبل من السور وأراد أن يمزقه ويحمله ليكون طعاما لهم لعدم وجود اللحم بتاتا بداخل المدينة .
وعندئذ إستل أحد عمال الروم — وأصله جليلي — سيفه وأخذ درعه في يساره وجرى إلي الفارس ليقتله ، ولما اقترب من السور ألقي من كانوا فوق السور علية حجراً كبيرا فسحق ذلك الجليلي ، وبدأ الفارسى يصعد إلى مكانه بالحبل ولما بلغ منتصف السور اقترب أحد الضباط الروم — بينما يمشى أمامه إثنان من حاملي الدروع — وأطلق سهما من بينهما فضرب ذلك الفارسى وطرحه بجانب ذلك الجليلي فعلت صرخة من كلا الجانبين ولهذا ثاروا وهموا للحرب . وأحاطت كل جيوش الروم بالمدينة فى وحدة مجتمعين وسقط منهم أربعون رجلا بينما جرح مائة وخمسون . وقد شوهد تسعة فقط ماتوا من الفرس الذين كانوا فوق السور . وقليلون جرحوا إذ كان من الصعب محاربتهم لأنهم كانوا فوق قمة السور إذ كانوا قد بنوا بيوتا صغيرة لهم على السور كله وكانوا يقفون بداخلها ويحاربون ، لذلك لم يرهم هؤلاء الذين فى الخارج .

(٧٣) عندئذ فكر الحاكم والقواد أنه لايجب أن يحاربوا معهم إذ لن يكون النصر للروم بقتلهم بل يكون بالحرب ضد الفرس اجمعين ، فان هزم قباذ يسلم هؤلاء انفسهم أو يهلكوا فى سجنهم . ولهذا أمر بالا يحاربهم أحد حتى لايتشتت عدد كبير من الجيش بسبب هؤلاء الذين يموتون أو يجرحون من الروم .

(٧٤) فى شهر حزيران (يونيو) حينما رأى قوسطنطين — الذى ذهب مع الفرس — أن أمورهم لن تنصلح ، هرب هو واثنتان من النساء المعروفة فى آمد كان ملك الفرس قد وهبهما له وسافر ليلا ونهارا اربعة عشر يوما خلال الصحراء — التى ليس بها أحد مع أتباع قليلين . وعندما وصل إلى الأمان عرف بنفسه لعرب الروم فقادوه وأحضروه

إلى القصر الذى يدعى شورا (١) ومن هناك أرسلوه إلى الرها . وعندماسمع الملك بوصوله أرسل فى أثره ولما وصل ليمثل أمامه أمر واحدا من الاساقفة بأن ينصبه كاهنا وأن يذهب ليعيش فى مدينة نيقية وإلا يظهر أمامه أو يتدخل فى شىء .

(٧٥) أما قباذ فعندما استولى على آمد دخل الحمام العام الذى له ، ولما اختبر فائدة الاستحمام ، أمر فى الحال-عندما ذهب إلى قريته -بأن تبنى الحمامات فى جميع مقاطعات الدولة الفارسية وقد اذعن عديد (٢) العربى - الذى كان خاضعاً للفرس هو وجيشه واصبح تابعا للروم .

ومرة أخرى فى شهر تموز (يوليو) حارب الروم ضدالفرس الذين كانوا فى آمد وضرب جناس قائد عرب (٣) كثيرا منهم بالسهام ولما اشتدت حرارة اليوم سخن عليه درعه ففك رباط حزامه قليلا . وبينما كانوا يضربون سهاما من المنجنيق من آمداصابوه ومات وعندمارأى الحاكم أن ضررا بالغا أصابه من سكنه فى آمد قادجيشه ونزل إلى مقاطعة الفرس تاركا فطريقيوس عند آمد . كذلك قاد اريوبندوس جيشه ودخلوا الارمينية الفرس وابادوا من الارمينيين و الفرس عشرة الاف رجل وأسروا ثلاثين الف أمراة وطفل ونهبوا وأحرقوا قرى كثيرة . وحينماعادوا اليدخلوا آمدقادوا معهم ١٢٠٠٠٠ رأس وثيران وبعير . وبينما كانوا يمرون بجوار مدينة نصيبين اختبأ الروم فى كمين . وقادالسبى قليلون . وعندما رأى أحد المرازبة - الذى كان هناك - انهم قليلون سلح كتائبه وخرج لكى يسلبها منهم وتظاهروا بالهرب فتشجع الفرس وتبعوهم . ولماابتعدوا عن أماكنهم خرج الروم من الكمين وابادوهم ولم يهرب منهم أحد . وكانوا حوالى سبعة

(١) عرفنا هذا الهارب قبل ذلك وكان فى نصيبين وربما هرب بعد ذلك وعبر الصحراء فى الجنوب الغربى حتى قرب من الفرات عند سورية بالقرب من الرقة .

(٢) شيخ قبيلة .

(٣) وهو اسم المكان الذى حول دمشق .

الاف رجل . وكذلك سلم موشلج الارمينى ـ الذى كان خاضعاً للفرس ـ نفسه وكل جيشه وخضع للروم .

(٧٦) سنة ٨١٦ (٥ / ٥٠٤م) وكان المحاربون ومن أخطأهم السلاح ممن بقى من سكان آمد فى محنة وكرب شديد بسبب الجوع . فخاف منهم الفرس خشية أن يسلموا المدينة للروم . فأوثقوا كل الرجال الذين كانوا هناك والقوهم فى الدرج وهكذا هلكوا من الجوع ومن القيد اللانهائى . أما النساء فاعطوهن من مأكلهم لأنهم يزنون بهم ولحاجتهم إليهن ليطحن ويخبزن لهم وحينما نقص الطعام أهملوهن وتركوهن يدون طعام لأنه فى هذه السنة لم يتسلم أحد منهم أكثر من قبضة شعير في اليوم بينما لم يأخذوا شيئا البتة من اللحم أو الخمر أو أى نوع آخر من المأكولات وشيئا البتة لم يكن لهم . ولما كانوا فى خوف دائم من الروم لم يتحركوا من مواقعهم نهائيا بل صنعوا لأنفسهم أفرانا صغيرة فوق السور واصعدو الهم طواحين يدوية ، وفى أماكنهم طحنوا قبضة الشعيرهذه وخبزوها وأكلوها . كذلك أصعدوا اقدورا كبيرة للعجن ووضعوها بين الشرافات وملئوها ترابا وزرعوا فيها خضرا وكل ما نما فيها أكلوه .

(٧٧) وفى الحكاية عما فعلته النسوة اللائى هناك فربما لن يصدقنى من يأتى بعدنا . ولكن فى هذه الأيام لا يوجد أحد من هؤلاء الذين يعنيهم معرفة الأشياء لم يسمع بكل ماجرى حتى وأن كان على بعد كبير منافهكذا تجمعت الكثيرات وتآمرن سويا فكن يخرجن خلسة إلى أسواق المدينة فى المساء أوفى الصباح ويخطفن داخل البيت من يقابلنه ـــ امرأة كانت أو طفلا أو شيخا ممن يتغلبن عليه ـــ ويقتلنه ويأكلنه مسلوقا أو مشويا وعندما عرف ذلك من ريح الشواء

ويبلغ الخبر المرزبان الذى كان هناك عذب كثيرا منهن وقتلهن واتفق مع الباقيات ألا يمدن إلا هـذا ويقتلن أحـدا . وإذن لهن بأن يأ كلن الذين ماتوا فعلن ذلك علنا وأ كلن لحم الأموات واحذيتهم والنعال القديمة وأشياء أخرى كن يلتقطنها من الأسواق والبيوت ويأ كلنها . أما جيوش الروم فلم ينقصها شىء بل كان كل شىء يرسل لهم فى وقته وبعناية شديدة وكانت تنزل لهم بأمر من الملك وكانت الأشياء التى تباع فى معسكراتهم أ كثر ممـا هى فى المدن سواء من مأ كل أو مشرب أو أحذية أو ملابس وكانت كل المدن تخبز خبز الجنود بواسطة خبازيهم ويرسـل لهم ، وخاصة الرهاويون لأن المواطنين كانوا يخبزون فى منازلهم :

وفى هـذه السنة أيضا (خـبز) بأمر من كليبو القائد العـام ٦٢٠٫٠٠٠ مد إلى جانب ما خبزه القرويون — فى المقاطعة كلها — والخبازون الأجانب وأبناء البلد .

(٧٨) ثم صعد مرة أخرى فى هذه السنة ماربطرس الأسقف إلى الملك يطلب منـــه أن يتنـازل عن الضريبة فأجاب الملك بشدة ولامه على ترك مساعده الفقراء فى زمن كهذا وصعوده إليـه فقال له حقا أن الله قد وضعها (الرحمة) فى قلبه إذ كانت المدينة المباركة جـديرة بأن يعمل لها معروف من غير أن يحثه أحـد ، وبينما كان الأسقف هناك ومن غير أن يشعر أرسـل الملك إعفاء لـكل ما بين النهرين بواسطة شخص آخر ، كما أعفى مقاطعة منبج من ثلث الضريبة .

(٧٩) أما قواد الروم الذين كانوا معسكرين فى آمد فكانوا ينزلون على أرض الفرس ناهبين وسابيين ومخربين . فأجلوا الفرس من أمامهم وعبروا نهر الدجلة . وهناك وجدوا فرسان الفرس الذين كانوا متجمعين سويا ليهاجموا الروم فتقووا عليهم عليهم وتوقفوا عند حدود الدجلة فعبر الروم خلفهم وأبادوا كل فرسان الفرس الذين كانوا حوالى ١٠٫٠٠٠ رجل ونهبوا كل ممتلكات الأسرى . وأحرقوا قرى كثيرة وقتلوا كل ذكر كان بها من ١٢ سنة فصاعدا . وسبوا النساء والأطفال . وهكذا أمر الحاكم جميع القواد بأن يقتلوا أى رومى يحمى ذكرا من ١٢ سنة فصاعدا بدلا منه وألا يتركوا بيتا قائما فى كل قرية يدخلونها ولهذا وزع رجالا أقوياء من الروم فتعقبوا كثيرا من القرويين وهم ينزلون . وبعد أن أحرقوا الأسطح وخمدت النار هدموا كل الأساسات كما حطموا الكروم والزيتون وجميع الأشجار ، وقد عبر عرب الروم الدجلة من قبلهم ونهبوا وسبوا وخربوا كل ماوجدوه بين الفرس .

وكما أعلم أنك تدرس كل الأشياء بعناية كبيرة كذلك يجب أن لاتتبين قداستك هذا وهو أن العرب على كلا الحالين كانت هذه الحرب سبب فائدة كبيرة لهم رغبتهم فى كلا المملكتين .

(٨٠) أما قباذ فعندما رأى أن الرومان يخربون البلاد ولا أحد يعترضهم أراد ان يأتى ويقاتلهم ، لذلك أرسل رئيس الشرطة إلى الحاكم ليفاوضه على السلام بينما كان معه جيش مكون من ٢٠٫٠٠٠ رجل وأرسل كل العلماء الذين أسرهم من آمد وبطرس الذى أحضره من أشبارين ، وبلازل الذى حمله من الرها كرهينة كذلك جثة أوليمبوس القائد — الذى كان قد نزل اليه كرسول ومات هناك — أرسلها فى تابوت ليظهر أنه مات ميتة طبيعية ولم يمت بشى خارجى وأشهد على ذلك عماله

الذين زلوا معه فنقلهم الحاكم وأرسلهم إلى الرها خلا حاكم آمـد والقائد بطرس إذا كان غاضبا وساخطا وأراد أن يقتلهم قائلا أنه بسبب إهمالهم سلمت البـلاد التى كانوا يحرسونها وقد شهد الفرس بأن سور آمد كان منيعا . عندئذ طلب منه رئيس الشرطة وتضرع إليه بأن يعطيه الفرس المحبوسين فى آمـــد بدلا من هؤلاء الذين أحضرهم لأنه على الرغم من أنهم صمدوا بسبب الخوف إلا أنهم كانوا فى شدة بسبب الجوع ولـكن الحاكم قال : لاتذكر لى موضوع هؤلاء لأنهم مسجونون فى مدينتنا وهم عبيدنا فقال له رئيس الشرطة : اسمح لى بأن أرسل لهم طعاما لأنه لا يجمل بك أن تترك عبيدك يموتون جوعا إذ أنك تستطيع أن تقتلهم متى شئت فقـــال له : رسل فقال رئيس الشرطة : أقسم لى أنت وجميع قوادك ورؤساء الجيش الذين معك أن أحداً لن يقتل هؤلاء الذين ارسلهم .فاقسموا له جميعاً ماعدانونوس القائد الذى لم يـكن معهم بتدبير سابق . أذ ان الحاكم تركه لهـذا السبب وهو إذاكان هنـاك قسم لايرتبط به عندئذ أرسل رئيس الشرطة ثلاثمائة جمل محملين باجولة الخبز موضوعا بداخلها رماح فانقض عليهم فونوس وأخذها منهم وقتل من كانوا معهم. وعندمااشتكى رئيس الشرطة من هذا وطلب من الحاكم أن يعاقب الذى فعل ذلك قال له الحاكم لا أستطيع أن أعلم من فعل ذلك بسبب كثرة عدد الجيش الذى معى ولـكن إذاعلمت أنت من هو وعندك المقدرة لـكى تنتقم منه فلن اعترضك . ولـكن رئيس الشرطة خاف من ذلك وطلب السلام .

(٨١) وبعد أيام كثيرة من طلبه حدث برد شديد مع ثلج وجليد كثير فترك الرومان معسكراتهم الواحدة تلو الآخر وحمل كل واحد اسلابه وذهب لينقلها إلى بلده . أمامن بقى منهم ولم يذهبوا إلى بلادهم فقد داخلوا تلارأس العين والرها ليحتموا من البرد فلمارأى رئيس الشرطة أن الروم تهاونوا ولم يصمدوا أمام البرد ارسل إلى الحاكم أما أن تقيم السلام وتترك الفرس يخرجون من آمد أو انتظر الحرب ، فأمر الحاكم

جوستين القائد بأن يجمع الجيش ولكنه لم يستطع ، فلما رأى أن أكثر الروم قد تفرقوا من حوله أقام السلام وترك الفرس يخرجون من آمد على أساس هذه الشروط : أن يحسن (السلام) فى أعين الملكين ويوافقا على ما عمل والا سوف تقوم بينما الحرب فلما علم بذلك ملك الروم أمر بأن يقام مخزن عام فى كل مدينة وكثير منه فى آمدلوضع نهاية للعداوة وربط أواصر السلام كما أرسل إلى قباذ هدايا وعطايا مع رجل يدعى ليون واوعية لمائدته مصنوعة كلها من الذهب . .

(٨٢) وكم قاسى الرهاويون الذين كانوا ينقلون الطعام الى آمد : ولا يعرف ذلك الا القائمون بذلك العمل فان اكثرهم مات بالطريق هم وقطعانهم .

(٨٣) وقد مات يوحنا الفاضل اسقف آمد قبل أن يعسكر الفرس بها فصعد ابناء الاكليروس الى القديس ، المحب لله ، والمزين بكل جمال الالوهية ، القوى البارع مارفلافيان بطرق أنطاكية لكى يعين لهم قسيساً :فعاملهم باحترام كل الايام التى مكثوها هناك وبعد ذلك هرب من الاسر نونوس الفاضل رئيس خدم كنيسة آمد :وطلب رجال الاكليروس البطرق فعينه اسقفا لهم : وحينما رسم الفاضل نونوس رئيسا للكهنة أرسل توماس مساعد اسقفيته الى القسطنطنية ليحضر الامديين الذين هناك ويطلب مساعده من الملك فتآمر معه الذين كانوا هناك وطلبوا من الملك بان يكون توماس نفسه اسقفا لهم فتقبل الملك رجاءهم وارسل البطرق بالا يضغط عليهم وعين لهم الأسقف الذى طلبوه : ووهب الملك والبطرق هدايا لكنيسة آمد وذهبا كثيرا ليوزع على الفقراء لذلك تجمع هناك كل هؤلاء الذين يتجولون فى اماكن أخرى ويخرجون اشلاء الموتى من آمد وتسلموا ماخصص لهم :

(٨٤) فى نفس السنة بعد أن توقفت الحرب أصبحت الحيوانات المفترسة اكثر توحشا ضدنا . وبسبب كثرة أشلاء القتلى الذين سقطوا فى الحرب استساغوا أكل اللحم

الآدمي وعندما تعفنت جثث القتلى واختفت دخلت الحيوانات المفترسة القرى وخطفت الأطفال واكلتها كذلك هاجمت الرجل المنفرد فى الطرقات واهلكته وهكذا كانوا خائفين حتى أنهم فى وقت درس الحنطة لم يوجد رجل فى المنطقة باكملها يبيت فى جرنة بغير كوخ خوفا من الحيوانات المفترسة ولكن بمساعدة الرب الذى يرعانا فى كل الاوقات ومن كل المصائب يحمينا برحمته سقط بعضهم فى ايدى القرويين وطعنوهم وازسلوا اجسامهم ميته إلى الرها كما أمسك الصيادون بعضهم وقيدوهم واحضروهم احياء فرآهم كل الناس وشكروا الله الذى قال . «ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض»(١) فمن أجل خطايانا أرسلت علينا الحرب والمجاعة والطعون والاسر والحيوانات المفترسة ونكبات أخرى مكتوبة وغير مكتوبة انقذنا منها بطيبتـــه .

(٨٦) كذلك أنا ــ الرجل ضعيف القوة ــ قد تقويت برحمته بسبب صلواتك حتى أننى أكتب ــ على قدر استطاعتى ــ هـذه الأشياء التى حدثت كتذكرة لهؤلاء الذين كابدوها وكإرشادات لهؤلاء الذين سوف يأتون بعدنا إن أرادوا بكتابتى القليلة هذه أن يكونوا عقـلاء ولم أترك أكثر مما كتب . فمن ذلك الذى كتبت ومنذ البداية قلت أننى لست بمحصيها لأن المعاناة التى تحملها كل واحـــد على حده إذا سجلت كونت قصصا طوالا ولم يكف لها مجلد كبير . ولتعلم أن من تلك (الأشياء) الأخرى المكتوبة أن هؤلاء الذين جاءوا لمساعدتنا باسم المخلصــين ــ فى نزولهم وصمودهم تقريبا ــ نهبونا كالأعداء . وقد أنزلوا الفقراء كثيرين من أسرتهم وناموا بها بينما نام أصحابها فى العراء فى الجو البارد كما طردوا وأخرجوا آخرين من بيوتهم ودخلوا هم وعاشوا فيها وأخذوا بالقوة بعير الآخرين وكأنهم سبى مقاد وخلعوا

---

(١) تكوين ٩ : ٢

ملابس البعض عن أجسامهم وأخذوها وضربوا البعض بوحشية لأتفه الأسباب . وتشاجروا فى الأسواق مع آخرين وكانوا يأسرونهم من أجل سبب بسيط . وكانوا ينهبون علانية كميات الغذاء القليلة لكل واحد والمئونة التى خزنها البعض فى القرى والمدن وانقضوا على كثير من الطرق العامة ولأن بيوت وفنادق المدينة لم تكن كافية لهم كانوا يبيتون مع العمال فى حوانيتهم وتسلطوا على كل النساء فى الأسواق والبيوت أمام أعين كل الناس وأخذوا من المسنات والأرامل والفقراء الزيت والخشب والملح وأشياء أخرى لاستعمالهم الخاص ومنعوهم من أعمالهم لكى يخدموهم وباختصار فقد اضطهدوا كل واحد من الكبير إلى الصغير ولم يبق أحد لم يقاس من أذاهم كذلك حكام البلد الذين نصبوا ليحافظوا على النظام ويفضوا نزاعاتهم مدوا أيديهم للرشاوى . وقد أخذوها من كل واحد ولم يتركوا أحدا ولكن بعد بضعة أيام أرسلوا إلى هؤلاء الذين خرجوا عليهم من قبل كما نزلوا على القسس والشمامسة مع أن لديهم أمرا من الملك بألا ينزلوا عليهم ولكن لماذا أتعب نفسى فى تسجيل أشياء كثيرة لم يستطع تسجيلها من هم أعظم منى .

(٨٧) عندئذ ومن بعد أن عبر نهر الفرات ناحية الغرب ذهب الحاكم إلى الملك واريوبندوس إلى أنطاكية وفطريقيوس إلى ملطية(١) وفرزمان إلى أفاميا(٢) وتيودور إلى دمشق

---

(١) ملطية شمال حلب إلى الشرق ، قاعدة بلاد الثغور ، وقد عدها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم . قال صاحب حماة : والأليق عدها من بلاد الروم ، ثم قال وعدها بعضهم من الثغور الجزرية ، وكانت قديمة فخربتها الروم ، فبناها أبو جعفر المنصور فى سنة ١٨٩ هـ وجعل عليها سورا محكما — وهى فى شمال الجبل الدائر بسيس فى غربية فى الجنوب عن سيواس وفى الغرب عن كختا (القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ١٣١ - ١٣٢) .

(٢) أفامية : بحيرة . وهى عدة بطائح فى الغرب بين غابات من القصب ويصب فيها النهر العاصى من جهة الجنوب ، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك

وكاليبو إلى منبج وأصبح متنفس قليل بالرها وفرح بهذا من بقى بها من الناس وشغل الحاكم ايوجلوس نفسه باعادة بنائها وأعطاه الملك مائتى رطل من (الذهب) لنفقات البناء . وبنى وجدد السور الخارجى الذى يحيط بالمدينة وجددوأعاد إصلاح مجرى المياه التى تنبع من قرية تل زيما ومن مودد (١) وبنى وأكمل الحمام العام الذى سقط كذلك جدد قصره وبنى الكثير فى كل المدينة كما أعطى الملك للأسقف عشرين رطلا (مـن الذهب) لنفقات ولتجديد السور . وعشرة أرطال للمؤمن أوربيكيوس بيتا للشهداء (باسم) القديسة مريم أما الزيت الذى كانت تمون به الكنائس والأديرة من مخزن الزيت قد بلغ ٦٨٠٠ قسط فقد أخذه الحاكم منهم وأمر بأن ينار فى أروقة المدينة ولم يقبل توسلات السدنة بخصوصه وحتى لايظن أنه يحتقر الكنائس التى تبنى للرب أعطى بممتلكاته لكل بيت للشهداء مائتى قسط . وحتى تلك السنة كان يباع القمح أربعة مدود بدينار والشعير ستة والخمر كيلان وبعد هذه الأسباب الجديدة بيع ستة مدود من الحنطة بدينار والشعير عشرة .

(٨٨) عندئذلم يهدأ عرب الفرس أو يرتاحوا ولكن عبروا إلى مقاطعة الروم بدون الفرس وسبوا قريتين وحينما علم بهذا مرزبان الفرس ــ الذى كان فى نصيبين ــ أخذ رؤساءهم وقتلهم كذلك عبر عرب الروم بغير أوامر إلى مقاطعة الفرس وسبوا مزرعة . وعندما بلغ ذلك الحاكم ، وكان قد نزل فى نهاية هذه السنة إلى أفاميا ،

= فالجنوبية منهما بحيرة أفامية المذكورة ، والبحيرة الشمالية من حصن برزوية بقدر بحيرة أفامية أربع مرات وينبت الللينوفر بجانبها الجنوبى والشمالى وبينها وبين بحيرة أفامية المذكورة زقاق تسير فيه المراكب من أحدهما إلى الأخرى المرجع السابق ص ٨٤

(١) تل زيما ومودد قريتان فى شمال الرها .

أرسل له تيموستراتوس حاكم الرقة فأمسك خمسة من رؤساءهم وقتل اثنين منهم بالسيف وصلب ثلاثة على الخشب ، عندئذ رحل فارزمان من أفاميا بعد أن نزل الحاكم إلى هناك ، وجاء وعسكر فى الرها وتسلم أمرا من الملك بأن يكون قائدا بدلا من هيبا تيوس .

(٨٩) وقد بنى وجدد سور قلعة بطنان فى سروج — الذى سقط ودمر كله — بعناية أولوجيوس حاكم الرها وغطى القسيس الطيب أدوسيوس بالنحاس أبواب بيت الرجال فى كنيسة الرها .

(٩٠) سنة ٨١٧ (٦/٥٠٥ م) عندئذ أبلغ قواد جيش الروم الملك بأن حدث ضرر بالغ للجيوش من عدم وجود مدينة لهم على الحدود إذ حينما يخرج الروم من تلا أو آمد ليطوفوا فى غزوات بين العرب يكونون فى خوف حينما يحاولون من غدر الأعداء . وإذا تقابلوا مع جيوش أكبر منهم وحاولوا التفكير فى العودة إلى مكانهم تحملوا تعبا كبيراً لعدم وجود مدينة بالقرب منهم يختبئون فيها لذلك أمر الملك بأن يبنى سور لقرية دارا الواقعة على الحدود واختير عماله من سوريا كلها ونزلوا هناك وبنوه لها عندئذ خرج الفرس من نصيبين وأوقفوهم ولهذا رحل فارزمان من الرها ونزل وعاش في آمد وكان يذهب إلى البنائين و يساعدهم كما كان يقوم برحلات صيد للحيوانات وخاصة الخنازير البرية التى كثرت هناك وكان يصيد منهم أكثر من أربعين فى يوم واحد . وكبرهان على براعته أرسل منها إلى الرها أحياء ومقتولين .

(٩١) أما الطيب سرجيوس أسقف برتاقسطرا (١) — الذى يعيش بالقرب

---

(١) تقع هذه البلدة على نهر الفرات ولذلك فهى ربما تكون مدينة بير أو بيرجيك التى جاء ذكرها من قبل .

منا على نهر الفرات فقد بدأ فى بناء سور لمدينته وأعطاه الملك ذهبا ليس بالقليل لنفقاته ، كما أمر الحاكم ببناء سور لجرباس التى تقع غرب النهر فى مقاطعة منبج واشتغل فيه أبناء المنطقة على قدر استطاعتهم .

(٩٢) وبعد أن نزل فارزمان إلى آمد جاء مكانه القائد رومانوس وأقام فى الرها هو وجيشه ومنح الفقراء صدقات كثيرة أما الملك فقد زاد على كل الحسنات فى هذه السنة وأرسل تنازلا عن الضرائب لكل مابين النهرين وابتهج كل ملاك القرى وشكروا الملك .

(٩٣) وقد تذمر معظم الشعب وصاحوا قائلين ما كان يجب على النوطيين أن يسكروا عندنا بل يسكروا عند أصحاب القرى لأنهم قد انتفعوا بهذا التنازل . عندئذ أمر الوالى بأن يلبى طلبهم وحينما بدئ فى تنفيذ هذا اجتمع كل عظماء المدينة عند القائد رومانوس وطلبوا منه قائلين : فتأمر فخامتك ماذا يجب أن يأخذ كل واحد من النوطيين فى الشهر وإلا فعندما يدخلون بيوت الأغنياء ينهبونها كما نهبوا العامة فقبل طلبهم وأمر بأن يأخذوا قدر زيت فى الشهر ومائتى رطل من الخشب وسريرا ومخدة لكل اثنين منهم .

(٩٤) فلما سمع النوطيون هذا الأمر أسرعوا إلى القائد رومانوس فى بيت برسا (١) ليقتلوه وبينما هم يصعدون درج مسكنه سمع صوت ضوضائهم وزمجرتهم وأدرك ماذا يريدون عمله فلبس درعه بسرعة وحمل

---

(١) كان للرها أسقف يدعى بهذا الإسم .

أسلحته واستل سيفه ووقف عند الباب العلوى للمنزل الذى حاولوا به ولم يقتل أحدا من المواطنين ، ولكن ظل ملوحا بسيفه ومنع الاوائل الذين صعدوا من الدخول عليه أما هؤلاء الذين تحت فكانوا يزعمون - وهم فى غضبهم - الذين فوق أن يصعدوا ويقبضوا عليه ولتعلم فخامتك أنه قد هجم عليه جم غفير بواسطة الدرج . ولما لم يستطع الاولون الذين صعدوا أن يدخلوا خوفا من السيف والذين وراءهم يضغطون عليهم فثقل بذلك الدرج كثيرون وبسبب الثقل انكسر ووقع عليهم فمات قليل منهم ولكن كسرت أطراف الكثيرين وشوهوا ولم يشفوا ثانية وقد نسخت فرصة لروما نيوس بسبب هذه الحادثة فهرب فوق السطح من بيت إلى آخر واختفى . وبعد ذلك لم يقل لهم شيئاً لذلك ظلوا حيثما كانوا يعملون ما يحلو لهم لانه لم يوجد من يردعهم أو يكبح جماحهم أو ينذرهم .

(٩٥) ومرض كل هذا العام اسقفنا بطرس مرضاً قاسياً وخطيراً ، ثم فى شهر نيسان (أبريل) ازداد الشكرب مرة أخرى على مدينتنا . عندئذ جمع الحاكم كل جيشه وقام لينزل الى مقاطعة الفرس ليقيم ويجدد معهم معاهدة السلام وحينما دخل الرها جاء اليه رسل الفرس واخبروه بان قائد الجيش الذى حضر لمقابلته ويعقد معه السلام قد مات وتوسلوا اليه قائلين : أن صح أنه نزل للسلام فلا يعبر الرها حتى يرسل قائد آخر من قبل ملك الفرس فتقبل رجاءهم وظل فى الرها خمسة أشهر . ولما كانت المدينة غير كافية للمواطنين الذين كانوا معه فقد عسكروا كذلك فى القرى وفى كل الاديرة الكبيرة والصغيرة التى حول المدينة حتى هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى وحده لم يتركوا ليعيشوا فى الهدوء الذى يبتغونه لانهم نزلوا أيضا فى أديرتهم .

(٩٦) وهكذا أصبحوا شرهين فى المأكل والمشرب لانهم من اليوم الأول الذى جاءوا فيه لم يأكلوا على نفقتهم حتى أن البعض الذين كانوا يتمتعون فى البيوت العالية

خرجوا فى الليل فاقدى الوعى من كثرة الخمر ووقعوا فى مكان خال وانبطحوا فى الأعماق ورحلوا عن الحياة بنهاية سيئة وآخرون بينما كانوا يجلسون ويشربون غرقوا فى سبات ووقعوا من المنازل العالية وماتوا فى أماكنهم . وآخرون ـ على اسرتهم عانوا من الاكل الكثير . وصب آخرون ماء مغليا فى آذان هؤلاء الذين يخدمونهم لاسباب تافهه. والآخرون الذين ذهبوا إلى الحدائق ليأخذوا خضرا قتلوا البستانى ـ حينما كان يهم بمنعهم من أخذها ـ بسهم ولاثأر لدمه وآخرون ظلوا ـ بينما وقاحتهم تزداد ـ ولا أحد يمنعهم . والذين نزلوا عليهم تعاملوا معهم بحصافة كبيرة وفعلوا كل ماراق لهم ولما لم يعطوهم الفرصة لكى يسيئوا اليهم غلبوا بغضبهم وقتل بعضهم البعض على أنه كان بينهم آخرون عاشوا بنعومة لاتغيب عن معرفتك فمن غير الممكن الا يوجد مثل ذلك فى هذا الجيش الكبير . أما سيئات الاشرار فقد ازدادت سوءاً حتى أن الخاطرين الذين كانوا فى الرها أقدموا على عمل ما كان يجب عليهم أن يعملوه فقد سجلوا على قصاصات من الورق شكاوى ضد الحاكم وثبتوها سرا فى الاماكن المعروفة فى المدينه . وعندما سمع لم يغضب ـ كما كان يجب ـ كما لم يتعقب من فعل هذا ولم يفكر بالحاق الاذى بالمدينة لطيبته ولكنه تحمل كثيراً ليسود الهدوء الرها سريعا ،

(٩٧) سنة ٨١٨ (٧/٥٠٦ م) عندئذ قاد الحاكم جيشه كله ونزل إلى الحدود وجاء اليه رسول الفرس فى مدينة دارا ومعه الرهائن التى أرسلها القائد وأخبره بأنه أن أراد أن يقيم السلام فليرسل هو ايضا الرهائن فى مقابل هؤلاء الذين أخذهم ثم بعد ذلك يتقابل الطرفان بود ويقابل كل الآخر مع خمسمائة فارس غير مسلحين ويجلسون فى اجتماع ويتفاوضون فيما يجب عمله . فوافق على طلبهم وأرسل الرهائن ونزل غير مسلح لمقابلة القائد فى اليوم المحدد. ولأنه كان خائفا من ان تحدث خيانة مامن الفرس أوقف كل جيش الروم تجاههم مسلحين وعين لهم علامة وأمرهم بان يأتوا

اليه مسرعين إذا رأوا هذه العلامة . وعندما جاء القائد لمقابلته وجلس فى الاجتماع مع هؤلاء الروم وكل القـواد الذين معه لاحظ واحد من جنود الروم أن كل هؤلاء الذين جاءوا مع القائد يلبسون سلاحا من الداخل . فاخبر بذلك فارزمان رئيس الجند والقائد تيموستراتوس . فاعطى هؤلاء العلامة للجيوش . وفى الحال صرخوا وجاءوا إليهم فسجنوا القائد والذين معـه بينهم أما الجيش الذى كان فى معسكر الفرس فحينما علم بأن القائد هو ومن معه أخذوا سجناء هربوا من خوفهم ودخلوا نصيبين عندئذ أراد الروم أن يقتلوا القائد والذين معه ولـكن الحاكم طلب منهم الا يوجدوا فرصة للحرب فيمدوا السلام فقبلوا بعد لأى واستمعوا اليه وتركوا القائد والذين معه يخرجون من بينهم من غير ايذاء لانه حتى فى وقت انتصارهم كان قواد الروم ينشدون السلام . وعندما عاد القائد إلى معسكره ورأى ان الفرس قد دخلوا نصيبين خاف أن يظل وحدة فدخل اليهم وأجبرهم على الخروج معه من المدينة ولـكنهم من خوفهم لم يستطيعوا الخروج وحتى لايظهر خوفهم للروم أرسل القائد واحضر اخته إلى نصيبين وكعادة الفرس أتخذها زوجة وعندما أرسل اليه الحاكم بانه لن يؤذيك أحد حتى وأن خرجت بمفردك رد عليه قائلا : انى لم اخرج خوفا ولـكنى استكمل أيام الزفاف وبالرغم من أن الحاكم علم بالموضوع كله ألا أنه تغاضى عنه تماما وكأنه لايعلم .

(٩٨) وبعد بضعة أيام عندما خرج إلية القائد سلم للفرس — حبا فى السلام — كل الأشياء التى طلبوها وعقد معهم اتفاقا وأقام السلام . وكتبوا عهودا بينهم وحدد وقت لاتشن فيه حرب بينهم ففرحت كل الجيوش وابتهجت بالسلام الذى أقيم .

(٩٩) وبينما كانوا على الحـدود استقبل الحاكم كلير وكاليوبيوس خطابات من الملك انستاس مليئة بالعنايه والرحمـة على كل بلاد مابين النهرين وكتب لهم هكذا : أن

وجدوا أن الأجدر أن ترفع عنهم الجزية فلهم الحق فى رفعها بدون تأخير . ففكروا بأن ترفع الجزية كلها عن الآمديين ونصفها عن الرهاويين وأرسلوا وأعلنوا ذلك في الرها . وبعد فترة قصيرة أرسلوا خطابات أخرى عن السلام الذى أقيم .

(١٠٠) وفي الثامن والعشرين من شهر تشرين الاخر (نوفمبر) قاد الجيش كله وصعد من الحدود وعندما وصل الحاكم إلى الرها قرر ألا يدخلها بسبب تقلبهم عليه. ولكن توسل إليه ابن جداد الجبار أسقف تلا ألا يسمح للغضب بأن يتسلط به وألا يترك من بعده حزنا أو انزعاجا لأحد فقبل توسلاته عن طواعية . وخرج كل الرهاويين بابتهاج كبير ليقابلوه يحملون شموعا من الكبير إلى الصغير كما خرج معهم كل رجال الدين وأعضاء المذاهب الدينية والرهبان ودخلوا المدينة بفرح عظيم . وبدأ الجيش كله — في نفس ذلك اليوم — في السفر . أما هو فقد بقى ثلاثة أيام وأعطى الحاكم مائتى دينار لتوزع كهدايا وبينما فرح سكان المدينة بالسلام الذى أقيم وابتهجوا بالإعفاء الذي سوف يتمتعون به بعد الاضطهاد الذى كانوا فيه ورقصوا طربا بأمل الأشياء الطيبة التى توقعوا مجيئها حمدوا الله الذي بطيبته ورحمته قد أسبغ السلام على المملكتين . وقد رافقوه أثناء رحيله بالأغاني التى تناسبه هو ومن أرسله .

(١٠١) وإن ظهر هذا الملك بمظهر مختلف فى نهاية حياته فلا (تدع) أحداً يستاء من شكره ولكن (دعه) يتذكر الأشياء التى عملها سليمان فى نهاية حياته وقد كتبت هذه الأشياء القليلة من الكثير — على قدر استطاعتى — وذلك لمحبتك راغبا وغير راغب . أما من حيث أننى غير راغب فلذلك لكى لا أعجب العالم الحكيم الذي يعرف هذه الأشياء أكثر منى وأما من حيث أننى راغب فمن أجل إطاعة أمرك .

والان أتوسل إليك أن توفى بالعهد الذى يشتمل عليه خطابك وهو أن تقدم للرب صلات دائمة على خطاياى . وسوف تكون عنايتى بأن أشبع رغبتك ، وكل مايحدث فى الزمن المقبل ويستحق التسجيل فسوف أكتبه وأرسله إلى أبوتك مابقيت حيا . فلأصل من هذا المكان . وأبوتك من هناك وكل الناس من كل مكان لتكون كلمة التاريخ عن التحول الكبير الذى يحل بالعالم فلن نكون كافين لكتابة هذه الأشياء كما حدثت فى هذه الأزمان السيئة بسبب محنها الكثيرة كذلك ربما نكون غير قادرين على أن نقص عن تلك التى ستأتى بسبب كثرة محاسنها وقد تكون كلتانا أضعف من أن تعبر عن الحياة السعيدة لأبناء مدينتنا ، وعن الهدوء والسلام الذى سوف يحكم العالم وعن الخصب الوفير الذى سوف يكون وعن وفرة المحصول بسبب بركة الرب الذى قال (١) : « لأن الضيقات الأولى قد نسيت ولأنها استترت عن عينى »

له المجد إلى أبد وإلى الأبد آمين

---

(١) أشعيا : ٦٥ : ١٦ :

Ioshua the Stylite.

1 — W. wright, the chronicle of Joshue the Stylite, composed in syriac A.D. 507, with a translation into English and rotes, cambridge, 1882.

2 — Paulin Martin. chronique de Josué le stylite. ecrite vers l'an 515, texte et trad, dans les Abhandlunrgen für die kunde des Morgenlandes, herausgegeben Von des deutschen Morginlandischen fesellschaft, VI Band: No 1, Leiprig. 1876.

3 — F. Nau, Analyse des Parties inédites de la chronique attribuée à Denys de Tellmahré, 1898, P. 12, extrait du supplément de l'arient chrétien, 1897, II : 41—68.

4 — F. Nau, Bulletin critique, 25 Janvier 1847, P. 54-58

5 — Assemani, B.O., I: 260—283.

6 — Wright. Syr. Lit, P.77.

7 — Duval, Litt, Syr. P. 187.

8 — Baumstark, Syr. Litt. P. 146.

9 — F. Haase, D. chronik de, Josua Stylites, in Oriens christianus IX : 62—73.

10 — Näldeke, Lit zentralblatt, 1898.

دراسة فى مصادر تاريخ مصر فى عصر البطالمة :

١

بطلميوس الثانى والاحتفال بعيد البطوليايا

للدكتور مصطفى كمال عبد العليم

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس

استحدث الملك بطلميوس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٦ ق . م .) فى عام ٢٧٩ ق . م .(١) بين أعياد أسرته عيد البطوليايا Ptolemaeia تمجيداً لذكرى والده المؤله الملك بطلميوس الأول سوتر (٣٠٥ — ٢٨٣ ق . م .) وهو عيد كان الاحتفال يجرى به مرة كل أربع سنوات Peneteris وقد كتب كاليكسينوس Callixeinus (٢) حوالى عام ١٥٥ ق . م . فى زمن الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور (٢٢١ — ٢٠٣ ق . م .) وصفا للمهرجان Pompé الذى كان الملك بطلميوس الثانى قد نظمه فى عام ٢٧٤ ق . م .(٣) فى حلبة سباق الاسكندرية polis stadiou بعد أن رجع إلى السجلات الرسمية للمباريات التى كانت تجرى فى احتفال البطوليايا(٤) . وقد نقل أثينايوس Athenaeos (٥) ، من مدينة نقراطيس ، وهو من كتاب القرن الثانى الميلادى ، وصف هذا المهرجان وحفظه لنا . وعنه نورد بعض المقتطفات الأساسية الهامة ثم نعقب عليها بالتعليق والشرح .

وكما كان يحدث فى المباريات الأولمبية ، شأن كل الألعاب الكبرى فى بلاد الإغريق ، بعث بطلميوس برسله (theôroi) إلى المدن الإغريقية وقدم الرياضيون

من كثير من أرجاء بلاد الإغريق للاشـــتراك فى المباريات التى ستقام فى حفل البطولمايا(٦) .

وفيما يلى بعض المقتطفات نقلا عن أثينايوس(٧) :

« يذكر كالـيكسينوس أن العرض جرى فى منتصف الشتاء (٨) .

« على رأس المهرجان كان يسير قسم نجم الصباح لأن العرض بدأ مع ظهور هذا النجم ، ثم تبع ذلك القسم من المهرجان الذى أخذ إسمه من إسم أسلاف الملـكين Basilé on geneûsi ثم تتابع سير الأقسام التى أخذت أسماءها من أسماء كل الآلهة hai tôn Theôn hapânton وكان كل آله يتجـــلى برموز تتفق مع أسطورته .

ويأتى القسم الأخير وهو قسم نجمة المساء .

وإذا كان هناك ثمة من يريد معرفة تفاصيل المهرجان عليه أن يدرس سجلات المباريات التى كانت تقام مرة كل اربع سنوات peneteris .

وبذلك يكون كاليـكسينوس قد أبرز فى هذه الفقرة الأقسام Pompai الرئيسية التى شملها العرض . وبعد ذلك يفصل الحديث عن هذه الأقسام فيقول .

« وفى مقدمة العرض فى القسم المخصص لديونوسوس pompé Dionysikès سارت جماعة السيلينوى Silenoi وكانت مهمتهم حجز جموع النظارة عن طريق العرض وكانوا يرتدون معاطف الركوب الأرجوانية وكان يتبعهم مباشرة عشرون من الساتيروى وهؤلاء اتخذوا أماكنهم فى القسم الأمامى من حلبة السباق بينما اتخذ عشرون آخرون أماكنهم فى القسم الخلفى منه وهم يحملون الشعلات التى تزينها أوراق اللبلاب المذهبة .

«وظهرت بعد ذلك ربات النصر Nikai بأجنحتها الذهبية وكن يحملن مباخر يبلغ ارتفاع الواحدة منها تسعة أقدام . وكانت النساء اللاتى يمثلن هؤلاء الربات يرتدين أردية موشاة ويتزين بحلى كثيرة من الذهب .

«وتلى ذلك مذبح مزدوج يبلغ من الطول تسعة أقدام وقد حفرت على جوانبه أوراق اللبلاب المذهبة ويعلوه تاج من أوراق الكروم مصنوع من الذهب .

وسار فى اثره مائة وعشرون غلاما يرفلون فى أرديتهم القرمزية ويحملون اللبان والمر والزعفران على صحاف ذهبية .

«وظهر بعدهم فى العرض أربعون من الساتيروى تعلو رؤوسهم تيجان من الذهب على شكل أوراق اللبلاب وقد لونت أجسام بعضهم باللون الأرجوانى والبعض الآخر باللون القرمزى وألوان أخرى .

وتبعهم إثنان من السلينوى الذين يرتديان معاطف الركوب الأرجوانية ويتنعلان أحذية بيضاء وكان أحدهما يضع على رأسه قبعة عريضة ويمسك فى يده صولجانا ويحمل الآخر طبلة . وبينهما كان يسير رجل طوله ستة أقدام فى لباس تراجيدى ويضع قناعاً فوق رأسه ويمسك بقرن الرخاء واسمه «العام» وكانت تتبعه أمرأة رائعة الجمال وتماثله طولا ، تلتف فى ثوب مزركش وتتزين بحلى ذهبية كثيرة وتمسك فى إحدى يديها تاجا من ورق البرسيا Persea (وهو نبات مصرى) وفى اليد الأخرى تمسك بواجدة من سعاف النحل واسم هذه المرأة حفل السنوات الاربع peneteris .

«وكان يتبع هذه المجموعة موكب الفصول الأربعة ويحمل كل موسم الفواكه التى تنسب إليه .

«ثم تبعته مبخرتان طول الواحدة منهما تسعة أقدام تزينها أوراق اللبلاب الذهبية

وبينهما مذبح مربع الشكل من الذهب .

«ومرة أخرى ظهرت مجموعة من الساتيروى يلبس الواحد منهم تاجا مصنوعا من الذهب وكان على هيئة أوراق اللبلاب ويرتدون أردية حمراء . وكان بعضهم يحمل جرار الخمر ويحمل آخرون كئوسا من الذهب .

«وبعدهم كان يسير الشاعر فيليسكوس والذى كان كاهنا لديونوسوس وكل جماعة فنانى ديونوسوس hoi Peri ton Dionyson technitai.

«وظهرت فى العرض بعد ذلك المقاعد الدلفية ذات القوائم الثلاث Delphikoi rripodes بوصفها جوائز حصل عليها المشرفون الرياضيون hoi ton athleton Cherego . ويبلغ طول المشرف على تدريب طبقة الغلمان Padikos ثلاثة عشر قدما ونصف ، وطول المشرف على طبقة البالغين ho tôn andrôn ثمانية عشر قدما .

«وبعد ذلك ظهرت عربة ذات أربع عجلات طولها واحد وعشرون قدما وعرضها اثنى عشرة قدماً يجرها مائة وثمانية من الرجال ويقف فيها تمثال agalma لديونوسوس طوله خمسة عشر قدما وهو يسكب قرابين النبيذ من كأس من ذهب ويرتدى رداء قرمزيا يتهدل على قدميه وعليه معطف شفاف زعفرانى اللون وحول كتفيه عباءة قرمزية تبرق بالذهب وأمامه وعاء نبيذ لا كونى يسع مائة وخمسين مكيالا ومقعد ذى ثلاثة قوائم عليه مبخرة وصفحتان من ذهب وقد عمرت بالقاسيا Cassia والزعفران . وفوق ديونوسوس تنتشر مظلة تناثرت فيها أوراق اللباب وحبات عنب وفواكه أخرى ويحمل اتباع الاله الصولجان والدفوف وأقنعة التراجيديا والكوميديا .

«وكانت جماعة من الكهنة والكاهنات تسير وراء العربة ومعها المسئولون عن اللابس الرسمية للكهنة والهيئات المقدسة ونسوة من أتباع ديونوسوس Bacchantes

للقدونيات اللائى يعرفن باسم Mimallones وعدد من Basgarae ونسوة ليديات تهدل شعورهن . وكانت رؤوسهن متوجة بتيجان من أوراق اللبلاب وأوراق العنب . وكان بعضهن يحمل خناجر والبعض الآخر حيات .

«وبعد هؤلاء النسوة مرت عربة ذات أربع عجلات عرضها اثنى عشر قدما يجرها ستون رجلا وتجلس فيها الحورية نوسا Nyses يبلغ طولها اثنى عشر قدما وتلبس رداء أصفر تتخلله خيوط ذهبية يحوطها وشاح لاكونى.وكان تمثال الحورية يرتفع من تلقاء نفسه دون أن يلمسه إنسان وبعد أن تصب الحورية قربانا من لبن فى طبق من ذهب تعود إلى الجلوس وكانت تمسك فى يدها اليسرى صولجان ديونوسوس ... وفضلا عن ذلك كانت تضع على رأسها تاجا من ورق اللبلاب وتتدلى من ثيابها عناقيد من اللآلئ . وكانت تعلو عربتها مظلة وفى أركان العربة أربعة شعلات مثبتة بأشرطة من ذهب .

«وتبعتها عربة ذات أربع عجلات طولها ثلاثون قدما وعرضها أربعة وعشرون يجرها ثلاثون رجلا ، وعليها معصرة نبيذ طولها ستة وثلاثون قدما وعرضها اثنان وعشرون قدما ونصف وقد امتلأت بالأعناب . وكان يخطر بجوار العربة ستون من الساتيروى ينشدون أنشودة الكروم بمصاحبة المزامير ، ويشرف عليهم أحد السيلينوى . وكان النبيذ يتدفق من المعصرة أثناء سير العربة . ثم تلتها عربة طولها سبعة وثلاثون قدما ونصف قدم وعرضها واحد وعشرون يجرها ستمائة رجل وبها قربة تسع ثلاثة آلاف مكيال من النبيذ وقد ربطت فتحاتها بأشرطة من جلد النمر ويسيل منها النبيذ ببطء طوال سير الموكب .

وكان يسير وراء العربة مائة وعشرون من الساتيروى والسيلينوى علت هاماتهم تيجان من ذهب وكان يحمل بعضهم جرار النبيذ وكان آخرون يحملون كؤوسا

قليلة النور وأخرى عميقة وكان كل شيء من ذهب .

«ثم تتبع مباشرة عربة تحمل وعاء فضياً به سته آلاف مكيال من النبيد وكان يجر العربة ستمائة من الرجال وكان يحيط بالوعاء شريط من ذهب مرصع بالجواهر . ومع الدعاء منصتان فضيتان لـكئوس الشراب طول الواحد منها ثمانية عشر قدم ... ومعصرتان للنبيذ مصنوعاتان من الفضة كان عليها أربع وعشرون جرة للنبيذ ومنضدة من الفضة الصلبة طولها ثمانية عشر قدما ، وثلاثون منضدة طول الواحدة منها تسعة أقدام مضافا إليها أربعة مقاعد من ذات الثلاثة قوائم أحدها محيطه أربعة وعشرون قدما ومصفحة بالفضة فى حين كانت هناك ثلاثة أخرى أصغر منها مرصعة بالجواهر فى وسطها .

«وتتابع ظهور عدد كبير من المنصات التى تحمل عليها دنان النبيذ ومعاصره المصنوعة من الفضة أو الذهب والمرصعة بالجواهر الخ ...

ثم ظهر فى العرض ألف وستمائة غلام بملابسهم البيضاء وقد علت هاماتهم تيجان من ورق اللبلاب وأخرى من ورق الصنوبر كان البعض يحمل جرارا من ذهب والبعض جرارا من فضة ... وكان يليهم غلمان آخرون يحملون صحافا لحمل الحلوى عشرون منها من الذهب و خمسون من الفضة . وكان بعض الغلمان ينثرون العطور على النظارة بحيث كان ينال كل شخص رذاذ منه .

«وتتابع مرور عربات ومناضد تزينها مناظر أحسن تنسيقها وعرضها ، وكان من بينها غرفة عرس سيميلى Semeie (أم ديونوسوس) .

«وعلى عربة ذات أربع عجلات طولها ثلاثة وثلاثون قـــدما وعرضها واحد وعشرون قـدما ويجرها خمسمائة من الرجال نصب كهف عميق انطلق منه الحمام والقمرى وطيور أخرى ربطت أقـدامها حتى يكون فى استطاعة النظارة اقتناصها

بسهولة ، وكان النظارة يرون نافورتين على العربة ينبثق من إحداها اللبن ويندفع النبيذ من الأخرى . وكانوا يرون أيضا ديونيسوس الطفل فى مهده وقد أحاطت به الحوريات اللاتى يتحلين بتيجان من الذهب ، وعلى نفس العربة الاله هرمس بعصاه الذهبية .

«وعلى عربة أخرى منظر يمثل عودة ديونوسوس من الهند . وكان الاله البالغ من الطول ثمانية عشر قدما يستند إلى ظهر فيل وقد ارتدى عباءة قرمزية . وكان أحد الساتيروى يجلس قبالته على عنق الفيل يمسك فى يده اليمنى قرن ماعز من ذهب وكان يبدو كما لو كان يقوم بإرسال إشارات ..

«وبعد عدد من المجموعات تضم إحداها خمسمائة فتاة حديثات السن وتضم مجموعة أخرى عددا من الحمير يركبها السيلينوى والساتيروى مرت أربعة وعشرون عربة تجرها الفيلة ومجموعات من التيوس والغزلان والنعام والتياتل والحمير الوحشى وعدد من الجمال .

«وكان يلى هذه الحيوانات مباشرة عربات تجرها البغال نصبت فوقها خيام بربرية كان عدد من النسوة الهنديات ونسوة أخريات فى ملابس الأسرى يجلسن تحتها .

«وأعقب هذه العربات جمال حمل بعضها ثلاثمائة رطل من اللبان ومائة رطل من المر ومئتى رطل من الزعفران والقاسيا والقرفة والسوسن وكل أنواع التوابل والأفاوية .

«وسار على أثرها حملة الجزية من الاثيوبيين (النوبيين) (Aitheopes dorophoroi) . كان بعضهم يحمل ستمائة من أنياب الفيلة بينما كان البعض

الآخر يحمل ألفى قطعة من خشب الأبنوس. وكان جانب آخر منهم يحمل أوعيه مليئة بالنقود الذهبية وتراب الذهب .

وأتى بعد ذلك اثنان من الصيادين يحملان رماحا مذهبة ومعهم كلاب كان يقودها حراسها . وبلغ عدد هذه الكلاب ٢٤٠٠ ، وكان بعضها كلاب هندية وأخرى مولوسية (مولوسيا منطقة فى شمال غرب بلاد الإغريق) وكانت هناك كلاب من هركانيا (جنوب بحر قزوين) وكلاب من سلالات أخرى . وكان يتبع هذه القسم من العرض مائة وخمسون رجلا يحملون أشجارا تتدلى من أغصانها كل أنواع الحيوان والطيور . وعرضت فى أقفاصها ببغاوات وطواويس ودجاج الوادى وطيور من فاسيس (على الشاطىء الشرقى للبحر الأسود) وأخرى من أثيوبيا .

وقد ظهر فى العرض أيضا مائة وثلاثون من الخراف الاثيوبية وثلاثمائة من الخراف العربية وعشرون من جزيرة يوبويا وستة وعشرون من الثيران الهندية وكلها من اللون الأبيض ، وثمانية ثيران أثيوبية ، ودبة بيضاء ضخمة وأربعة عشر نمرا وستة عشر من النمرة الرقطاء وأربعة من الهنود ... وزرافة ووحيد قرن أثيوبى . .

ثم مرت عربة ذات أربع عجلات يرى فيها الاله ديونوسوس وهو يحتمى بمذبح الربة ريا Rhea من مطاردة الربة هيرا Hera له . وكان ديونوسوس متوجا بتاج من ذهب وقد وقف إلى جانبه الاله بريابوس (رب الخصوبة) وهو يلبس تاجا من ذهب على هيئة ورق اللبلاب فى حين كانت هيرا تضع على رأسها تاجا من ذهب . وظهر فى العربة أيضا تمثال الاسكندر وتمثال بطلميوس الأول (سوتر)

ويعلو هامة كل منهما تاج ذهبي على هيئة أوراق اللبلاب وكان وتمثال الربة أريتى Arete يرى بجانب بطليموس وقد توجت هى الأخرى بتاج ذهبي على شكل ورق الزيتون ومن خلفهم بريابوس بتاجه الذهبي الذى كان على هيئة أوراق اللبلاب . .

ومع بطليوس وقفت مدينة كورنث على رأسها أكليل من ذهب . وإلى جانب كل هؤلاء منصة امتلأت بصحاف من ذهب وقدور ذهبية تسع الواحدة منها خمسة مكاييل من (النبيذ) .

وجاءت بعد هذه العربة ، عربة أخرى ذات أربع عجلات عليها نسوة يرفلن فى ثياب ثمينة ويتزين بحلى ثمينة . وكانت كل واحدة من هذه النسوة تحمل اسم مدينة . وبعض هذه المدن كان فى أيونيا وبعضها كانت فى آسيا والجزر والتى كانت تحت سيادة الفرس وكل هؤلاء النسوة (وهن ترمزن إلى المدن) يرتدين تيجانا من ذهب .

وعلى عربة أخرى وضع عضو التذكير مصنوع من الذهب Phallos chrosous طوله مائة وثمانون قدما وكان مزينا بألوان مختلفة .

«وأخيراً تظهر نجمة ذهبية محيطها تسعة أقدام هى نجمة المساء .

ويقول أثنايوس ان كاليكسينوس الذى نقل عنه أشار إلى أشياء كثيرة ولكنه اكتفى باختيار ما ظهر فى العرض مصنوعا من ذهب أو فضة . وظهرت فى العرض أشياء أخرى تستحق التنوين واعداد كبير من الحيوانات المتوحشة وأربعة وعشرون من الأسود الضخمة .

ثم يعود أثنايوس ليتابع النقل عن كاليكسينوس فيقول : « كانت عربات كانت تحمل صوراً للملوك eikones وأخرى للآلهة . وبعدها سارت فى العرض جوقة كبيرة العدد ضمت عددا من المعازفين على القيثارة يحملون قيثارات

مذهبة وعلى رؤوسهم تيجان من ذهب . وبعدهم مائتا ألف من السياس ثبتت فى رؤوسهم قرون ذهبية تلمع بينها نجوم على جباههم. . .

وتلى ذلك عرض Pompe على شرف زيوس ويتبعه عدد كبير من الآلهة كلهم يبدون قدسية للاسكندر الذى كان تمثاله الذهبي محمولا وعلى أحد جانبي الاسكندر تمثال لمربة النصر وعلى الجانب الآخر الربة آثينـــا Athena وكانوا جميعاً على عربة تجرها الفيلة .

«وظهر فى العرض أيضاً كثير من العروش المصنوعة من العاج والذهب وعلى عرش بطلميوس تاج مصنوع من عشرة آلاف قطعة من النقود الذهبية . وثلاثمائة وخمسون مبخرة من الذهب ومذابح ذهبية تزينها عقود من أوراق الغار تتناثر فيها التيجان الذهبية وثبت فى واحد منها أربعة مسارج بلغ ارتفاع إحداها خمسه عشر قدماً . . . .

«ثم مرت فى العرض سبعة من نخيل البلح بلغ ارتفاع الواحدة منها اثنى عشر قدما . . . ومعبد من ذهب محيطه ســتون قدما ... وظهر أيضاً عدد كبير من التماثيل المذهبة بلغ ارتفاع معظمها ثمانية عشر قدما وذلك بالإضافة إلى تماثيل مذهبة لحيوانات مفترسة بحجم غير عادى وعدد من النســور ارتفاع الواحد منها ثلاثون قدما . وقد برز فى العرض ثلاثمائة ومائتا تاج من ذهب . وكان هنـــاك أيضاً تاج ذهبي من ورق الآس محيطه مائة وعشرون قدما تزينه أحجار ثمينة . وقد علق التاج حول مقصورة برنيكى (زوجة بطلميوس الأول) . وظهر أيضاً درع aegis ذهبي وشارات للملك مصنوعة من الذهب تحملها فتيات يرفلن فى ثياب ثمنة . .

ويشير أثينايوس بعد ذلك إلى «عدد كبير من التيجان والدروع والتروس المصنوعة من الذهب أو الفضة والمرصعة بالجواهر من بينها درع ذهبي يعطى طوله ثمانية عشر قدما ،

ودرع آخر من فضة طوله سبعة وعشرون قدما عليه صاعقتان من ذهب وتاج مصنوع من ذهب مرصع بالجواهر وعشرون درعا ذهبيا وأربع وستون من الدروع التى تكسو الجسم ووعاءان ذهبيان وكؤوس بأعداد وفيرة وثلاثون دنا من دنان الخمر وعشرة أوان ذهبية كبيرة لحفظ الدهون وإثنا عشرة من جرار الماء وخمسون ......

«ويعد كل هذا يأتى قوات الفرسان hippies والمشاة بأسلحتهم التى تثير الإعجاب وبلغ عدد الفرسان ثلاثة وعشرون ألفا ومائتان وعدد المشاة سبعة وخمسون وستمائة ..

وقد كرم بطلميوس سوتر ثم وزوجته برنيكى بثلاثة تماثيل نصفيه فى عربات من ذهب .

« بلغت التكاليف الكلية ٢٢٣٩ تألفت وخمسون مينا (= ٧٢٠ر٠٠٠ جنيه استرلينى) وكل هذه المبالغ دفعت له وظفين الذين تولوا تنفيذ هذا العرض قبل أن ينتهى المهرجان . وقد كو فىء الملك بطلميوس فيلادلفوس بتمثالين نصفيين من الذهب وضعا فى عربتين ذهبيتين رفعتا فوق عدد من الأعمدة .

وإلى هنا ينتهى ما نقله أثينايوس عن كاليكسينوس من وصف تفصيلى لأحد الاحتفالات بعيد البطوليايا . ولم يكن هذا هو الاحتفال الوحيد الذى كان يجرى فى عصر الملك بطلميوس الثانى . ذلك أننا نعرف من إحدى البرديات أن ثمة حفل باسم Basilea كان يجرى فى الاسكندرية لعله كان تمجيداً لتقلد بطلميوس الأول لقب ملك ونعرف من نفس البردية أنه كان هناك حفل آخر لم يظهر اسمه لعيب فيها يرجح البعض أنه كان تمجيداً لذكرى الاسكند المؤله باعتباره مؤسس الاسكندرية(١٠). وهناك أيضاً عيد أدونيس الذى نقرأ عنه فى النشيد الخامس عشر للشاعر ثيوكريتوس (١١) . ويكشف البردى عن مدى اهتمام الملك بهذه الاحتفالات وما

كان يجرى بها من عروض وذلك من رسالة بعث بها وزير ماليته أبو لونيوس إلى وكيل أعماله زينون يستحثه ليسارع بارسال الهدايا من ضيعته بالقرب من فيلادلفيا فى الفيوم بمناسبة الاحتفال بارتقاء الملك العرش، وبمناسبه عيدميلاد الملك (١٢)، ومن رسالة أخرى من وزير المالية إلى زينون وكيل أعماله ليرسل أكبر عدد ممكن من كتل الأشجار إلى الاسكندرية على الفور حتى يمكن استخدامها فى عيد ايزيس (١٣) الذى كان يبدأ فى اليوم السابع عشر من شهر هاتور وينتهى فى اليوم العشرين من هذا الشهر (١٤).

وإذا ذهبنا لنتعرف على بعض جوانب هذا النص كما حفظه أثينايوس فانه يتبين ابتداء أن العرض كان عرضاً اغريقياً صرفاً كان يجرى على نسق الألعاب الأوليمبية وبرزفيه العنصر الدينى الاغريقى بشكل واضح كما يتضح من تخصيص جانب كبير منه لآلهة الاغريق. ويتضح أيضاً اهتمام الملك بطلميوس الثانى بابراز رخاء دولته . ثم ان هذا الاهتمام بابراز اسلاف الملك ، وهم الاسكندر وبطلميوس الأول ، مع الربط بينهما وبين مدينة كورنث ومدن آسيا الصغرى ومدن الجزر التى حررها الاسكندر من حكم الفرس ليبرز بعض جوانب السياسة الخارجية لبطلميوس الثانى .

ونتساءل هل كان فيلادلفوس من وراء هذا المهرجان أو العرض الذى استغرق اليوم بأكمله من الصباح إلى المساء بكل أجزائه يهدف لأن يشرح لشعب الاسكندرية ولضيوف من المدن الاغريقية طابع دولة الدينى وسياسته الاقتصادية وأهدافه السياسية عن طريق الرمز فى أغلب أجزاء المهرجان أو إذا كان هذا هو هدفه فانه ينبغى أن نفترض أن شعب الاسكندرية الاغريقى لابد وأن يكون لهم معرفة سابقة بحوادث وقعت فى الماضى وبالملاقات السياسية المعقدة التى كان بطلميوس الثانى طرفاً فيها . أما بالنسبة لضيوف الملك من خارج مصر فلاشك أنهم كانوا يشاهدون العرض بنظرة متفحصة تنفذ إلى ماوراء الرمز لتتعرف الى أهداف الملك ونواياه .

ونبدأ بالحديث عن الطابع الديني للعرض، فهو كما أسلفنا، طابع اغريقي. وقد برز ديونيسوس بين الآلهة التي اشتركت في العرض. وهذا أمر طبيعي لأنه يتفق مع المكانة التي أولاها البطالمة لهذا الإله. وحقيقة كان بطليموس الرابع فيلوباتور (١٢٢ - ٢٠٣ ق. م) أول من زعم، من بين ملوك البطالمة، أن أسرته تنحدر من هذا الإله (١٥)، ومع ذلك فإن الشواهد متوفرة على الاهتمام البالغ بهذا الإله منذ بداية العصر البطلمي. فإليه نسب حي ديونوسياس Dionysias في الإسكندرية (١٦). وعندما استحدث بطلميوس الأول سوتر عبادة سرابيس من مزج بين عناصر إلهية مصرية وأخرى اغريقية، فإنه قرب بين الإله المصرى أوزريس والإله الاغريقي ديونوسوس تزاجريوس Dionysos Zagreo ابن زيوس من برسيفوني ولكن التيتان قتلوه بتحريض من هيرا ومزقوا أطرافه وأنقذت الربة أثينا قلبه وحملته إلى زيوس الذى أكله ومن هذا القلب خرج ديونوسوس ابنه من سيميلي Semele والتي ظهرت في المهرجان في إحدى العربات. وديونوسوس هذا هو الإله الذى مجده بطالمة مصر. ونقرأ في النقش المعروف باسم نقش أدوليس، بالقرب من وادى حلفا، الذى كتبه فيما يرجح أحد ضباط الملك بطلميوس الثالث يوارجيتيس الأول (١٤٦ - ٢٢٢ ق. م.) والذين أرسلوا إلى هذا الموقع للحصول على الفيلة «الملك المعظم بطلميوس بن بطلميوس والملكه أرسنوى والأخوين الإلهين أبناء الملك بطلميوس والملكه برينيكى الإلهين المحسنين (يوارجيتيس) من نسل هرقل وديونوسوس ...» (١٨). ونضيف إلى ذلك الإشارة إلى وجود جماعة في الإسكندرية عرفت باسم جماعة فناني ديونوسوس (١٩) hoi peri ton Dionyson technitai وقد ظهرت هي الأخرى في العرض. وكان يسير في مقدمتها الشاعر فيليكوس والذى كان أيضاً كاهناً لديونوسوس. وصحة اسم هذا الشاعر فيليكوس

وهومن جزيرة كوركوافى غرب بلاد الاغريق وكان أحد سبعة شعراء من شعراء التراجيديا الذين عرفوا باسم Pleiad كانوا فى الإسكندرية على عهد الملك بطلميوس الثانى ، ويرجح أنه إلى جانب كونه كاهنا لديونوسوس كان أيضاً كاهنا للاسكندرية (٢١) .

وقد حرص المشرفون على العرض على إبراز الشخصيات الأسطورية المرتبطة بالإله ديونوسوس . فهناك عربة سيميلى أمه كما أسلفنا . وقد انتشر اتباع الاله الكثيرون من السيلينوى والساتيروى فى معظم أقسام العرض ، وهم أرواح الغاب الوحشية والتى تهيم أيضاً فى الجبال والتلال. وقد تصورها الأغريق مخلوقات مشوهات الخلقة وكان للسلينوى آذان الخيل وللساتيروى هيئة بان وهى هيئة الجدى (٢٢) .

وقد ظهرت فى العربة أيضاً الحورية نوساً Nyses وكانت إحدى الحوريات اللائى عهد إليهن هرميس بديونوسوس وهو طفل بعد أن حوله إلى كبش تنفيذاً لتعليمات زيوس وقد أخفيته فى كهف عن عيون الربة هيرا وأطعمته العسل . وقد كرمهن زيوس بأن وضع صورهن بين النجوم وسماهم Hadyes (٢٣) والمعروف أن الربه هيرا ، كما تسببت فى قتل ديونوسوس تزاجر يوس، كانت تطارد ديونوسوس هذا . وقد أعيد تمثيل هذه المطاردة فى العربة التى حملت هذين الإلهين والربة ريا Rhea والإله بريابوس والاسكندر وبطلميوس الأول . وظهر ديرنوسوس وهو يلجأ فراراً من مطاردة هيراً له إلى مذبح الربة ريا. ومثل أيضاً ديونوسوس الطفل فى مهـــده وقد أحاطت به الحوريات وكان معه فى نفس العربة هرمس بعصاه الذهبية .

ولم يهمل العرض جماعة النسوة المعروفات باسم Maends وهن النسوة اللاتى فتن بديونوسوس ومجدنه بالأغنية وبالموسيقى وبالرقص وهن يهمن على وجوههن فى الجبال والغابات ويحيين حياة الحيوان وقد بث فيهن ديونوسوس من أسباب القوة ما مكنهن من خلع الأشجار وقتل الحيوانات القوية ،

وقد كون فرقة من فرق جيشه الذى حارب به فى الهند (٢٤) وقد تبعته فى رحلته من لوديا أو فروجيا إلى تراقيا . ولذلك ظهرت فى العرض النسوة المعروفات باسم Bassarae, Bacchantes والنسوة اللوديات وكان بعضهن يمسك بالخناجر فى حين حملت الأخريات فى أيديهن الحيات .

وقد اهتم المشرفون على العرض بإبراز أهم الرموز الخاصة بالإله ديونوسوس فانتشرت أوراق اللبلاب فى العرض ، إذ كانت رمزاً له وعلى هيئتها صنعت بعض التيجان ، وكذلك ظهرت الكروم وأوراقها فهو الرب الذى ابتكر صناعة النبيذ لذلك فإن مشاهدى العرض رأوا دنان النبيذ الضخمة وجراره ومعاصره وكؤوسه وأوانيه وكثرت مناظر سكب قرابين النبيذ وانسيابها من العربات .

وكان من بين رموز الإله بوصفه ربا للخصوبة عضو التذكير Phallus الذى مثل بتمثال ضخم له على إحدى العربات .

ولا شك أن الفرض كان موفقاً فى عرض بعض مراحل حياة ديونوسوس عند ما كان طفلا تولى هرميس بتكليف من زيوس حمايته وعند عودته من الهند مستنداً إلى ظهر فيل . ولم تتوقف مطاردة هيرا الأبدية له .

وكان لظهوره فى نفس العربة التى حملت كلا من الاسكندر وبطلميوس الأول دلالة هامة إذ تنهض شاهداً على الصلة الهامة التى كانت لهذا الإله بملوك أسرة البطالمة .

ولم يكن ديونوسوس وريا وهيرا وهرمس الآلهة الوحيدة التى ظهرت فى العرض فقد كانت هناك ربات النصر وأثينا وأريق وقد ظهرن وهن محيطات بالاسكندر الأكبر إشارة إلى مكانته كملك مؤله يرتبط به بطلميوس الأول الذى أله ابنه بطلميوس الثانى ويظهر معه فى نفس العربة .

وكان هناك أيضاً الإله بريابوس رب الخصوبة في عربة ديونوسوس وفي عربة الملوك وكان يعبد أساساً في لمبا ساكوس على مضيق الهلسبونت ، وكان رمزه عضو التذكير ، وجاء في أساطير الأغريق أن بريابوس كان ابنا لديونوسوس من احدى الحوريات أو من أفروديق .

وقد انتشرت عبادته في بلاد الاغريق بعد الاسكندر عندما شاعت ظاهرة تبادل الأفكار والمتقدات الدينيه بين الشرق والغرب .

والمعروف أن عبادة بريابوس اكتسبت شعبية كبيرة في بعض المدن الهلينسقية كان من بينها دون شك مدينة الاسكندرية ، وكما يشهد بذلك هذا العرض (٢٥) .

ويمكس هذا العرض اهتمام البطالة بآلهة الاغريق وخاصة الاله ديونوسوس إرضاء لجمهور الاسكندرية وليعيشوا يوما كاملا مع هذا الاله بكل المسرات والمباهج التي تحفل به حفلاته وأعياده . ويكشف العرض أيضاً عن رغبة بطلميوس الثاني تمشيا مع سياسة أسرته أن يثبت للاغريق سواء في الاسكدريه أو في العالم الاغريقي احترامه لدياناتهم بوصفه ملكا أغريقيا . ويدل كثير من الشواهد بوضوح على اهتمام البطالة بانشاء علاقات مع مراكز العبادة الاغريقية المنتشرة في المدن والجزر الاغريقية فقد أكثروا من تقديم القرابين واشتركوا بوفود رسمية في الحفلات الدينية التي تقام بمناسبة أعياد آلهتها . وكانت لهم علاقات واسعة مع أكبر المعابد في بلاد الإغريق . وقد وجه بطلميوس الثاني عناية خاصة لجزيرة ديلوس وأنشأ بها في عام ٢٧٩ ق . م حفلا سنويا اسمه البطولمايا الذي توقف الاحتفال به في عام ٢٥٣ ق . م . عندما فقد الملك جزر السكوكلاديس ثم عاد إلى الاحتفال به في عام ٢٤٩ بعد أن استعاد سيادته عليها (٢٦) . ولعل عيد البطولمايا هذا كان هو نفس العيد الذى

نظم بطلميوس الثانى إقامته فى الإسكندرية أول مرة فى عام (٢٧) ق . م . أى فى نفس العام الذى احتفل منه بعيد البطليمايا فى ديلوس .

وأخيراً فإن اهتمام بطلميوس كان واضحاً بابراز فكرة تأليه أبيه الإسكندر وقيامه هو بتأليه والديه باسم الالهين سوتيروي والربط بينهما وبين الإسكندر المؤله وهم جميعاً بمثابة السلف Progonoi له . وفى هذا إشارة . كما سنوضح فى مكان آخر من هذا المقال ، إلى الربط بين سياسة الإسكندر وبطلميوس الأول وبين سياسته التى كانت تهدف إلى السيطرة على بحر إيجة إذ كان فى عربة الملوك تمثال يرمز إلى مدينة كورنث وكان يتبع العربة عدد من النساء يرمزون إلى المدن والجزر الإغريقية فى آسيا الصغرى .

ونناقش بعد ذلك القسم من العرض الذى خصص للسلع الثمينة التى كانت تأتى من الشرق على هذا النحو المسرف المبالغ فيه إذ عرضت كميات هائلة من العطور والتوابل والأفاوية والفيلة مع تعمد الرمز إلى العلاقات التجارية مع الهند عن طريق تلك العربة التى كانت تحمل خياماً « بربرية » تجلس تحتها نساء هنديات وعن طريق تصوير عودة ديونوسوس نفسه من الهند . وواضح أن بطلميوس أراد أن يبهر أنظار ضيوفه من مندوبى المدن الإغريقية والنظارة من أهل الإسكندرية . ويشرح هذا العرض فى الوقت نفسه اهتمام بطلميوس بتجارة الشرق وقد جره ذلك إلى الصدام مع السلوقيين وبدأت فى عهده تلك السلسلة من الحروب التى عرفت باسم الحروب السورية وكانت أساساً بسبب رغبة بطلميوس الثانى فى الاحتفاظ باقليم جنوب سوريا أو جوف سوريا Coele syria ، والذى كان أبوه بطلميوس الأول ، وهو لا يزال بعد واليا ، قد وضع نصب عينيه التمسك به ، وهو ذلك الإقليم الذى كان يشمل فلسطين وجنوب سوريا وفينيقيا ويحده شمالا جبل

الشيخ وشرقا نهر الأردن . وواضح أن السيطرة على هذا الإقليم كانت تضمن لبطلميوس الثانى ميزة استراتيجية لها أهميتها إلى جانب المزايا الاقتصادية التى يوفرها الإقليم لمن يسيطر عليه نظراً لثروته الذاتية فى الأخشاب التى تفتقر إليها مصر إلى جانب ثروته فى المعادن والقطران اللازم فى صناعة بناء السفن . وإلى جانب ذلك كان فى هذا الإقليم نهايات الطرق التجارية القادمة من الجنوب بسلع الهند وبلاد العرب وكانت تلك التى تصل إلى مدينة عدنة (عدن) السباية تحملها قوافل السبأيين وأهل معين فى طريق البخور التقليدى الذى كان يمر بيثرب ، وددان (العلا) وأيلة على رأس خليج العقبة وكانت تجارة الهند تأتى أيضاً إلى هذه الميناء قادمة من جرا على الساحل الغربى للخليج العربى ثم يقوم النبطيون بنقل التجارة القادمة عبر الطريقين إلى البطراء ومنها يذهب قسم من التجارة إلى غزة أو إلى أرسنوى (السويس) ومن ثم تنقل إلى الإسكندرية ، ويذهب قسم آخر إلى سلوقية على نهر دجلة ، ويذهب قسم ثالث إلى أنطاكية عن طريق دمشق . وهذا كله يفسر سبب تشبث الملكين البطلميين الأول والثانى بجنوب سوريا ، بل أن ذلك استتبع قيام الملكية بمحاولة السيطرة على أكثر شواطىء آسيا الصغرى . وقد حاول أنتيجونوس حرمان بطلميوس الأول من طريق القوافل بين البطراء وغزة وأرسل حملة فاشلة إلى البحر الميت لحرمانه من قطرانه الضرورى لبناء السفن . ولابد وأن نشير هنا إلى اهتمام بطلميوس الثانى فى عامى ٢٧٨ و٢٧٧ بإخضاع قبائل أدوميا والبحر الميت وشرق الأردن ذلك أن التجارة كانت تتخذ أيضاً طريقاً يمر بفيلادلفيا (عمان — ربات عمان) وجرش إلى بطوليميس (عكا) ومنها إلى الفينيقيين . وقد اهتم كذلك الملك بطلميوس الثانى بتوجيه نشاطه ضد النبطيين وجيرانهم . وقد انعكس ذلك إلى قيامه باستكشاف شواطىء البحر الأحمر وشعوبه وإلى الاهتمام بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر وبإنشاء الموانى على هذا البحر لاجتذاب جانب من تجارة البحر الأحمر إلى هذا الموانى لتنقل

مباشرة إلى موانى النيل ومنها إلى الإسكندرية . وقد ظهر فى جنوب مصر فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الأول ق . م . موظف يحمل لقب epi tês Ery Erythras kai Indikês Thalâssês المشرف على البحر الأحمر والبحر الهندى وهذا يؤكد نجاح سياسة بطلميوس الثانى التى سار على نهجها خلفاؤه وخاصة بعد أن فقدوا إمبراطوريتهم فى بحر إيجة فى أوائل القرن الثانى ق . م وكان فى فلسطين على عهده عندما كان إقليم جوف سوريا تحت سيطرته موظف يحمل لقب epi têslibanotikês أى « المشرف على إدارة البخور » ونعرف عن هذا الملك علاقاته الخاصة بالملك أسوكا ملك الهند (٢٧) .

وإذا أضفنا إلى ماتقدم ما عرض فى المهرجان ما كان يأتى من بلاد النوبة من جزية ومن أنياب الفيلة وأخشاب الأبنوس والذهب والفضة وتراب الذهب والحيوانات المتوحشة والطيور المختلفة لتأكد لنا أن بطلميوس الثانى أراد أن يبهر ضيوفه بمدى ماكانت عليه مصر من رخاء فى عصره . حتى أن أثينايوس علق على الوصف الذى نقله عن كاليكسينوس لمهرجان البطولمايا بقوله : « أى مملكة كانت على هذا القدر من الثراء فى الذهب ؟ بالتأكيد لاتضاهيها ثروة الفرس أو بابل أو أية دولة تمتلك المناجم ، أو التى بها نهر باكتولوس الذى كانت مياهه تجرف تراب الذهب أمامها ، لأنه بمملكة مصر يجرى نهر النيل بالذهب ... لذلك فإنه مثلما قال الشاعر البيزنطى « أنت أيها النيل ، زيوس مصر » ... أن فيلادلفوس فاق ملوكا كثيرين فى الثروة ... ولا يفوقه ملك فى عدد السفن التى كان يمتلكها .. تلك السفن التى كانت ترسل إلى الجزر والمدن الأخرى التى يحكمها ، كذلك إلى ليبيا .. وفيما يتعلق بالكتب التى يحتويها دار الحكمة to mouseion synagogês لماذا احتاج إلى الحديث عنها على الإطلاق حيث أن كل ذلك يعيش حيا فى ذاكرة الإنسان ؟(٢٨) .

وقد كتب ثيوكريتوس الذى زار مصر على عهد بطلميوس الثانى وقد قربه الملك إليه، قصائده الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسابعة عشر فى مدح الملك والثناء عليه وجاءت فى بعض القصائد العبارات الآتية :

... بطلميوس فيلادلفوس ذو الثراء العريض ، والملك الواسع ، سيد البحار ، وحاكم الحاكمين ... إن ملك الاله واسع وأن عبيده كثيرون ، إنه ينزل عليهم من السماء غيثا يروى الأرض فتنبت نباتاحسنا ... ومصر أغنى بقعة فى هذا الملك العريض ، أهلها أكفاء حاذقون ، أرضها خصبة ولا سيما دلتاها حيث يتدفق النيل بمائه الغزير فيفتت التربة ويرويها ، بلادها الكثيرة ومدنها العديدة تدين كلها بالطاعة والولاء لسيد فرد وملك واحد هو بطلميوس ملك مصر وبلاد العرب ، وبعض سوريا وليبيا وبلاد الأثيوبيين حاكم كاريا وجزر السكوكلاديس... ولم لا يكون ؟ إن أسطوله لأعظم الأساطيل وأقواها ، وجيشه ضخم هائل بجنوده المسلحين وخيله المطهمة . لذا دانت له البسيطة كلها .... أما ثروته فحدث عنها ولا حرج ! يكفى أنها تزيد على ثروة ملوك العالم طرا ، كل يوم يفدإلى قصره الخيرالعميم من مختلف الجهات . . . أما الذهب فانه لا يكنزه فى قصره الزاهر . . . بل إنه ينفق جزءا كبيرا منه على بيوت الآلهة العامرة يهدى الهدايا ويهب الهبات للمدن والملوك الأمجاد . . . وما من أحد أتقن العزف وأبدع الغناء ممن اشتركوا فى مسابقات ديونوسوس إلا نفحه قدراً من المال ، . . . . لقد قام بطلميوس باعمال لم تخطر على بال . . . بنى المعابد وملأها بألوان من الطيب الذكى والبخور العطر ، شيدها لأبويه العزيزين ، ووضع لهفيها تماثيل ذهبية مطعمة بالعاج هى آية فى الابداع وعلى مذابحها الدامية كان ينحر الضحايا كل يوم هو وشريكة حياته النبيلة برينيكى، خير الزوجات التى أحبته من كل قلبها ، وكيف لا ؟ فهو أخوها وهوزوجها ....(٢٩).

وليس أدل على مدى الخسارة التى لحقت البطالمة بفقدهم جنوب سوريا وما كان قد تبقى لهم فى شرق بحر إيجة فى عام ١٩٨ / ٩٩٧ ق . م من ذلك العرض الذى أقامه الملك السلوقى انطيوخوس الرابع ايفانس (١٧٥ — ٦٦٣ ق . م .) حوالى عام ١٦٧ ق . م . حقيقة أن بوليبيوس الذى حفظ لنا تفاصيل هذا العرض قد ذكر أن الملك أنطيوخوس قد أقامه تحديا للقائد الرومانى أيميليوس باولوس الذى كان قد نظم حفل ألعاب فخم بمناسبة احتفاله بانتصاره على المقدونيين فى موقعة بودنا فى عام ١٦٨ ق . م ليأتى عرضه أكثر فخامة وأكثر روعة ، إلا أن هذا العرض يكشف أيضاً عن مدى ما حققه السلوقيون من رخاء بعد طرد البطالمة من بحر إيجة ويستلفت اهتمام القارىء التشابه الواضح بين عرضى أنطيوخوس وبطلميوس فى كثرة عدد المشاة والفرسان وضخامة عدد الدروع الذهبية والفضية وكثرة العربات وكثرة الفيلة وتماثيل الآلهة والأبطال وكثرة الأوانى الذهبية والـكميات الهائلة من العطور والتوابل والأفاويه . . » (٣٠)

وإذا كانت الاقسام التى عرضنا لها والخاصة بابراز مواكب الآلهة وعرض ثروات بطلميوس الثانى ورخاء مصر فى عهده مما كشف عن بعض جوانب السياسين الدينية والاقتصادية لهذا الملك فان ثمة قسم آخر هو قسم الملوك له دلالة خاصة تتصل بمدى تعبيره عن أهدافه السياسية . (٣١)

فى العربة التى تحمل تماثيل الإسكندر وبطلميوس الثانى يبرز تمثال كورنث ، ويتبع العربة النساء اللائى يرمزن إلى المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى والجزر التى كانت تحت سيطرة الفرس وحررها الإسكندر . هل ترمز العربة وتوابعها إلى حلف المدن الإغريقية المنضوية تحت زعامة كورنث الذى برز إلى الوجود عام ٣٣٨ ق . م ؟ وأن الإسكندر عندما حرر مدن آسيا وجزرها ضمها إلى الحلف ؟

ومن الواضح أن كورنث كان مركز هيلاس ومفتاحها فى الصراع الذى كان دائرا بين البطالة والأنتيجونيين خلال الفترات السابقة . وقد كان الاسكندر يرغب فى معاملة المدن الإغريقية كحلفاء أحرار بينما رغب أنتيباتروس فى معاملتها كرعايا ودول خاضعة بما وضعه فيها من حاميات ونصب من حكومات أوليجاركية كانت صنيعة له. وقد حذا حذوه بطلميوس وكسافدروس ولوسياخوس، ولكن انتيجونوس الأول أثناء حروبه لتثبيت سلطانه أن يكون من جديد حلف كورنث ولكن لما كان تحقيق ذلك أمرا مستحيلا حتى عام ٣٠٣ ق م . فانه أنشـــأ أحلافا محلية ، هى الحلف الأيونى وحلف ضم المدن الأيونية وحلف ثالث ضم عصبة الجزر الأيونية فى مجموعة جزر السكوكلاديس ،

وكانت مدينة كورنث تحت حكم ابتيجونوس جوناتاس (٣٢) . وابتداء من عام ٢٨٠ ق . م . امتدت الثورة إلى البلوبونيسوس وكان الأمل يراود الملك البطلمى أن يفقـــد انتيجونوس كورنث مرة أخرى وعلى ذلك فان ابراز كورنث فى هذا العرض فى دور الزعامة لابد وأن يكون أمرا مقصوداً لذاته . واختار فيلادلفوس مناسبة مهرجان البطوليمايا للتعبير عن هذه المظاهرة السياسية (٣٣) .

أما المدن التى كانت طبقـــا لصلح الملك وكما كشفت الأحداث التالية ، مدنا فارسية فى عام ٣٣٤ ولذلك كانت تتميز عن مـــدن بلاد الاغريق الأصلية . التى اندمجت فى حلف كورنث .

ويعـــارض بعض المؤرخين الرأى القائل بأن نص كاليكسينوس يعنى قيام الاسكندر بضم المدن والجزر فى آسيا إلى حلف كورنث ،وأنه ولا يمكن أن يكون تمثال كورنث ، وقد برز فى مركز الزعامة ، ليمثل تلك المدن والجزر بحال ، وانه لاداعى إطلاقا إلى القول بأن النص يعنى أن بطليموس الأول قام بالفعل بمحاولة

احياء حلف كورنث والظهور أمام الاغريق بمظهر المحرر ذلك أنه من المعروف أنه فى عام ٣٠٩ استغل ما كان قد اتفق عليه فى صلح عام ٣١١ على أن تحرر المدن الاغريقية والا يستبقى بها حاميات غريبة عنها ليقوم بدور المحرر للمدن الإغريقية على سواحل آسيا الصغرى واستولى على جزيرة كوس، وفى ربيع عام ٤٠٨ ق ٠ م حرر جزيرة أندروس وعصبة الكوكلاديس وقد كافأته تلك العصبة برفعه إلى مصاف الآلهة. وبعد ذلك نزل فى برزخ كورنث وحرر ميجارا. ولما رفضت بعض مدن البلوبونيسوس امداده بالمؤنات التى طلبها وضع فى سيكيون وكورنث حاميات بطلمية زاعما أنها وضعت لتحمى حرية الاغريق؟ وفشل فى خطته لإحياء حلف كورنث وإن كان قد نجح فى الاستيلاء على عصبة جزر الكوكلاديس وأصبح التمسك بهذه الجزر عنصراً أساسيا فى سياسته الخارجية. ومعنى ذلك أن هذا النفر من المؤرخين يرفض اعتبار أن الهدف من مجموعة الملوك هو الرمز لأحداث الماضى وإلى علاقات خاصة كانت بين بطليموس الأول وحلف كورنث والمدن الإغريقية فى آسيا الصغرى وفى رأيهم أن هدف عرض مجموعة الملوك على هذا النحو يعنى الرغبة فى الرمز إلى خطط بطليموس الثانى وزوجته أرسنوى ومشاريعهما إزاء هذه المدن. وقد عبرت عن هذه السياسة بوضوح فقرة وردت فى المعاهدة التى مهدت لحرب خرمونيدس Chermonides فى عام ٢٦٦/٢٦٥ ق ٠ م فى بلاد اليونان وهى «الملك بطليموس، وهو يسير على نهج أسلافه وأخته يوضح أنه يتوق إلى تحقيق الحرية للاغريق» (٤٤).

والمعروف أن أرسينوس كانت تريد تكوين حلف ضد جوناتاس وصادف ذلك أن خرمونيدس الأثينى كان يدعو الاغريق جميعاً إلى تكوين حلف لمواجهة أنتيجونوس الثالث المقدونى. وقد انضم بطليموس إلى الحلف. ومن ثم نشبت الحرب

التى عرفت باسم حرب خرمونيدس . وكانت أرسنوى قد ماتت وتخاذل بطلميوس وتحقق لمقدونيا السيادة على بلاد الاغريق وسيطر جوناتاس على كورنث وبعض المدن الأخرى كان من بينها أثينا. وهكذا يكشف عن زيف دعوى بطلميوس فى حرصه على حرية الأغريق ومدنهم، وبذلك يكون نص كاليكسينوس متفقاً تماماً مع سياسة بطلميوس فيلادلفوس كما نعرفها من مصادر أخرى فى الوقت الذى جرى فيه الاحتفال .

ولكن ذلك كله لا يعنى أن بطلميوس الثانى كان لا يهدف إلى إحياء فكرة الربط بين مدن آسيا الصغرى وبين كورنث فى اطار الحلف الذى كونه الاسكندر بوصفه واحداً من أسلافه progonoi إلا إذا سلمنا أنه كان يتبع فى أوربا سياسة تختلف عن سياسته فى آسيا وذلك استناداً إلى حرصه كما كان يحرص أبوه ، أن أن تكون له سيادة مباشرة على سواحل آسيا الصغرى والجزر القريبة منها لأنه كان فى السيطرة عليها استكمالا لاحتلاله لقبرص وجنوب سوريا لضمان السيطرة على مخارج الطرق التجارية التى كانت تنتهى إلى هـــذه المنطقة أو إلى شواطىء آسيا الصغرى . غير أن ذلك لا يعنى أنه أسقط من حسابه الاهتمام بالمدن الإغريقية ومجموعة جزر السكوكلاديس ذلك لأن الاهتمام بهذه المناطق كان أيضا عنصرا أساسيا فى سياسته. ولا أقل من أن نقول أن عربة الملوك فى العرض كانت ترمز إلى أمل بطلميوس فى أن يرى سيادته تتحقق سواء فى آسيا الصغرى أو فى بحر إيجة على مناطق لابد من أن تندمج فى إمبراطوريته .

وهكذا نرى أن نص كاليكسينوس فى وصف الاحتفال بعيد البطوليايا يعبر بحق عن سياسة بطلميوس الثانى الدينية والاقتصادية السياسية .

الحواشى

١ — وردت إشارات إلى حفل البطولميايا فى بعض المصادر الأساسية PSI.IV,N 364
P. Grandewitz N. 6; P. Hal. i. I. 263, Freiburg N. 7
راجع أيضاً :

E. Bevan A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, Lond., 1927. p. 128 f.
أنظر أيضاً : إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، جـ ٢ ص ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٨٠ ، ١٣١ .

٢ — كاليكسينوس كاتب إغريقى من جزيرة رودس كتب عن الإسكندرية حوالى عام ١٥٥ ق.م. كتابه peri Alexandreias وقد عاش فى زمن بطلميوس الرابع فيلوباتور (٢٢١ — ٢٠٣ ق.م) .

٣ — يميل بعض الباحثين إلى تاريخ الاحتفال بعام ٢٧٩ — ٢٧٨ ق.م. وهذا يعنى أنه وصف كاليكسينوس كان لأول احتفال بعيد البطوليميا .

W.W. Tarn, JHS. L III, 1933, p. 29 f.
فى حين يؤرخ البعض هذا الاحتفال بعام ٢٧٤ ق. م.

E. Bevan, op. cit. p. 128, p Jouguet, Macedonian Imperialism and the Hellenization of the East, 1928, p.244 ff.

فى حين يؤخر فريق ثالث هذا الحفل إلى عام ٢٧١/٢٧٠ ق.م.
W.Otto, Abh. Akad. München, XXXIV, 1928, 5 f f
راجع أيضاً ، إبراهيم نصحى المرجع السابق ، ص ٨٠ ،

V. Ehrenberg, Alexander and the Greeks, Ozford, 1938, p 3

ونحن نفضل الأخذ بتاريخ عام ٢٧٤ ق.م. ذلك لأن اسم زوجته المؤلهة برينيكى كان مقروناً باسمه فى ذلك التاريخ انظر Bevan op. cit. . ويذكر الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى ، « لا نعرف متى توفيت برينيكى ، ولا متى أشركت مع زوجها فى السيادة » المرجع السابق ص ٨٠ . ومن المهم أن الاحتفال الذى تناقشه فى هذا المقال تضمن قسما خاصاً Pompé للالهين المنقذين Theoi Sotêres ، أنظر : Athenaeus, 197.ff .

٤ — « إذا كان ثمة من يريد معرفة تفاصيل المهرجان ، عليه أن يدرس سجلات المباريات التى كانت تقام مرة كل أربع سنوات » Athen V, 197.

٥ — الكتاب الوحيد الذى وصلنا عن أثينايوس والذى نقل إليه وصف كاليكسينوس هو Deipnosophistai ويرجح أن يكون قد أتمه فى عام ١٩٢ م .

٦ — إبراهيم نصحى المرجع السابق ص ١٣١ حاشية ٢ ،
E. Bevan, op. cit. p. 127

٧ — Athen. V. 197

٨ — وفق E. Meyer فى Untersuchungen, pp. 66 ff. بين ما ذكره أثينايوس نقلا عن كاليكسينوس بخصوص الاحتفال بعيد البطوليمايا فى منتصف الشتاء وبين النظرية القائلة بأن الحفل كان يجرى عادة فى يونيو أو يوليو بأن افترض أنه فى عام ٢٧٤ ق.م . كان ماجاس (ابن زوجة بطليموس الأول) الذى أعلن نفسه ملكا على برقة ، كان إذ ذاك يزحف على مصر قادماً من ليبيا راجع :
E. Bevan, op. cit. p. 128 N. 2

٩ — Athen. V. 197—204

١٠ — P. Halensis II, 262—263

١١ — P. Jouguet, op. cit. p. 245.

١٢ — P. S. I. 514.

١٣ — P. Cairo Zenon 59154 — Sel. Pap. II. N. 90

١٤ — أنظر التعليق على Sel. Pop. II. N. 90

١٥ — راجع إبراهيم نصحى المرجع السابق ص ١٣٤.

١٦ — نفسه ص ١٣٥ وحاشية ٤ .

١٧ — R. Graves, the Greek Myths, Perguine Books, Lond., 1962, 129. 2. , M.P.Nilsson, A thistory of the Greek Relihion, 2nd ed. Oxford, 1963, p. 216f.

١٨ — راجع ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ص ١٧ ، وحاشية ٣ .

١٩ — راجع إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ج٤ ص ١٢٢ ،

M. Rostovtzeff. Social aud Economic thistory of the Hellenistic World, Oxford, 1964 p.p. 1048f, 1586.

٢٠ — انظر مادة Pleiad في Oxford Classical Dictionary

٢١ — p. Hib. 30. 23

٢٢ — راجع تحت اسم Satyroi, Silenoi

R.Graves, op. cit.

٢٣ — أنظر المرجع السابق تحت مادة Nyses.

٢٤ — نفسه تحت مادة Maendes.

٢٥ — نفسه تحت مادة Priapus.

٢٦ — إبراهيم نصحى المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٩.

٢٧ — عن سياسة بطليموس الأول وبطلميوس الثانى الخارجية ومصالحهما فى جنوب سوريا راجع إبراهيم نصحى المرجع السابق ج ١ ، ص ٨١ وما يليها ، ج ٣

ص ٤٨ وفى النوبة والهند ج ٣ ص ٤٦ وانظر أيضاً :

W.W. Tarn, Hellenistic civilisation, 3ed ed. Lond. pp. 239 ff, M K. Abdel Alim, Alexandrian Trade in. Aromata in The Graeco - Roman Times, (Thesis), pp. 35 ff.

٢٨ — Athén, V. 204

٢٩ — نقلت هذه العبارات عن المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجة فى كتابه « شعر الرعاة » ص ٩٠ وما يليها .

٣٠ — Polybius. XXX, 25 f.

وأنظر ترجمة طيبة لنص بوليبيوس فى كتاب « أنطاكية القديم » تأليف جلانفيل داونى وترجمة الدكتور ابراهيم نصحى القاهرة ١٩٦٧ ص ٨١ وما يليها .

٣١ — ناقش هذا الجزء من نص كاليدكسينوس مناقشة طويلة

V. Ehrenberg, Alexander and the Greeks, Oxford, 1938, pp. 2—11

ويرى أن النص لايعنى أن الاسكندر ضم المدن التى كانت تحت سيطرة الفرس إلى كورنث .

وراجع أيضاً ابراهيم نصحى المرجع السابق ص ٧٢ وما يليها بخصوص موقف بطلميوس الأول من المدن الاغريقية وجزء بحرايحة وص ١٤٠ ومايليها .

W.W. Tarn, op. cit. 67 ff.

٣٢ — نفسه ص ٧٠

٣٣ — V. Ehrenberg, op. - cit. p. 3

٣٤ — Syll. 3, 434—5, 16 ff. cf. V. Ehrenberg p. 5

مصطفى كمال عبد العليم .

كلية الآداب جامعة عين شمس .

سجلات المحاكم الشرعية

كمصدر أساسي لتاريخ العرب فى العصر العثمانى

بقلم الأستاذ عبد الودود يوسف

ماجستير فى التاريخ الحديث من جامعة عين شمس

تتمتع سجلات المحاكم الشرعية بأهمية بالغة من الوجهة التاريخية ، لأنها تشكل أصولا ومصادر كبيرة الأهمية ، ودقيقة ، ومفصلة إلى حد كبير ، ثم هى فوق ذلك صادقة لا يعتريها الشك .

ولابد لنا للتدليل على كل ذلك من أن نلقى بعض الضوء ، ونعالج باختصار بعض ملامح الحكم العثمانى ، وطريقته فى تسيير أمور الدولة والشعب .

حين تم الفتح العثمانى للبلاد العربية ، أخذ العثمانيون ينظمون المقاطعات الجديدة ، وفق أسس نظامهم الخاص ، وكانت الفكرة التى تحركهم أن عليهم أن يقدموا للشعوب التى حكموها الحماية الكافية ، مقابل مصلحة محددة يحصلون عليها من هذه الشعوب .

ومن أجل تحديد هذه المصلحة قاموا بمسح شامل لكل شىء فى البلاد التى دخلت فى امبراطوريتهم ، ليفرضوا عليها الرسوم اللازمة ، ويحددوا المنافع التى يمكنهم أن يجنوها منها لصالح الدولة كلها .

ففي الريف :

١ — مسحوا الأراضى ، وحددوا ملكيتها ، وقسموها إلى أراضى وقف ، وملك ، ووجدوا أراضى لا مالك لها فقسموها إلى قسمين ، أراضى تجبي مواردها الدولة مباشرة ، والحقوها بمؤسسة الخواص السلطانية الشريفة ، وأراضى منحوا مواردها لجند الإقطاع الذين حددوا لهم نظاماً متشعباً ، وجعلوا هؤلاء الجند جزء من الحماية التى قدموها للشعوب الإسلامية .

٢ — ثم أحصوا الفلاحين فى كل قرية ، وقسموهم إلى قسمين ، فقراء لا يملكون ، وآخرون يملكون ، وميزوا بين المالكين المتزوجين والمالكين غير المتزوجين ، وحددوا أراضى كل منهم . كما أحصوا الفلاحين الذميين (من نصارى ويهود) .

٣ — ثم أحصوا دور الفلاحين فى القرية .

٤ — كما أحصوا أشجار القرية . وخصصوا لكل نوع منها رسماً ، كما حددوا الأراضى التى تزرع بأنواع الخضر .

٥ — وأحصوا الحيوانات بأنواعها فى كل قرية ، كالعجل ، والجاموس ، والغنم ، والماعز ، وخلايا النحل . . إلخ .

٦ — وأحصوا دور الصناعة كالمعاصر والمصانع والطواحن والمسالخ ومعامل الغزل . . . إلخ . .

٧ — وأحصوا أخيراً حوانيت أسواق القرية كلها .

وفرضوا على كل شيء أحصوه رسماً يتناسب معه ، فعلى الفلاح الأعزب رسم

البناك ، وعلى المتزوج رسم الجفت ، وعلى الدور (الخانات) رسم باد الهوا والنزول وعلى الأشجار رسم عداد الكروم ، وخراج التين ، والزيتون ، والبطيخ ، والمجور ، والجيس (البطيخ الأحمر) ، وعلى الخضر عداد الباذنجان ، وعلى الحيوانات رسم العجل والجاموس والماعز وعداد النحل ، وعلى الأسواق باج بازار القرية ، وعلى المعامل رسوم المعاصر والمصانع أو الطواحين والمسالخ . . . إلخ . .

وسجلوا ذلك كله فى سجلات السلطان فى مركز السلطنة ، ونسخوا منه نسخاً أودعوها فى محكمة حماة لدى القاضى .

وفى المدينة :

١ — أحصوا الدور فى كل زقاق وحى ، وأحصوا سكانها .

٢ — وأحصوا الأسواق ودكاكينها ودور التجارة والصناعة وحدود واماكنها .

٣ — وأحصوا السلع المنتجة فى كل الميادين .

٤ — وأحصوا فى بساتين المدينة كل الجوانب التى أحصوها فى القرية .

وفرضوا على كل جانب من هذه القطاعات رسمه .

ثم قامت الدولة بحصر جميع أنواع الجرائم والمخالفات التى يمكن أن تقع ، وحددت لكل منها رسمه ، أو غرامته .

وسجلت تفاصيل ذلك كله ، فى كل لواء من ألوية الدولة العثمانية ، فى السجل السلطانى ، كما سجلت صورة عنه فى سجل المحكمة الشرعية فى اللواء .

وبعد هذه الدراسة الشاملة الدقيقة ، حددت الدور وبالضبط ما يمكن أن تجنيه من هذا اللواء أو ذلك ، من فوائد لصالح كامل الدولة العثمانية .

ففي لواء حماة مثلاً ، رأت الدولة أن من الممكن أن تجنى منه الفوائد التالية :

١ — وجدت فى اللواء صناعات نادرة ، حربية ومدنية ، ومهارات يمكن أن تستفيد منها على مستوى بلاد الدولة كلها ، فرأت فيه صناعة ناشطة للبارود ، فأسست فى اللواء معملاً كبيراً لصناعته ، حشدت فيه مجموعة من مهرة صنـــاعه ، ووظفتهم للعمل فيه ، وسمت باستمرار للحفاظ عليه ، وعلى إنتاجه ، وحددت لهذا المعمل كمية من البارود يجب أن ينتجها كل عام ، وكفلت هى تصريفها بتوزيعهـــا على القلاع الهامة القريبة من اللواء ، كقلعة حلب ، وطرابلس ، وسلمية ، وأرواد ، فضـــلا عن قلعة حماة .

كما وجدت أن مهارات البناء والتجارة واضحـة فى لواء حمـــاة ، فاستخدمت طوائف النجارين والبنائين فى بناء قلاعها وخاناتها ، وترميمها ، وأى بنـــاء آخر تحتاج إليه . فقد أخذت من هؤلاء أناساً إلى أرض روم ، والسخنة ، وسلمية ليبنوا لها قلاعاً فيها ، كما بنت بهم مجموعة من الطواحين والحمامات والنواعير والأسواق والخانات فى حماة ، واستمثرت ذلك كله لصالح مؤسسة الخواص السلطانية الشريفة .

٢ — رأت فى البلاد مصدراً مهماً من مصادر الحنطة والشعير والطحين بصورة خاصة ، والمنتجات الزراعية بصورة عامة . فجبت الرسوم من اللواء على شكل غلال فرضت على دافعيها أن يحملوها إلى أرض روم .

٣ — استفادت من موقع حماة فجعلت فيهـــا مركزاً هاماً من مراكز البريد ، لتوسطه ما بين ولايات دمشق وحلب وطرابلس ، فأنشأت فيه محطة بريد وضعت فيها فى بادىء الأمر أربعة خيول ، وكلفت ستين رجلا للاعتناء بها ، وأعفتهم مقابل ذلك من جميع الرسوم المترتبة على أمثالهم من الرعية . وقد تطور مركز البريد هذا حتى أصبح يحوى ستين رأس خيل فى القرن الثامن عشر .

٤ — حولت كل وادي العاصي الخصيب في اللواء إلى إقطاع خاص بالدولة، سمته الخواص السلطانية الشريفة، وأضافت إليه مجموعة كبيرة من دور الصناعة، والرسوم التي كانت تجبيها من كامل اللواء مما هيأ لها مورداً مالياً هاماً ودائماً.

٥ — حولت بعض موارد اللواء إلى إقطاعات منحت مواردها إلى جند الإقطاع الذين كانوا يشكلون جيشاً معبئاً ومستعداً للعمل في كل وقت، فوق أنه جهاز إداري يدير اللواء، ويضمن تنفيذ قوانين الدولة، ويحمي مؤسساتها، كما يضمن ولاء اللواء للدولة:

٦ — ولم تكتف بذلك فحسب، بل استفادت حتى من وجود حركة صوفية ناشطة وكبيرة في حماة وهي الطريقة القادرية الكيلانية، لتدعيم هيبة السلطان وشعبيته، وخاصة في أواخر القرن السادس عشر، فأرسلت المراسيم المستمرة طالبة من أبناء هذه الطريقة الدعاء للسلطان بالنصر ودوام العز والشوكة، كما أرسلت المراسيم المتتالية بإعفاء مديري الطرق الصوفية من كل الرسوم.

وبعد أن فعلت ذلك، حددت الدولة العثمانية الجهاز الإداري الذي يجب تواجده في كل لواء، فأقامت جهازين:

جهاز يشرف على الأمن وينفذ القانون برئاسة أمير اللواء.

وجهاز يحقق العدل برئاسة القاضي.

وضماناً لعدم ظلم الرعية، قامت الدولة بمنح الصلاحيات لكل من هذين الجهازين في حدود قانون دقيق ومفصل، ويعرف فيه للمواطن حقه وواجبه، وعندما كانت تحدث تجاوزات للقانون ضد المواطن أو ضد رجل الإدارة. فإن القاضي كان يفصل في ذلك اعتماداً على اللوائح التي نظمتها الدولة بكل دقة وتفصيل.

وقد أدرجت هذه اللوائح والقوانين أيضاً فى سجلات المحكمة الشرعية بحماة .

ثم إن الدولة أعطت القضاء بصفته المرجع القانونى ، والمشرف على تحقيق العدل أعطته سلطات واسعة لا حدود لها .

فكل رجل إدارة لايستطيع أن يمارس مهامه المحددة له إلا إذا أثبت لدى القاضى صحة تعيينه ، وسجل براءة تعيينه فى سجل المحكمة ، ووقع القاضى على صحة البراءة ، وأمر بتنفيذها . وبالتالى فإن كل تعيينات الإدارة الصادرة من أية جهة من جهات الدولة مسجلة فى سجل المحكمة الشرعية .

وحين تمنح الدولة حقاً من الحقوق لادارى ما على مجموعة من المواطنين ، فإن وثيقة منحه هذه الحقوق تحوى تفصيلا دقيقاً جداً لهذه الحقوق ، بحيث أنها لاتتيح له أن يتجاوزها زيادة أو نقصاناً ،ومثال ذلك براءة التيمارى ، أى جندى الاقطاع ، فهو يمنح مجموعة من الرسوم التى فرضتها الدولة على مزرعة أو جزء من قرية أو مجموعة من القرى تحدد بالضبط وبكل دقة . فله مثلا فى القرية الفلانية حصة من رسومها قدرها ألف درهم منها ثلاثمائة تؤخذ من المحاصيل الشتوية والصيفية ، المفروضة على عشرة أفدنة . ومائة تؤخذ من رسوم أشجار الزيتون .ومائتان من مصبغة القرية . ومائة من رسوم الزواج ، وثلاثمائة من رسوم العميل والجاموس وعداد الماعز وكواير النحل . .. الخ . .

كما تحدد الدولة فى قوانينها الدقيقة نسبة المحصول الذى يجنيه جندى الاقطاع من المحاصيل . وعندما يمنح جندى الإقطاع هذه الحقوق ، فإنها لا تمنح له إلا إذا سجل براءة منحه إياها لدى القاضى بتمامها ، لحل كل نزاع يمكن أن يقع بينه وبين الفلاحين ، إن حدث وتعدى أحد الجانبين على صاحبه وتجاوز حدوده المرسومة له .

ثم إن الدولة فوق ذلك كله تدخلت فى كل صغيرة وكبيرة من حياة الناس فوافقت على تنظيمات المجتمع والاقتصاد، ومنحتها قوة القانون، وعاقبت من يخالفها.

فقد نظم الناس أنفسهم، مثلا، فى تجمعات متكافلة متراصة، فى الزقاق، والحى والحرفة، أو الطائفة، والصنف، والسوق، والقرية، والطائفة الدينية لغير المسلمين.

أما فى الزقاق أو الحى فقد اختار الناس بانتقائهم جميعاً «شيخاً» لهم مهمته أن يكون صلة الوصل مابينهم، وبين السلطات الحاكمة.

واختاروا لكل زقاق حارساً يحرسه ليلا سموه «الحواط» واختاروا لهم «منبهاً» ينبههم إذا دهمهم غريب أو لص.

وكان همهم فى الزقاق أو الحى ألا تتدخل السلطات فى شؤنهم فهم:

— يحلون مشاكلهم عن طريق شيخهم.

— ويتحملون متكافلين كل الرسوم والغرامات التى تطالبها الدولة منهم.

ويطردون كل من لايرضون عنه من بينهم «لخوفهم من ضرر الحكام» ويخبرون السلطات بكل مايقع من انحرافات من بعضهم، هذه الانحرافات التى لايستطيعون حلها عن طريق شيخهم، حتى لايؤاخذ الزقاق كله بجريرة المخالف.

— ويبنون مؤسساتهم الضرورية للحى، كالمسجد، والزاوية، والحمام، وحوض الماء، والمدرسة، والناعورة، والطاحون، .. إلخ .. حتى يمارسوا حياتهم الدينية والدنيوية على السواء بكل راحة ويسر، «وحتى لا تبتعد النساء عن بيوتهن فيطمع الذى فى قلبه مرض».

— ويبلطون زقاقهم ويعتنون بنظافته.

— ولا يرضون بسكنى الغريب بينهم إلا إذا اتفقوا جميعاً على أنه « خلوق وطيب » ويتحمل معهم جميع ماتطلبه الدولة منهم ، ويتعهد بألا يقوم بأعمال تخالف أوامر الدولة ونظمها .

وكانت الدولة تتدخل فى هذا التنظيم ، لتوافق على كل مافيه ، فتصدر الأوامر بتسمية الشيخ الذى اختاره الحى ، وترعى المؤسسات الاجتماعية التى تبنى ، وتلاحق كل مخالف لما أتفق عليه أهل الزقاق والحى .

أما فى الطائفة والسوق والصنف :

فقد اجتمع أبناء الحرفة الواحدة ، ونظموا أنفسهم بشكل دقيق ليضمنوا تماسكهم وجودة السلع التى ينتجونها ، وعدم تدخل الدولة فى شئونهم ، وتساويهم فى الربح والخسارة ، من أجل ذلك كله فعلوا ما يلى :

— جعلوا لرجال المهنة درجات (المبتدىء والصانع والمعلم) يترقى العضو من درجة إلى أخرى وفق شروط معينة ، ليتقن المتهن مهنته ، وليتعرف على كل علاقات الطائفة الداخلية والخارجية ، ولتسهل مراقبته ومعرفة أخلاقه .

— وينتخب المعلمون والصناع من بينهم شيخ الحرفة الذى هو صلة الوصل ما بينهم وبين الحكام ، وليشرف على قضايا الطائفة الحرفية ، الداخلية ، وليسهر على على تنفيذ ما اتفق عليه أبناء طائفته بين بعضهم ، ومع الطوائف الحرفية الأخرى .

— وتعهدت كل طائفة حرفية باسم شيخها ومعلميها أن تنتج من السلع مايكفى لحاجة السوق ، ويسد حاجة الحكام .

— ويتوازع أبناء الحرفة متكافلين جميع الرسوم التى تطلبها السلطة ، ويتساوون فى كل أنواع الربح والخسارة .

ـ ونظموا حراسة سوقهم باستئجار حارس له ، أو بقيامهم هم أنفسهم بالحراسة وبشكل دورى .

وقد تدخلت الدولة لتصدر الأوامر الشريفة بتسمية الشيوخ ، والموافقة على الاتفاقات وملاحقة المخالفين ،

أما في القرية :

فقد نظم أبناؤها أنفسهم على شاكلة الحي ، واختاروا لهم شيخاً أو أكثر ، ونظموا أعمال الفلاحة والحصاد والدراس بينهم ، وتكافلوا وتضامنوا فى السراء والضراء ، وعينوا لهم كاتباً لتسجيل الرسوم المجباة ، ولتوزيع الغلال على أصحابها ، كما نظموا حراسة القرية وحمايتها .

وفى مجال الخدمات العامة واليومية : فإن المجتمع كان يؤمنها عن طريق الأوقاف التى كان يتبرع بها الناس أنفسهم ، والتى عن طريقها كانت تبنى المؤسسات الضرورية للمجتمع ، ومن هذه التبرعات يجرى ضمان استمرار هذه المؤسسات وتمويلها ، فقد بنى الناس المدرسة والمسجد والحمام والبيمارستان (المشفى) وحوض الماء العام ، والناعورة ، والزاوية والخانقاه ، والرباط ، والتكية ، والخان ، والسوق ، والشارع المرصوف ، ، والجسر ، والسور ، والطاحون ، وغيرها من الأبنية التى يحتاجها الناس ، ثم رصدت لهذه المبانى الموارد اللازمة من أراضى زراعية ودور حوانيت وخانات ، وغيرها لتضمن استمرار كل بناء فى آداء مهمته ، ولزيادة أقسام فيه إن احتاج الأمر إلى ذلك .

كانت الدولة تتدخل فقط من أجل تنفيذ شروط الواقف ، وتعيين الموظفين المشرفين على الوقف ، كما تشرف على حسن الاستفادة منها .

كانت كل هذه الجوانب الاجتماعية لا تعطى صفة الشرعية إلا إذا وافق القاضى عليها ، وسجل وقائعها فى سجلاته ، ومنح أصحابها وثائق « تمسكات » هى دليلهم حين يختلفون ، ولدى البينة بأيديهم حين يتقاضون فلا يمكن أن يجرى إتفاق، فى السوق ، أو فى الحى ، أو القرية ، إلا ويسجل لدى القاضى . ثم إن المؤسسات الوقفية تحتاج إلى تسجيل كل أصولها النظرية لدى القاضى من أجل ضمان استمرارها والحفاظ على شروط واقفها ، وإن كل موظفيها يعينون من قبل السلطان نفسه ، كما أن أعمال حساباتها فى نهاية كل عام تعرض على القاضى لتصديقها ، بعد تسجيلها لديه، وكل عمل يجرى فى مبانى الأوقاف يسجل فى سجلات المحكمة لدى القاضى أولا ثم ينفذ .

وفوق ذلك كله فإن سجلات القاضى كانت تحوى كل حدث يجد فى اللواء ، كحدوث غزو ، أو كارثة طبيعية ، (سيل أو زلزال) . أو خصومات داخلية أو حرائق ، أو أعمال خراب عام . .

كل ذلك زيادة عن القضايا المحكمية العادية التى كانت تحدث بين الناس مثل قضايا زواجهم وطلاقهم ووصاياهم واختلافاتهم وبيوعهم وعقودهم . . الخ . . . كلها كانت تسجل فى سجلات المحاكم هذه السجلات التى مقسومة إلى قسمين : قسم تدرج به قضايا الناس ومشاكلهم ويسمى بالسجل العام ، أو سجل العامة ، وقسم تذكر فيه قضايا الادارة وما يتعلق بها ويسمى السجل الخاص .

من كل ما سبق تعرف مدى الأهمية البالغة التى تتمتع بها سجلات المحاكم الشرعيه كمصدر أساس لتاريخ العرب الحديث والتاريخ العثمانى .

وإذا عرفنا أن على القاضى أن يحافظ على السجلات ، ويحرص عليها لأن فيها كل ما ينظم حياة الناس ، وأسس وثائقهم ومعاشهم ، عرفنا أن معظم سجلات المحاكم الشرعية يجب أن تصل إلينا سالمة .

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً أن الدولة العثمانية كانت تتألف من مجموعة ولايات ، كل ولاية تتألف من مجموعة ألوية ، وكل لواء من مجموعة أقضية نسبة إلى القاضى ، وأن كل قضاء فيه محكمة شرعية وقاضى وله نوابه فى كل ناحية من نواحى القضاء، عرفنا أن تاريخ الدولة العثمانية كله ،ومنه تاريخ الولايات العربية ، محفوظ فى هذه السجلات فى كل صغيرة وكبيرة منه ولم يبق لمعرفته إلا استنفار الباحثين فى كل مدينة صغيرة لاخراج هذا التاريخ المفضل الأصيل لكل صفة ، والذى لا يزال دفين بطون سجلات المحاكم الشرعية (١)

---

١ — وقد بدأت فعلا بدراسة سجلات محكمة حماة ، وقدمت مجموعة دراسات عن لواء حماة منها دراسة عن «لواء حماة فى القرن السادس عشر» قدمتها كأطروحة للماجستير فى جامعة عين شمس وتحت إشراف استاذى الدكتور أحمد عزت عبدالكريم . كما درست « لواء حماة فى القرن الثامن عشر » وقدمت لمجلة الحوليات الأثرية العربية السورية مجموعة دراسات صغيرة عن : « ارتباط لواء حماة بمقاومة حملة نابليون بونابرت على مصر وسورية » و « صناعة الباردر فى حماة فى القرن السادس عشر» و« طوائف الحرف والأصناف فى حماة فى القرن السادس عشر » . وغيرها ، نشرت فى الاعداد (١٦ — ١٧ — ١٨ — ١٩) من هذه المجلة ، كل ذلك لأشق طريقاً عملية أمام السادة الباحثين ، ولأبين بالدليل أهمية هذه المجلات :وقد أستفدت فى كتابة هذا المقال من خاتمة أطروحتى « حماة فى القرن السادس عشر » ، ص ٢٧٠ — ٢٨٠ .

انباء ومؤتمرات

[illegible]